

من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي

تبسيط التداولية



د. بهاء الدين محمد مزيد

قسم دراسات الترجمة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة الإمارات العربية المتحدة

من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي

تبسيط التداولية

د. بهاء الدين محمد مزيد

الكتاب : تبسيط التداولية

المؤلف : د. بهاء الدين محمد مزيد

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٠

رقم الإيداع : ٢٠١٠/١٣٧١٦

الترقيم الدولي : I S B N 978 - 977 - 493 - 042 - 3

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى-المقطم-القاهرة

ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)، ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥ [٠٢]

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي

تبسيط التداولية

د. بهاء الدين محمد مزيد

قسم دراسات الترجمة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة الإمارات العربية المتحدة

قسم اللغة الإنجليزية. كلية الآداب. جامعة سوهاج



إلى ميرال و مريم و مروة،

اعتذاراً عن الانشغال والتقصير

وإلى اساتذتي،

عرفاناً وتقديراً" ..

بهاء

المحتويات

ثبت الاستطرادات

أمّا قبل: طرائق الترجمة ودرجاتها

من الراسخ في دراسات الترجمة التفريق بين ترجمة حرفية literal، وترجمة حرّة، أو وظيفية functional. في هذه القسمة ما فيها من تبسيط، لأنّ الترجمة الحرفية والوظيفية قد تجتمعان في نصّ مترجم واحد، وليس هناك ما يبرز الانحياز المطلق إلى أيّ منهما، كما أنّ طرائق الترجمة تتجاوز هاتين الطريقتين. فيما يلي تفصيل هذه الطرائق تأسيسا على تصنيف روبنســـــون Robinson (٢٠٠٣، ص ١٢):

١. ترجمة حرفية literalism، وتعني نقل النص الأصلي إلى اللغة المترجم إليها حرفيا مع التضحية – التي تنشأ عن عدم الكفاءة أو عن الضرورة - بجمالياته وعناصره الوظيفية. لهذه الطريقة وجاهتها في النصوص العلمية وبعض

وللتراجمة في النقل طريقان

"قال الصلاح الصفدي: وللتراجمة في النقل طريقان: أحدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحمصي وغيرهما. وهو أن ينظر إلى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية، وما تدل عليه من المعنى. فيأتي بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيثبته وينتقل إلى الأخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه. وهذه الطريقة رديئة بوجهين: أحدهما أنه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع الكلمات اليونانية. ولهذا وقع في خلال هذا التعريب كثير من الألفاظ اليونانية على حالها. الثاني أنّ خواص التركيب والنسب الإسنادية لا تطابق نظيرها من لغة أخرى دائما. وأيضا يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات. الطريق الثاني في التعريب طريق حنين بن إسحق والجوهري وغيرهما. وهو أن يأتي الجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها. سواء ساوت الفاظها أم خالفتها. وهذا الطريق أجود ولهذا لم تحتج كتب حنين بن إسحق إلى تهذيب إلا في العلوم الرياضية لأنه لم يكن قيما بها. بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعي والإلهي فإن الذي عربه منها لم يحتج إلى الإصلاح. فأما إقليدس فقد هذبه ثابت بن قرة الحراني وكذلك المجسطي والمتوسطات بينهما" (البهاء العاملي: الكشكول). وقد قوبل هذا التصنيف بكثير من النقد لما فيه من تبسيط ولأنّ كثيرا من المحدثين يستشهدون به دليلا على سبق العرب إلى التمييز بين الترجمة الحرفية والترجمة الوظيفية. ولهذا مقام غير ما نحاول هنا من تبسيط.

النصوص القانونية والدينية والوثائق والأوراق الرسمية.

٢. ترجمة تغريبية foreignism، وفيها يحتفظ النص المترجم بعناصر الغرابة في النص الأصلي. على سبيل التمثيل: هل تبقى "boyfriend" و"girlfriend" "صديق" و"صديقة"، أم تتحول إلى "زوج" و"زوجة" أو "زميل" و"زميلة" - من منطلق أنّ المفهوم الذي تعبّر عنه المفردتان الانجليزيتان لا يتمشى مع الثقافة العربية الاسلامية؟ يحدث هذا كذلك من العربية الى الانجليزية. فنجد من يترجم "الحج" مثلا إلى "Hajj"، ومن يترجمها إلى "pilgrimage". والدوافع متشابهة، فمن يُبقي على المفردة الإسلامية ويكتفي بتغيير الابجدية ربما يقبل دخولها الثقافة الغربية، ومن يستبدل بها مفردة إنجليزية ربما يسعى الى اضفاء روح ثقافته على المفردة العربية. هذا على سبيل التبسيط، لأنّ التغريب والتقريب لا يمكن اختزالهما إلى أرقام، كما لا ينبغي الإصرار على الاتهام، لأنّ الاختيار ربما يحدث لمجرد الجهل بالبديل. سوف يجد التغريب من يدافع عنه من خلال الحديث عن ضرورة الأمانة في الترجمة، والارتباط الذي لا ينبغي أن ينفصم بين اللغة وثقافتها وتهافت الرقابة في زمن السماوات المفتوحة. وسوف يجد التقريب من يدافع عنه كذلك من خلال الحديث عن نسبية مفهوم الأمانة، وعن ضرورة الحفاظ على الهوية والقومية.

٣. ترجمة رشيقة fluency تحتفظ قدر استطاعتها بجماليات النصّ الأصلي، وتراعي أساليب اللغة المترجم إليها وتراكيبها، ولو على حساب المعنى أحيانا. هذه التضحية - التي ربما تكون اضطرارية أو قسرية – تبرز استعارة "الجميلة الخائنة" les belles infideles في الحديث عن الترجمة (ومفادها أنّ الترجمة لا بد أن تنتهك النصّ الأصلي لكي تكون ترجمة جميلة). في الاستعارة بعض الحقيقة، لكنّ فيها كثيرا من التجني على الجميلات الفضليات، وعلى الترجمات التي تجتمع فيها الأمانة العلمية مع رشاقة الأسلوب وجمال الصياغة.

٤. ترجمة تلخيصية summary، وفيها تلخيص أفكار النصّ الأصلي، دون انشغال بلغته، أو تراكيبه، أو أساليبه البلاغية. والخطر الداهم هنا هو ما نعاين من سرقة أفكار الآخرين دون الرجوع إلى مصادرها. لا عيب في التلخيص، إلا ما يشتمل أحيانًا من إقحام، أو حذف يشوّه الأصل، أو يُجمّله لحاجات في نفوس المترجمين، أو من يستخدمهم – إضافة إلى رد الفضل إلى غير أهله.

٥. تعقيب على النصّ الأصلي commentary، لا يترجمه، ولا يترجم أفكاره، إلا للاستدلال أو إقامة الحجة. ولا عيب في التعقيب إذا لم يحاسب النصّ الأصلي على ما لم يرد فيه، ولا قال به مؤلفه. حتى عند التعقيب تبقى الأمانة ضرورية لازمة.

٦. تلخيص وتعقيب summary and commentary. حيث يجتمع تلخيص الأفكار مع مناقشتها والتعقيب عليها، وهو ما يحدث عادة في الدراسات العليا ورسائل الماجستير والدكتوراه. ولا حاجة إلى تكرار الحديث عن المزالق والمخاطر، لأنّ ما يُجرّم التلخيص أو التعقيب منفردين يُجرّمهما مُجتمعين.

٧. اقتباس ومعالجة adaptation. ويعني وضع فكرة أو أفكار النص الأصلي في قالب أو جنس خطابي مغاير. ومن ذلك ترجمة قصيدة إلى قصة قصيرة. أو ترجمة لوحة إلى مقالة، أو ترجمة مسرحية إلى قصيدة. ومن ذلك ما ألفنا في الثقافة العربية من وضع قواعد النحو وأحكام التلاوة في قالب شعري حتى يتيسر حفظها واسترجاعها.

٨. تشفير encryption، ويعني ترجمة النص إلى شفرة سرية لا يعلمها إلا نخبة يجمعها السنّ أو التخصص، أو الميول والاهتمامات.

هذا الكتاب

ما علاقة كلّ ما سبق بما نحن بصدده في هذا التبسيط؟ إذا كانت الغاية هي تقديم التداولية للقارئ العربي، دون ادّعاء السبق، لأنّ المقاربة ليست الأولى، فلماذا لا نترجم نصّاً من النّصوص المؤسّسة في التداولية – كتاب لجون سيرل أو لجون أوستن أو لجيفري ليتش، على سبيل المثال؟ الاجابة يسيرة وحاضرة: لأنّ أيّاً من هذه النصوص لا يحتوي كلّ طروحات التداولية ومفاهيمها وأدواتها، ولأنّ ما في كلّ نصّ على حدة ربما لا يفيد القارئ في السياق العربي – من تفاصيل، واستطرادات، وإحالات إلى سياقات غريبة، وهوامش مرهقة، وغير ذلك. على أنّ هذا لا ينبغي أن يكون مبرراً

وهذا كتابٌ

"وهذا كتابٌ موعظةٍ وتعريفٍ وتفقّهٍ وتنبيه. وأراك قد عبته قبل أن تقف على حدوده، وتتفكّر في فصوله. وتعتبر آخره بأوله، ومصادره بموارده. وقد غلّطك فيه بعضُ ما رأيت في أثنائه من مزحٍ لا تعرف معناه، ومن بطالةٍ لم تطّلع على غورها؛ ولم تدرِ لِمَ اجتُلبت، ولا لأيّ علّة تُكلّفت، وأيّ شيء أُريد بها. ولأيّ جِدٍّ احتُمل ذلك الهزل، ولأيّ رياضة تُجُشّمت تلك البطالة؛ ولم تدرِ أنّ المزاح جدٌّ إذا اجتُلب ليكون علّة للجدّ، وأنّ البطالة وقارٌ ورزانة، إذا تُكلّفت لتلك العاقبة. ولمّا قال الخليلُ بن أحمد: لا يصل أحدٌ من علم النحو إلى ما يحتاجُ إليه، حتى يتعلّم ما لا يحتاج إليه. قال أبو شمر: إذا كان لا يُتوصّل إلى ما يحتاج إليه إلاّ بما لا يحتاج إليه، فقد صار ما لا يُحتاج إليه يُحتاج إليه. وذلك مثل كتابنا هذا؛ لأنّه إن حملنا جميع من يتكلّف قراءة هذا الكتاب على مُرّ الحقّ، وصُعوبة الجِدّ، وثقل المئونة، وحلية الوقار. لم يصبر عليه مع طوله إلاّ من تجرّد للعلم، وفهم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر قلبه من عزّه، ونال سروره على حسب ما يورث الطول من الكدّ، والكثرةُ من السآمة..." (الجاحظ: الحيوان، موقع الوراق، ص ١٢).

لعلّ من الملائم أن نسوق هذه المقدمة (وفيها يشرح الجاحظ علة ما يحتويه كتابه من مزح) في مقام التبرير. تبرير الكلام عن الترجمة في مقدمة تبسيط التداولية. في مقدمة الجاحظ جملة لعلها ذهبت مثلاً، وإن لم تكن قد فعلت فهي جديرة أن تفعل. ألا وهي "لا يصل أحدٌ من علم النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه". أمّا تبرير الكلام عن الترجمة في مقامنا الراهن فهو بيان أنّ الترجمة في معناها الرحب تشمل ما يجد القارئ في هذا التبسيط من تلخيص وتعقيب ومعالجة. هذا إلى ما فيه من ترجمة بالمعنى الضيّق للمصطلح.

لسرقة أفكار الآخرين. من هنا، تؤثر المقاربة الراهنة ترجمة الأفكار الأساسية والمصطلحات وتعريفاتها وبعض الأمثلة، على سبيل التلخيص. مع تطويع تلك المصطلحات والتعريفات بما يناسب اللغة العربية، بما يضمن حداً أدنى من القبول، وإضافة أمثلة وتوضيحات قريبة من العقل العربي وتعقيبات وإحالات في البلاغة العربية. على سبيل المعالجة والتأصيل، بما يناسب المقام والفكرة والمصطلح.

هذه التداولية، إذن، تبسيط مُخلّ مهما طال، ينطلق من كتابات أوستن Austin (١٩٦٢)، وجرايس Grice (١٩٧٥)، وسيرل Searle (١٩٧٥)، ولايكوف Lakoff (١٩٧٣)، وليتش Leech (١٩٨٣)، وهاليداي Halliday (١٩٨٥)، وغيرهم. ودراسات الخطاب عند دي بوجراند De Beaugrande، وفان دايك van Dijk، والتحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي عند الأخير وعند بول تشيلتون Chilton وشيفنر Schaffner، وغيرهم. لكنه لا يتوقف عندها. والغاية في كلّ ما يرد بعد هذه المقدمة هي التبسيط وتقديم بعض المفاهيم والنماذج والقواعد والأدوات القابلة للممارسة والتطبيق. لا تثريب على هذا التبسيط إذا أغفل المناقشات الفلسفية، وتفاصيل التفاصيل، والانتقادات، والانتقادات المضادة، والتفريعات. وجدل المصطلحات، وقضايا الحدود بين التخصصات، والنظريات والاتجاهات اللغوية. لأنّ هذا له مقامات أخرى. ولا تثريب على هذا التبسيط إذا وجد فيه القارئ كثيرا من التصرّف، لأنّ التصرّف بما يضمن وصول الفكرة على حساب الترجمة الحرفية الكاملة هو بعض أدواته. غير أنّ التصرّف لا يعني بحال من الأحوال أن ننسب إلى مؤلف ما لم يقل، إنما يعني أن نقرّ له بالفضل في ترسيخ الفكرة وتقديم المصطلح وتطوير النظرية أو النموذج، ثم ننطلق منه إلى التعريب والتوضيح والتمثيل، وإلى ما يناسب ذلك من نصوص البلاغة العربية ومقولاتها.

قد تبدو فصول هـذا التبسيط غير مترابطة. لكنّها ليست كذلك. إنّ الفصول التي يضمّها هذا الكتاب هي الموضوعات الكبرى في التداوليّة، وما يتصل بها من تحليل الخطاب على وجه العموم، وتحليل الخطاب السياسي على وجه الخصوص. يبدأ التبسيط بسؤالين: "ما هي التداوليّة؟" و"كيف تطوّرت؟" وتشمل هذه البداية الموجزة تعريف التداوليّة، وترجمتها، ونبذة عن جذورها وخلفيّاتها. يتبع ذلك الكلام عن السياق، خصوصاً ذلك

أيها القارئ

"أيها القارئ!
هذه مقالات مختلفة في مواضيع شتى كتبت في أوقات متفاوتة، وفي ظروف وأحوال لا علم لك بها ولا خير على الأرجح. وقد جمعت الآن وطبعت وهي تباع المجموعة منها بعشرة قروش لا أكثر! ولست أدعي لنفسي فيها شيئا من العمق أو الابتكار أو السداد. ولا أنا أزعمها ستحدث انقلابا فكريا في مصر أو فيما هو دونها. ولكني أقسم أنك تشتري عصارة عقلي وإن كان فجا. وثمرة اطلاعي وهو واسع، ومجهود أعصابي وهي سقيمة. بابخس الأثمان! وتعال نتحاسب! ... وفي الكتاب عيب هو الوضوح فاعرفه! وستقرؤه بلا نصب، وتفهمه بلا عناء ثم يخيّل إليك من أجل ذلك أنك كنت تعرف هذا من قبل وأنك لم تزد به علما! فرجائي إليك أن توقن من الآن أنّ الأمر ليس كذلك وأنّ الحال على نقيض ذلك" (إبراهيم عبد القادر المازني: حصاد الهشيم. المقدمة. ١٩٢٤. القاهرة: طبعة مكتبة الأسرة. ٢٠٠١. ص ص ٣-٤). هذه مقدمة أخرى طريفة لكنّ طرافتها ليست تبريراً شافيا لوجودها هنا. السياقان مختلفان – سياق هذا الكتاب وسياق حصاد الهشيم – وكذا قيمة كل من الكتابين وأهدافهما وأسلوبهما. لكنّ من اللائق أن أعترف بمثل ما اعترف به المازني في قوله "لست أدعي لنفسي فيها شيئا من العمق أو الابتكار أو السداد، ولا أنا أزعمها ستحدث انقلابا فكريا في مصر أو فيما هو دونها".
أمّا أنّ الكتاب "عصارة عقلي... وثمرة اطلاعي... ومجهود أعصابي ..." فهذا مما لا أستطيع أن أذهب فيه إلى ما ذهب إليه المازني. هذا التبسيط ثمرة سنوات من التعلم والقراءة والتعليم. والحال هكذا. فلابد أن أرد الفضل لأهله من أساتذة أفدت من علمهم تتلمذا أو قراءة أو استماعا أو مراسلة، وممن تحاورت معهم من زملاء وأصدقاء وطلاب، وممن لم أشرف بالتعرّف إليهم من أساتذة قرأوا ما كتبت فأعانوني على إصلاح كثير مما فيه من عيوب. أمّا ما بقي بغير إصلاح، فلا تثريب فيه عليهم. ولا تثريب عليهم فيما يضم الكتاب من ترجمات. وكلّها لكاتبه ما لم يرد غير ذلك في موضعه.

التصوّر الذي قدمه دل هايمز، ثمّ النحو الوظيفي وأطروحات هاليداي. وتصنيفه وظائف اللغة وأفعالها، ثمّ المبدأ التعاوني لبول جرايس. وهو الأساس الذي قامت عليه نظريات الكياسة واللياقة، وأمثلة لتوظيفه توظيفا ذكيا في النثر العربي. ثمّ التضمين وما يرتبط به من الافتراض المسبّق والمعلوم من التلفظ أو الجملة بالضرورة. وجميعها تتّصل اتصالاً وثيقا بهذا المبدأ. وتفسّر كثيرا من انتهاكاته لتحقيق غايات بلاغية. ثم نظرية أفعال اللغة في فصل "ماذا نفعل بالكلمات؟". وهو فصل تأسيسيّ مهم تنطلق منه جملة مفاهيم تداولية. ثمّ التأدّب والكياسة والنظريّات المهمّة في هذا الصدد لليكوف وليتش وبراون وليفنسون. ثم الإشارة التي تتجاوز ما نعرف من أسماء الإشارة إلى الإشارة الاجتماعية والخطابية والزمنيّة والوجدانيّة، تتبعها نبذة عن التداوليّة العامّة التي طوّرها هابرماس. وتسعى إلى التوفيق بين النظريّة والتطبيق، ثمّ تحليل الخطاب ولغويات النص، وما يرتبط بهما من دراسة السبك والحبك وشروط النصيّة، ثمّ التحليل النقدي للخطاب ومفاهيمه، ومنطلقاته، وأدواته، ثمّ تحليل الخطاب السياسيّ، وهو امتدادٌ مُهمّ لتحليل الخطاب التقليدي والنقدي. يلي ذلك تعريج على دراسات تحليل الخطاب (السياسي) في العالم العربي. وينتهي الكتاب بمجموعة من النصوص والتطبيقات لبعض ما ورد فيه من أدوات ومفاهيم.

وفي الكتاب عددٌ كبير من الاستطرادات ترد في نهاية كلّ فصل من فصوله. لعلها لا تبدو نافرة أو مقحمة، بعضها استطرادات مهمّة عن المفاهيم، أو الأدوات، أو الأطروحات التي يتناولها الكتاب، وبعضها أمثلة طريفة في مواضعها، وبعضها إشارات إلى البلاغة العربية بما يناسب المقام، وبعضها اقتباسات مهمّة ذات صلة بموضوعات الكتاب، أو تعليقات على ما فيه من مصطلحات، أو على مشكلات ترجمة التداولية في الثقافة العربيّة.

ما هي التداوليّة؟

التداوليّة لغةً من التداول، والتداول تفاعل. وكلُّ تفاعل يلزمه طرفان على أقلّ تقدير: مرسل ومستقبل، متكلّم وسامع، أو مستمع، كاتب وقارئ. على معنى أنّ مدار اشتغال التداوليّة هو مقاصد وغايات متكلّم، وكيف تبلغ مستمعا أو متلقيا. وكلُّ تداول تحكمه ظروف وآليات وعوامل تحيط به. لذا فالترجمة لها ما يبرّرها. ويبدو أنها قد استقرت بالفعل على حساب "البراجماتية" و"البراجماتيكية". وهما، بالاضافة إلى "اعجميتهما"، ربما تؤديان إلى خلط بين المقصود في هذا التبسيط والمدرسة الفلسفية المعروفة بالنفعيّة أو الذرائعيّة Pragmatism (البراجماتيّة أو البراغماتيّة)..

أمّا اصطلاحا، فالتداوليّة Pragmatics هي دراسة اللغة قيد الاستعمال أو الاستخدام language in use، بمعنى دراسة اللغة في سياقاتها الواقعية. لا في حدودها المعجمية، أو تراكيبها النحوية. هي دراسة الكلمات والعبارات والجمل كما نستعملها ونفهمها ونقصد بها، في ظروف ومواقف معينة، لا كما نجدها في القواميس والمعاجم، ولا كما تقترح كتب النحو التقليدية. خذ مثلا كلمة "شكرا". في لسان العرب لابن منظور "الشُّكرُ: عرفانُ الإحسان ونشرُه، وهو الشُّكورُ أيضا. قال ثعلب: الشُّكرُ لا يكون إلاّ عن يد، والحمدُ يكون عن يد وعن غير يد، فهذا الفرق بينهما. والشُّكرُ من الله: المجازاة والثناء الجميل، شكرهُ وشكر له يشكرُ شكرا وشُكورا وشُكرانا".

وفي استعمالاتنا اليومية، تتجاوز الكلمة مُجرّد العرفان بالاحسان ونشره. فتنشأ عنها معانٍ جديدة، ودلالات تتجاوز حدودها المعجمية الضيّقة مهما اتسعت. فربّما أوحت بالرفض، أو التهكّم، أو الضيق. مثلٌ آخر: ماذا تقول معاجمنا العربية عن "الحرارة"، و"البرودة"، و"البيئة"؟ لا بُدّ أنّ ما يرد فيها (من ذكر الحرّ بوصفه نقيض البرد، والبيئة بوصفها ما يحيط بنا من كائنات وأشياء وظروف) يقصُر عن إدراك كل ما تعني تلك المفردات في سياقاتها الراهنة المتباينة (من قبيل الدماء الحارة، وحرارة

اللقاء، وبرودته، وبرودة المشاعر، والبينة صفة لكلّ ما هو حقير في بعض اللهجات العربية المعاصرة) . يصدق هذا على العبارات والجمل والنصوص.

بهذا المعنى، تمثّل التداولية، في انشغالها بعلاقة العلامات بمنتجها، ومستقبلها، وسياق إنتاجها، وتلقيها، الضلع الثالث من أضلاع مثلث علم العلامات وفق توصيف موريس Morris (١٩٣٨)، أمّا الضلعان الأول والثاني فهما النحو Grammar وعلم الدلالة Semantics. ينشغل النحو بعلاقة العلامات بعضها ببعض، أي علاقة المفردات، والأدوات، والروابط في العبارة، والجملة، والنصّ، أي ببناء الجملة والعبارة، والعلاقات التي تربط بين مكوناتهما. أمّا علم المعنى أو الدلالة فيتناول علاقة العلامات بما تشير إليه، سواء كانت أشياء، أو كائنات، أو تصوّرات.

على سبيل التبسيط نتوقف عند مثال واحد، وهو كلمة "عسل". من وجهة نظر نحوية يلفتنا إفراد هذه الكلمة ودخولها في علاقات بنائية، كالصفة في علاقتها بالموصوف، والتعريف والإضافة، في عبارات وجمل من قبيل "عسل طيب". و"عسل النحل"، و"العسل فيه شفاء للناس". من ناحية المعنى، تُحيل المفردة إلى مادة نعرفها، وإلى ما يرتبط بها من الصفاء والشفا، أمّا من ناحية التداولية، فتكتسب المفردة دلالات متباينة، وربّما متناقضة، في سياقات مختلفة، ولإغراض شتّى، كالمدح، والوصف، والغزل، وربّما التهكّم.

يصدق هذا - على ما فيه من تبسيط - على سائر المفردات والعلامات. وقد كان من أثر تطوّر علم العلامات – وهو يستحق تبسيطا منفردا ومعالجة وافية - أن تجاوزت أضلاع المثلث الثلاثة - النحو وعلم الدلالة والتداولية - حدود اللغة التقليدية الضيقة، إلى رحابة العلامات، على معنى أنّ للصورة أبعادها التركيبية والدلالية والتداولية، وللون، وللحركة، وللرائحة، وللإيماءة، ولغير ذلك من صنوف العلامات، ولها ما للمفردات من معان قريبة، وأخرى بعيدة، وفيها ما فيها من تشبيهات واستعارات. وسوف نجد طرفاً من ذلك في هذا التبسيط.

كيف تطوّرت؟

تطوّرت التداوليّة ضمن مجموعةٍ من المقاربات اللغوية. من بينها تحليل الحوار Conversation Analysis، وتحليل النص Text Analysis، وتحليل الكلام/ الخطاب Discourse Analysis، بوصفها امتدادا طبيعيا لأطروحات النحو الوظيفي Functional Grammar التي طوّرها هاليداي (١٩٨٥). كما ترد الإشارة إلى ذلك لاحقا، ومنها أنّ المعنى ليس فيما يقول النُّحاة ولا ما تقول المعاجم، على ما لكليهما من أهمية، ولا في العمليات المعرفيّة المجرّدة من سياقاتها، لكن فيما يقصد من يستخدم اللغة وما يريد، وفيما يفهم من يتلقاها - استماعا أو قراءةً - وفيما ينتج من دلالات من خلال ظروف السياق.

وقد أصبح السياق، وهو موضوع الفصل التالي من هذا الكتاب، مفهوما مركزيا في كل الاتجاهات الوظيفية، بما في ذلك التداوليّة. وكان لتصوّر دل هايمز عن عناصر السياق أصداؤه الواسعة التي تظلُّ تتردّد حتى اليوم. ومن مُقدِّمات التداوليّة كذلك نظرية أفعال اللغة/ الكلام كما طوّرها جون أوستن وجون سيرل. والمبدأ التعاوني ومفهوم التضمين عند بول جرايس. حتى إذا استوت التداوليّة وتحليل الخطاب (مترادفين، أو متمايزين، أو متداخلين) على سوقهما، نشأت الحاجة إلى منظور نقدي سياسي، فكان التحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي.

السّياق

في مربع النصّ المرفق بعض ما ورد في البلاغة العربية عن "المقـام" - وهو ما يقابل مفهوم speech situation في المقاربات الغربية - عند الجاحظ من اقتباسات تؤكد على تحيّن الفرصة السانحة والظروف المناسبة لإنجاز المهام البلاغيّة التواصليّة، ومن كلامه عن بلاغة الإقناع، وعند الجرجاني، في ربطه العبارة بالمقاصد في دراسته النظم والإعجاز، وغيرهما.

في الغرب، كان لمقولات دل هايمز Hymes (١٩٧٢) عن الكفاءة التواصلية Communicative Competence - التي تتجاوز مجرّد الكفاءة النحوية والصرفية والصوتية وفهم المفردات المجرّدة،

ما البلاغة؟

"قيل للفارسيّ: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل. وقيل لليونانيّ: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. وقيل للروميّ: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة. وقيل للهنديّ: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. وقال بعضُ أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجّة، والمعرفة بمواضع الفرصة، ثم قال: ومن البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضرابُ عنها صفحا أبلغ في الدرك، وأحقّ بالظفر. قال: وقال مرّة: جماع البلاغة التماس حُسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الخرق بما التبس من المعاني أو غمض، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذّر" (الجاحظ: البيان والتبيين، ص ٢٧، من موقع الوراق).

إلى فهم الموقف والسياق، واختيار المفردة المناسبة في المكان المناسب، إذا جاز التعبير، وما إلى ذلك – تأثيرها البالغ في تطور التداولية اللغوية. ومن طروحات هايمز المُهمّة كلامه عن السياق، وما يندرج تحته من عوامل ومتغيّرات لخّصها في كلمة SPEAKING (١٩٧٤، ص ص ٥٤-٥٧). فيما يلي بيان وتوضيح معناها.

مع استطرادات مضافة، وسوف تتردّد هذه العناصر والمكونات في كل ما يلـــي مـــن أجزاء هذا التبسيط:

§ المكان والزمان Setting - ما يُقال في البيت ربّما لا يجوز أن يُقال في المسجد أو الجامعة، وما يمكن أن نقبله في توقيت بعينه ربّما لا نقبله في غيره.

§ المشاركون Participants - من يتحدث إلى من؟ وعن؟ وفي حضور مـــن؟ وما العلاقة التي تربط أطراف الحوار أو الخطاب؟ بنـــوة. أم صـــداقة. أم زمالـــة. أم زواج، أم عداوة. أم تتلمذ. أم غير ذلك - كلها متغيرات مهمّة تشكّل اللغة. وتـــؤثر في اختيارات من يستخدمها على مستوى المفردات، والتراكيب، والصيغ. غير أنّ ما ينبغي أن يركّز عليه التناول هو علاقات التقارب والتباعد التي تصل أو تفصـــل بـــين المشاركين. وهذا جانب من التحليل وجد عناية خاصة من نقاد التداولية التقليدية فيما بعد.

§ الغايات والأهداف Ends - لماذا نتكلم، أو نتحاور، أو نكتـــب؟ ربّمـــا بغـــرض الإقناع، أو الإخبار، أو الإيهام، أو الكذب، أو الخداع، أو الترغيـــب، أو الترهيـــب، أو النصح، أو التحذير، أو التعليم، أو التهذيب، أو التجميل، أو التشويه، أو المـــدح، أو الذمّ، أو غير ذلك. في البلاغة العربية فصول ناصعة عن الأغراض الشـــعرية، مـــن وصف، وغزل، وتشبيب، ورثاء، وهجاء، وفخر، وهكذا، ولا بدّ أنّ من طـــالع بعـــض هذه الفصول قد وقف على تأثير الغرض الشعري في المفردات، والصياغة، والإيقاع. على أنّ دراسة غرض الخطاب لا ينبغي أن تقتصر علـــى النصـــوص الشـــعرية، ولا اللغوية، بل يجب أن تتجاوز ذلك إلى كلّ ما يُنتج دلالة، لأنه ينتجها لتحقيق غاية.

§ تتابع وحدات النص/ الخطاب، وترابطها Act Sequence - كلُّ خطاب يقـــع بين خطابين: سابق ولاحق، ويرتبط بهما، فربّما تروي طرفة تعقيبا على بعـــض مـــا يقول مُحدثك، وربّما تذكره بآية من القرآن الكريم، أو حديث شريف، وربّمـــا يعقـــب الاعتذار القبول، أو الإعراض، ويعقب التهنئة الشكر. وفي الرسالة تحيـــة، وســـلام، فسؤال عن الحال والمآل، ثم الوفاء بغرض الرسالة، فالأمنيات الطيبة، والسلام.

§ الجو النفسي ونغمة الحوار/ النص Key. يتجاوز مفهوم النغمة في هذا السياق مجرد الحزن أو البهجة، إلى غير ذلك من سخرية، أو تهكم، أو جدية، أو وقار، أو فكاهة. ولا بدّ أننا لاحظنا أنّ الحدود التي تفصل بين الجو النفسي وغرض النص واهية. لا تكاد تبين في غالب الأحوال، فلا بدّ أن يشتمل الهجاء على شيء من التهكم، والبكاء على الأطلال على حزن وفجيعة.

§ آليات تحقيق الغايات البلاغية والخطابية Instrumentalities ووسائلها وأدواتها - من مفردات مختارة بعناية، وتراكيب ملائمة، وصور وتعابير، وتوظيف لصنوف الاتصال غير اللفظي. لا حصر لما يمكن أن يستخدم المتكلم أو الكاتب من أدوات لتحقيق غاياته البلاغيّة والتواصليّة.

§ القواعد التي تحكم إنتاج النص/ الخطاب وتلقيه Norms من قواعد لغوية خطابية تنسجم مع جنس الخطاب وغاياته، وقواعد اجتماعية تنظم استخدام اللغة وإنتاج الخطاب عموماً، وقواعد تقنية تنسجم مع الوسيلة التي ينتقل من خلالها الخطاب.

، الجنس/النوع الخطابي الذي ينتمي إليه النص/ الخطاب Genre (من اللازم في هذه المرحلة من نضج التداولية وتحليل الخطاب أن نتخلى عن مفهوم الجنس الأدبي، ما دمنا لا نتحدث عن الأدب، لصالح المصطلح الأرحب، وهو الجنس أو النوع الخطابي). تفرض أجناس الخطاب المتباينة قيوداً مختلفة على منتجيه. حين نقرأ تقريراً إخبارياً عن مباراة في كرة القدم، نتوقع أن نجد استعادة لما جرى في شوطيها، وما حفلت به، أو لم تحفل به، من أهداف، وأحداث أخرى مؤثرة. ونتوقع أن نعرف أسماء اللاعبين، وطاقم التحكيم، وزمان المباراة، ومكانها، وما إلى ذلك. نتوقع كذلك سرداً في صيغة الماضي، وأفعال حركة، وتحول، واستعارات "حربية"، وطرائق سبك وحبك تحيل إلى الزمان من بداية المباراة حتى نهايتها.

ومن الكلام عن السياق ما ورد عن مالينوسكي ومن بعده روجر فاولر Fowler (١٩٨٦) من تصنيفه إلى سياق الجملة أو العبارة (السياق اللغوي) context of

utterance، وسياق الموقف context of situation، وسياق الثقافة context of culture، وهو تصنيف ينتقل من الضيق إلى السعة – من سياق الكلمات والتراكيب، إلى ما يحيط بها من ظروف الزمان والمكان. والظروف الاجتماعيّة، والعلاقات بين المشاركين في الخطاب، إلى الثقافة التي ينتج فيها الخطاب، وما تشتمل عليه من قيم، ومعتقدات، وعادات وتقاليد، وطقوس وشعائر، وأساطير، وغير ذلك.

1

فان دايك (٢٠٠٨)

مقدمة عن السياق

قبل ثلاثين عاماً، ألفتُ كتاباً بعنوان (النص والسياق) تناولتُ فيه مفهوم النص تناولاً شاملاً جاداً مسهباً، لكن السياق – وبما له من أهمية بالغة في فهم الجذور الاجتماعية للخطاب - لم يحظ بنفس هذا التناول في الكتاب. فيما أعقب ذلك من دراسات في مجال التحليل النقدي للخطاب – على سبيل المثال في دراستي عن العنصرية والأيديولوجيا والخطاب – تناولت السياق بتوسع وإسهاب بوصفه خلفية اجتماعية للخطاب، غير أنني لم أتناوله من الناحية النظرية.

لقد درج تناول السياق في دراسة اللغة والخطاب بالنظر إلى عدد من المتغيرات الاجتماعية المستقلة، كالنوع والطبقة الاجتماعية والخلفية العرقية والسن والهوية، أو الظروف الاجتماعية التي تحيط بالخطاب نصاً كان أم كلاماً. في دراسات الإشارة indexicality سواء من جوانبها الشكلية النحوية أم من زاوية بيناتها الاجتماعية، يرد تعريف السياق دلالياً بمعنى ما يُشار إليه أو ما تحيل إليه التعابير

الاشارية. لكن يبقى هذا التعريف قاصرا ومحدودا بالإشارة إلى الزمان والمكان. في نظرية فعل الكلام (اللغة) Speech Act Theory تفصيل بعض سمات من يتكلم ومن يسمع أو يستمع - من خلفياتهما المعرفية ورغباتهما ومكانة كل منهما الاجتماعية - تفصيلٌ يسعى إلى صياغة لشرائط الملاءمة وضروراتها. لكن النظرية في نسخها المتعاقبة لم تسع إلى تحليل هذه الأشرائط والضرورات السياقية تحليلا منهجيا رصينا.

في التحليل النقدي للخطاب Critical Discourse Analysis، تحظى الظروف الاجتماعية التي تحيط بالخطاب باهتمام كبير، خصوصا ما يتصل منها بالقوة (أو السلطة) Power وسوء استخدامها، لكن هذا الاتجاه فشل أيضا في تطوير نظريات واضحة المعالم للسياق تعينه على ترسيخ مشروعه النقدي. إنّ القوة لا تتبدى في بعض أبعاد "خطاب الأقوياء" فحسب، بل تبقى الحاجة إلى فهم سياقها الواسع المركب حتى تتجلى علاقتها بالخطاب نصا كان أم كلاما وحتى نفهم كيف يُعيد الخطاب إنتاج البنى والأنساق والعلاقات الاجتماعية.

و قد تطورت الدراسات النفسية المعرفية للخطاب وكذا دراسات الذكاء الاصطناعي تطورا ملموسا في العقود الأخيرة فيما يتصل بالتعرف على العمليات والتمثيلات الذهنية التي يشتمل عليها إنتاج الخطاب وتلقيه. ألقى هذا التطور الكثير من الأضواء على الدور الجوهري المهم للنماذج الذهنية والمعرفية فيما يتعلق بمعالجة الخطاب وتداوله. غير أنّ هذه النماذج ظلت دلالية في جملتها على حساب الجوانب التداولية. وباستثناء عدد من الدراسات التجريبية التي تناولت الفروق الفردية واختلاف المقاصد والأهداف، لم يحظ أثر السياق في معالجة الخطاب بما يستحق من دراسة عملية منهجية منتظمة.

أما علم النفس الاجتماعي فهو من بين فروع المعرفة القليلة التي طوّرت وقدّمت أفكارا عن بنية المواقف والوقائع والأحداث الاجتماعية من الممكن أن تكون أساس نظرية سياقية. غير أنّ هذه الأفكار لم يكن يُقصد بها سياق الخطاب. في الحقيقة يبقى

الانشغال بدراسة الخطاب هامشيا في علم النفس الاجتماعي إجمالاً، إلا في التحليل النفسي للخطاب أو"علم نفس الخطاب" إذا جاز التعبير. Discursive Psychology
و إذا كان لأيٍّ من فروع المعرفة أن يلقي الضوء على طبيعة السياق وأثره في الخطاب، فلعلم الاجتماع أن يفعل ذلك. لكن المفارقة هي أنّ التأثير المهم لعلم الاجتماع في دراسة وتحليل الخطاب قد ذهب إلى تحليل المحادثة أو الحوار conversation analysis الذي ظل - على الأقل في بدايته - مُجتثا من سياقه أكثر من تحليل الخطاب، يركز على بنية التفاعلات اللغوية وتنظيمها على حساب زمانها ومكانها وسمات المشاركين فيها. غير أنّ علينا أن نتوقف هنا عند المحاولات المتناثرة في عقود سابقة لتحديد وتعريف المواقف الاجتماعية social situations في علم الاجتماع والتي بلغت نضجها في كتابات إرفنج جوفمان Goffman – ولعله أكثر علماء الاجتماع إسهاما في إلقاء الضوء على أثر الموقف الاجتماعي في الكلام والتفاعلات اللغوية.

غير أنّ الأنثروبولوجيا، خصوصا دراسة بينات الكلام ethnography of speaking والأنثربولوجيا اللغوية، هي الوحيدة من بين الاتجاهات البحثية التي تنشغل باللغة التي اهتمت اهتماما واضحا لعقود عدة بدراسة السياق بوصفه مكونا جوهريا من مكونات "الوقائع أو الأحداث التواصلية". بداية من طرح دل هايمز Hymes تصوره عن تلك المكونات والذى اختزله في كلمة SPEAKING في ستينيات القرن الماضي، يتصل بذلك ما قام به جون جومبيرز Gumperz من دراسات إثنوجرافية وما أجرى غيره من دراسات في علم اللغة الاجتماعي التفاعلي Interactional Sociolinguistics تتناول تحليل اللغة في سياقاتها الاجتماعية contextualization. وحتى يومنا هذا، يظلّ هذان الفرعان من الأنثروبولوجيا متفردين فيما يُنشر من دراسات وكتب عن السياق ووضع اللغة في سياقاتها الاجتماعية.

من خلال ما سبق من عرض موجز، نستطيع أن نخلص إلى أنّ هناك اهتماما متزايدا بدراسة السياق في كل فروع المعرفة في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية. غير أنّ هذا الاهتمام ما زال يعوزه التركيز. هناك آلاف من الكتب في غير فرع من فروع المعرفة نجد في عناوينها كلمة "السياق" context لكنّ في جلّ هذه الكتب تفتقد المفردة لصرامة الدلالية. فتشير إلى "البيئة" أو "الموقف" أو "الخلفية" أو "الظروف" الاجتماعية أو السياسية أو الجغرافية أو الاقتصادية. ويندر أن ترد بمعناها المحدد وهو "سياق النص أو الكلام".

وهناك عدد لا بأس به من الكتب في اللغويات ودراسات الخطاب والعلوم الاجتماعية يرد فيها السياق بوصفه مجموعة من القيود التي تحيط بالخطاب وتُحدد نتائجه وتوابعه. غير أنّ هذه الدراسات تركز في جملتها على الخطاب ذاته، لا على سياقاته المعقدة المتشابكة. ليس هذا بمستغرب لأنّ مفهوم السياق لا يمكن أن يتجلى إلا بالنسبة إلى النص، على معنى أنّ النص – أو الكلام – هو الظاهرة المحورية وبؤرة الاهتمام. أمّا السياق فتكمن أهميته في إلقاء مزيد من الضوء على الخطاب وتيسير تحليله وفهمه. وإذا لم يؤد السياق هذا الدور، فإنّ دراسته المجردة تنتمي إلى علم النفس أو علم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا في دراستها الزمان والمكان والفاعلين في المجتمع وسماتهم المميزة وكذا مداركهم ونشاطاتهم وتفاعلاتهم وممارساتهم وتنظيماتهم الاجتماعية.

لقد آن الأوان لأخذ السياق مأخذ الجد ولصياغة نظريات واضحة المعالم عن السياق والطرائق التي يرتبط بها بالخطاب والتواصل. هذا الكتاب، وكذلك كتاب (المجتمع والخطاب) (van Dijk, 2008) الذي يتناول دراسة السياق في العلوم الاجتماعية، محاولة لصياغة نظرية يصدق عليها ما سبق من وصف. في سبيل هذه الغاية، يتناول هذا الكتاب بالدراسة مفهوم السياق واستخدامه وما يمكن أن يندرج تحته من عناصر في اللغويات وعلم اللغة الاجتماعي وعلم النفس المعرفي. أمّا كتاب (المجتمع والخطاب) فينتقل بهذا التناول النظري إلى علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع

والأنثروبولوجيا، وسوف ترد إشارات إلى بعض الدراسات في هذه العلوم في غير موضع من هذا الكتاب. ورغم أنّ الكتابين متصلان لا سبيل إلى فصلهما، يظل كل منهما دراسة مستقلة بذاتها حيث يخاطب هذا الكتاب المهتمين باللغويات وعلم اللغة الاجتماعي وعلم النفس المعرفي، بينما يخاطب الآخر المهتمين بعلم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والعلوم السياسية. ولعلني أرجو أن يتمكن من يقرأ كتابي هذا من قراءة قرينه الذي يتناول السياق في العلوم الاجتماعية لما بين الكتابين من وثيق الصلة ولما بين السياقات الاجتماعية للخطاب من ناحية ودراسة المواقف والتفاعلات التواصلية في العلوم الاجتماعية من الناحية الأخرى من علائق وصلات.

و لأنّ هذا الكتاب هو أول دراسة مستقلة تجعل من مفهوم السياق شغلها الشاغل، فلا بد أن نقرأ بوصفها دراسة استكشافية. وهي دراسة نظرية تستلهم أفكارا وتطورات ذات صلة في اللغويات وعلم اللغة الاجتماعي وعلم النفس المعرفي. وتراجع عددا كبيرا من الأبحاث التطبيقية، لكنها لا تقدم جديدا فيما يتصل بدراسة السياق في بنيات الكلام والتواصل. عوضا عن ذلك، يوضح الكتاب النظرية التي يبلورها من خلال تناوله أحد أكثر الخطابات المعاصرة تأثيرا وأهمية وهو الجدل الذي دار حول العراق في مجلس العموم البريطاني. لقد تقدم توني بلير في خطابه ضمن هذا الموضوع بطلب يجيز الحرب على العراق – وهي الحرب التي علينا جميعا عواقبها الوخيمة - ودافع عن طلبه.

في خطاب بلير وفيما تلاه من كلمات ألقاها أعضاء البرلمان البريطاني أمثلة تثبت أنّ أية مقاربة تجرّد الخطاب أو الحوار من سياقاتهما تظل مقاربة قاصرة وربما ينتج عنها مجرد توصيفات سطحية شكلية، وربما ساذجة، لا تفي الخطاب أو الحوار حقهما من التحليل، ذلك لأنّ الخطاب وما أعقبه من كلمات لا يمكن اجتثاثهما من الواقع الاجتماعي والسياسي الذي أحاط بهما. ولأنّ من البديهي أنّ كل شيء يمكن أن يكون له صلة بالخطاب عموما – على الأقل تلك الموضوعات التي نتكلم عنها أو فيها وما لا حصر له من المقامات والمواقف التي نتكلم أو نكتب أو نستمع أو نقرأ فيها – فإنّ نظرية السياق يتهددها خطر جسيم هو أن تنتهي إلى نظرية بلا معالم

محددة، "نظرية عن كل شيء". لذا فمن الأهمية بمكان أن نحدد مجال النظرية وأن نفصلها عما يحيط بها من ظواهر اجتماعية. وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن خطاب توني بلير ينبغي أن يقرأ لا بوصفه مجرد خطاب رئيس وزراء يتوجه به إلى أعضاء البرلمان - وإلى الأمة البريطانية وإلى العالم - في سياق النقاشات البرلمانية التي جرت في مجلس العموم البريطاني يوم الثامن عشر من مارس، ٢٠٠٣، بل بوصفه كذلك جزءا لا يتجزأ من سياسة المملكة المتحدة الخارجية وعلاقتها بالولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي ومن موقفها من قضية الشرق الأوسط وما إلى ذلك.

إذا شئنا ألا نضيع في متاهة السياقات التي لا نهاية لها، فلا بد أن نقتنع بأن ليس كل ما نراه "خلفية" للخطاب جزءاً من سياقه بالضرورة، طالما أننا نلتزم الصرامة في تعريف مصطلح السياق على المستوى النظري. إن بلورة وتطوير نظرية عن السياق تعني أول ما تعني اختيار تلك العناصر التي يتكون منها الموقف التواصلي وتتصل اتصالا وثيقا بما يشتمل عليه من نص أو كلام. يستلزم هذا أن نتعرف بداية على مفهوم الموقف التواصلي في اللغويات وعلم اللغة الاجتماعي وعلم النفس المعرفي وكذا الاجتماعي وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا، ثم نتوصل إلى معايير تحدد ما تشتمل عليه نظرية السياق وما لا تشتمل. هذا الكتاب ليس دراسة استكشافية أولية أو مراجعة لعدد كبير من الدراسات السابقة فحسب، بل يضيف إلى ذلك طرح مقولة نظرية ربما تبدو من قبيل الكلام المعاد، على الأقل بالنسبة لعلماء النفس ولبعض علماء الاجتماع القدامى الذين اهتموا برصد الظواهر الاجتماعية المادية والسلوكيات الواعية، لكنها تبقى غير واضحة في كثير من العلوم الاجتماعية وكثير من الاتجاهات التي تهتم بالخطاب والتواصل اليوم. أما المقولة فبسيطة، لكنها بالغة الأهمية في فهم ماهية السياق وطبيعته وعلاقته بالخطاب:

"ليس ما يؤثر في الخطاب أو يتأثر به هو الموقف الاجتماعي، بل رؤية المشاركين في الخطاب هذا الموقف وإدراكهم إياه".

ليست السياقات إذن مجموعة من العلل المباشرة التي تبرز الخطاب ولا من الظروف الموضوعية المجردة، بل هي مجموعة من التصورات الذاتية الشخصية التي تتشكل وتتغير باستمرار أثناء التفاعل بين المشاركين في الخطاب بوصفهم أفرادا ينتمون إلى جماعات ومجتمعات. آية ذلك أننا إذا سلمنا بأن السياقات هي مجموعة من الظروف والقيود الاجتماعية الموضوعية المجردة، فلا بد أن نتوقع ممن يقفون الموقف الاجتماعي نفسه أن يتكلموا بنفس الطريقة والاسلوب. لذا ينبغي أن نتجاوز نظرية السياق الوضعية الاجتماعية والواقعية والحتمية في أن. فالسياقات ما هي إلا تصورات المشاركين في الخطاب. لهذا السبب أيضا تبقى الفرضية الاساسية لنظرية السياق فرضية اجتماعية معرفية ويبقى المنظور الذي يتأسس عليه هذا الكتاب منظورا اجتماعيا معرفيا في دراسة السياق في إطار مقاربة بين نوعية، عبر تخصصية شاملة.

تفسّر مقولة السياقات بوصفها تصورات ذاتية للمشاركين في الخطاب كذلك تمايز النصوص وتفردها وتمايز أجزائها مكتوبة كانت أم منطوقة. وتفسّر كذلك الأرضية المشتركة والتمثيلات الاجتماعية المتجانسة للمشاركين في الخطاب عندما يبلورون من خلالها تصورهم الموقف الاجتماعي الذي نطلق عليه السياق على سبيل الاصطلاح. وسوف نرى أنّ في علم النفس مفهوما نظريا مفيدا يضع النظرية على أساس معرفي متين، ألا وهو مفهوم النموذج الذهني. لذا سوف نستبدل بمفهوم السياقات، بوصفها تفسيرات ذاتية للمواقف التواصلية، مفهوم نماذج السياق.

أمّا ما تفعل هذه النماذج وما يجب عليها أن تفعل فبيانه فيما يلي:

§ تؤثر في إنتاج الخطاب وتلقيه من قبل المشاركين فيه.

§ تتيح للمشاركين في الخطاب تطويعه بما يناسب الموقف التواصلي ويناسب ظروفهم أثناء التفاعل أو التواصل.

§ تضع الحلقة المفقودة المهمة في النظرية المعرفية للنص، بين النماذج الذهنية للأحداث موضع الخطاب أو الإشارة وبين صورة الخطاب وطريقة صياغته في الواقع.

§ تحدد ظروف الملاءمة والمناسبة للخطاب ومن ثم تصبح أساسا للنظرية التداولية عموما.

§ تضع أساس نظرية الأسلوب والنوع الخطابي ومستوى اللغة وكل ما يقع في الخطاب من تنوع وتباين.

§ تمثل الحلقة المفقودة بين الخطاب والمجتمع، بين الشخصي والاجتماعي، بين المعنى والمبنى، وهي لذلك تتيح تناول إشكالية البنى الصغرى والبنى الكبرى بما يرأب الصدع بينهما بنفس الطريقة على الأقل فيما يتعلق باللغة والتواصل.

§ يمكن صياغتها في اللغويات التقليدية والنحو والقواعد الشكلية المجردة بما يتجاوز الابعاد الدلالية للتعابير الإشارية – وقد تبلورت هذه الصياغة لكن على استحياء.

§ تضمن استمرار البحث اللغوي الاجتماعي في تجاوزه دراسة الترابط بين الخطاب والمتغيرات الاجتماعية، وفي اهتمامه بأثر العوامل الاجتماعية على التراكيب والأنساق الخطابية.

§ تجلى بعض أفكار ومفاهيم علم الاجتماع التقليدية التي لم تفقد أهميتها ومن ذلك تعريفه الموقف، الذي يبقى صالحا للتطبيق في تحليل التفاعلات اللغوية والحوارات أو المحادثات.

§ تبين كيف يمكن للسياق أن يتحكم في أبعاد الخطاب نصا كان أم كلاما، تلك الابعاد التي تستعصى على الملاحظة لكن تبقى فاعلة مؤثرة.

§ تسهم في إعادة صياغة بعض الأطر النظرية التقليدية في الانثروبولوجيا فيما يتصل بدراسة الوقائع التواصلية.

§ كما يتضح من خلال التحليل السياقي النقدي لخطاب توني بلير وما أعقبه من مداخلات في موضوع العراق، يظل الوصف المنهجي المنضبط للسياق أساسا من الأسس التي تقوم عليها دراسات الخطاب النقدية وغيرها من الاتجاهات الاجتماعية السياسية في تحليل الخطاب.

ولأنّ النظرية ما زالت في طور التشكّل، لم تكتمل صياغتها بعد. فإنني أرجو من هذا الكتاب أن يكون دعوة إلى مزيد من الدراسات والأبحاث. فالكتاب يتناول عددا كبيرا من القضايا التي تنتظر مزيدا من البلورة النظرية والدراسات التجريبية النفسية والوصف الإثنوجرافي الذي يهتم ببينات الخطاب وكذا مزيدا من التحليل الموسّع للخطاب. إنّ تأثير السياق عادة ما يكون عميقا وغير مباشر ومعقدا ومربكا وربما يلم به التناقض، تتجاوز عواقبه الآثار التقليدية للمتغيرات الاجتماعية المستقلة.

إنّ السياق يشبه غيره من الخبرات والتجارب الإنسانية، ففي كلّ لحظة وفي كلّ موقف يحدد السياق كما تحدد تلك الخبرات والتجارب كيف نرى الموقف الراهن وكيف نتصرف إزاءه أو فيه. لذا فإنّ من أوجب واجبات العلوم الانسانية والاجتماعية عموما ودراسات الخطاب خصوصا أن تقف على تأثير السياقات المختلفة في الخطاب نصا كان أم كلاما، وكذا على تأثيره فيها.

لقد بذلتُ من الجهد المضني لسنين عدة في تأليف هذا الكتاب وكتاب (المجتمع والخطاب) أكثر مما بذلت في أي مما سبق من كتبي. ومع أنّ صياغة نظرية، وما يتصل بذلك من تحليل بعض الأمثال الطريفة، فيه ما فيه من متعة. فربما يقع من يطوّر النظرية ومن يحلل فريسة اليأس لما في القضايا والاسئلة التي تطرحها من تعقيد. ذلك لأنّ صياغة نظرية عامة عن السياق وعلاقته بالخطاب لا ينبغي أن تتوقف عند مجرد الدراسة المركزة الدقيقة للضمائر أو تبادل أطراف الحوار أو الاستعارة، على سبيل التمثيل لا الحصر، مع أنّ في كلٍّ منها ما فيه من تفريعات وتعقيدات.

إنّ صياغة نظرية سياقية تستلزم أن تؤخذ كلُّ أبعاد الموقف الاجتماعية وجوانبها وكذا كل المتغيرات البنائية في الخطاب واللغة المتداولة بعين الاعتبار. لا غرابة، إذن، في أنني قضيت سنين عدة حتى ألمَّ بالقضايا والإشكاليات الأساسية التي تشتمل عليها النظرية. ولا عجب أنّ هذه الدراسة، على ما ألزمت به نفسي فيها من حدود، قد أخذت تربو وتكبر حتى خرجت في صورتها الراهنة في كتابين منفصلين متصلين.

وما زال يراودني ذلك الشعور المؤرّق أنني، على ما كتبت وأنفقت، لم أتجاوز بعد سطح الأشياء، وهو نفس الشعور الذي خالط فهمي الخطاب وتصوري إياه عندما انتهيت من تأليف كتاب (النص والسياق) منذ ثلاثين عاما.

ولعل هذا الكتاب وقرينه الذي أشرت إليه فيما سبق، على ما فيهما من قصور وعيوب، أن يستفزا آخرين فيقبلوا التحدي ويأخذوا على عواتقهم تطوير دراسات السياق بوصفها مجالا مهما من مجالات دراسات الخطاب في كل فروع المعرفة الانسانية والاجتماعية.

يبقى أن أرحب، كما دأبت، بكل الاقتراحات والتعليقات النقدية على هذا الكتاب.

§ هوامش على مقدمة فان دايك عن السياق

(١) لكتاب Text and Context ترجمة الى العربية بعنوان (النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي)، ترجمة عبد القادر قنيني. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠.

(٢) في الأصل: "دراسات الخطاب النقدية" critical discourse studies وهو المصطلح الذي اقترحه المؤلف بديلاً أكثر شمولاً من مصطلح "التحليل النقدي للخطاب" critical discourse analysis.

(٣) التحليل النفسي للخطاب هو أحد فروع تحليل الخطاب. يركز على ما فيه من قضايا نفسية كما نجد في كتابات جوناثان بوتر (Potter, 1996a, b)

(٤) ورد فيما سبق بيان وتوضيح ما يشير إليه كل حرف من حروف كلمة SPEAKING وفق شرح دل هايمز (Hymes, 1974: 54-57).

(٥) ليس هناك ما يبرر العنت في ترجمة contextualization بحثا عن مفردة واحدة تقابل المصطلح الإنجليزي من قبيل التسييق والمسايقة وليس هناك ما يعيب ترجمة المصطلح إلى عبارة عربية، وذلك لاختلاف طبيعة العربية عن طبيعة الانجليزية. من قبيل "وضع اللغة في سياقها" أو "تحليل الخطاب في سياقه". فالمصطلح الانجليزي نفسه يشتمل على جذر واحد وسابقة وثلاث لواحق.

(٦) يعبر عن العلاقة الوثيقة بين النص والسياق اشتقاق الثاني context من الأول text في اللغة الإنجليزية بإضافة con التي تفيد المصاحبة والإحاطة. لا تبدو هذه العلاقة جلية بين المفردتين العربيتين "النص" و"السياق". لكنَ هناك ما يشير إليها في الجناس بين المصطلحين البلاغيين العربيين "المقال" و"المقام".

(٧) الملاءمة أو المناسبة هي بعض ما تشتمل عليه المقولة البلاغية العربية "لكل مقام مقال ولكل حادثة حديث" – وليس هذا "مقام" الإسهاب في موضوع المقام في البلاغة العربية. لكن ربما ترد إشارات إليه في غير موضع من التبسيط.

(٨) في الأصل agency لما ترجمتها إلى "المعنى" فلغاية جمالية بقاعية في المقام الاول، حيث تنسجم مع المبنى في عبارة المعنى والمبنى. على انَ للترجمة مبرر آخر. فالفعل والفاعلية في النحو الوظيفي هما جوهر المعنى في الجملة.

1

من ضرورات التَّلقّي

"في يوم الثلاثاء الثامن عشر من مارس عام ٢٠٠٣، ألقى رئيس الوزراء البريطاني توني بلير خطابا في مجلس العموم تقدّم فيه بطلب يجيز تدخلا عسكريا بريطانيا في العراق، "بسبب استمرارها في رفض الانصياع لقرارات مجلس الأمن". وبعد أن قرأ طلبه، استهلّ خطابه بقوله:

بلير :"في البداية أقول لقد أحسن المجلس صنعا بمناقشة هذه القضية ومن ثم إصدار قراره بشأنها. هذه هي الديموقراطية التي نستحقها والتي يجاهد غيرنا لتحقيقها دون جدوى. وأكرر أنني لا أستهين بآراء من يعارضونني. نحن إزاء اختيار صعب في واقع الأمر – خياران أحلاهما مر: أن نعلق عملياتنا العسكرية هناك ثم تعود القوات البريطانية أدراجها أو أن نثبت على موقفنا ونكمل الطريق الذي بدأناه. إنني أعتقد مخلصا أننا يجب أن نواصل مسيرتنا. إن السؤال الذي يطرحه كثيرون عادة هو: من أين تكتسب القضية كل هذه الأهمية الكبيرة – لا يسألون لماذا هي مسألة مهمة. ها نحن أولاء وها هي حكومتنا تواجه اختبارا صعبا يهدد الأغلبية فيها وينذر باستقالة مجلس الوزراء على خلفية سياسات الحكومة. وها هي الأحزاب الكبرى تنقسم وهي التي طالما اتفقت في كل الأمور"

الأعضاء :"الأحزاب الكبرى؟"

بلير :"نعم، بالطبع أعني أيضا الديمقراطيين الليبراليين الذين ظلوا على وحدتهم في انتهازهم الفرص السانحة وفي أخطائهم".

(مقاطعة)

حتى يتمكّن الحضور من أعضاء البرلمان وحتى نتمكّن - نحن القرّاء والمحللين - من فهم هذه الفقرة كما ترد في سجلات هانسارد Hansard الرسمية فلا بد بداية من الإلمام بقواعد اللغة الإنجليزية وقواعد الخطاب. في الوقت ذاته. يستلزم هذا الفهم قدرا كبيرا من المعرفة بمجريات الأمور والعالم الذي يحيط بنا - عن الديموقراطية وعن القوات البريطانية وعن العراق كما تشير هذه الفقرة ضمنيا. تأسيسا على ذلك، نستطيع أن نفهم من بين ما نفهم أن المتحدث يدفع عن إرسال قوات إلى العراق حتى تتحقق الديموقراطية هناك، حيث يفترض من بين ما يفترض أنّ العراق ليس فيها ديمقراطية، وأنّ القوات التي ستذهب إلى هناك وما تعتزمه من حرب يمكنها أن تحقق الديموقراطية.

هذا الفهم الذي يتلمّس على قواعد النحو وقواعد الخطاب والمعرفة بما يجري حولنا ما هو إلا جزء من الصورة. إنّ ما يفهم أعضاء البرلمان البريطاني يشمل إلى ما سبق أنّ مناقشة التدخل العسكري الذي يدعمه بلير تنصب المقام وهو مقام نقاش برلماني. ويفهمون كذلك مبررات طرح الموضوع للمناقشة وما يناط بالبرلمان من وظائف في هذا الصدد وما يفعل المتحدث توني بلير في هذه الأثناء بالمقارنة بما يناقشه من أمور وما يعنيه وما يشير إليه ومن ذلك أنه يشير إلى القوات البريطانية التي تنتظر قرار التدخل. على معنى أنّ أعضاء البرلمان لا يفهمون نص خطاب بلير فحسب، بل يفهمون كذلك ما يحيط به من سياق وما يرد فيه هذا الخطاب من مقام" (فان دايك van Dijk، ٢٠٠٨، ص ١).

وفق هذا السياق ومتغيراته والعناصر الفاعلة فيه. تتشكل اللغة، وعلى هذا، وعلى تأثير اللغة في السياق كذلك، يتأسس النحو الوظيفي كما طوّره هاليداي (١٩٨٥). ليس هذا تلخيصا لنظرية النحو الوظيفي عند هاليداي، وهي النظرية التي ستستند إليها اللغويات النقدية التي ترد إشارة جانبية إليها لاحقا، ولكنّه مجرد مرور كريم على نسق نري بوصفه خلفية ضرورية لتطوّر التداولية، وما تلاها، وما زامنها من مقاربات لغوية وخطابية. في هذا

عن اللغويات النقدية

اللغويات النقدية Critical Linguistics (CL) هي الامتداد الطبيعي للنحو الوظيفي. وهي في الوقت نفسه من مقدّمات التحليل النقدي للخطاب الذي ترد مناقشته لاحقا، بل ترد في غير موضع بوصفها مرافقا لهذا النوع من التحليل. تطورت اللغويات النقدية في كتابات فاولر وزملائه، ومن أكثرها تأثيرا وذيوعا كتاب اللغة والسيطرة، أو التحكم ***Language and Control*** (١٩٧٩) الذي يجمع بين روجر فاولر **Fowler** وجنثر كريس **Kress** وبوب هودج **Hodge** وتوني ترو **Trew**، وفيه تأسيس لمقولات اللغويات النقدية، وخلفيتها الفلسفية، واللغوية والاجتماعية. ومناقشة أثر جورج أورويل وغيره في تطور هذا الاتجاه النقدي اللغوي، وشرح أدواته ومنطلقاته وتطبيقات تلك الأدوات في دراسة مختلف أنواع النصوص. ومن منطلقات اللغويات النقدية التي يتناولها الكتاب أنّ البنى والتنظيمات الاجتماعية تؤثر في البنى والتراكيب والاختيارات اللغوية. وأنّ هذا التأثير ينتظم كل مستويات اللغة من أصوات، ووحدات صرفية، ونحوية، ودلالات، واختيارات أسلوبية وبلاغية، وأنّ من أكثر العوامل الاجتماعية تأثيرا فيما سبق من اختيارات توزيع السلطة والقوة بين المشاركين في الخطاب (ص ١٩٤). ما زالت اللغويات النقدية تمارس حضورها المؤثر في التحليل النقدي للخطاب، وفي تحليل الخطاب السياسي، رغم تطوّر كلّ منهما وتفرّعهما إلى اتجاهات معرفية، وأخرى اجتماعية أو تاريخية، وأخرى تركّز على الاستعارة والمجاز، أو الجنس الخطابي وأشراطه وخصائصه، وغير ذلك من اتجاهات تتناول مختلف جوانب الخطاب والعوامل التي تؤثر في إنتاجه وتلقيه، وتلتقي جميعها في التأكيد على الارتباط بين العوامل الاجتماعية والاختيارات اللغوية.

النسق. لا تقتصر اللغة على كونها ظاهرة معرفية. أو جملة من التراكيب، بل تتجاوز ذلك إلى أداء وظائف في سياقات متباينة، وتتلون بالسياق الذي تستخدمها فيه، من خلال استجابتها لتغيرات الموضوع field (في السياسة، أو الدين، أو الأحياء، أو التاريخ، إلى غير ذلك من مجالات واشتغالات) والعلاقات المتباينة بين المشاركين في الخطاب tenor (تقارب، أو تباعد، وما بينهما، وما حولهما من درجات وظلال) ووسائل الخطاب وقنواته mode (كتابة أو شفاهة، مباشرة أو عبر وسيط أو قناة، وهكذا).

تنتظم وظائف اللغة في فئات ثلاث ناقشها هاليداي ومثّلت أساس ما تلاها من مقاربات تداولية:

§ وظيفة تصورية: وهي تمثيل الواقع (التقرير، والوصف، والإخبار والإنباء) ideational (الكلام أو الكتابة عن العالم: "إنها تمطر"، "شرب الطفل اللبن/ الحليب")

§ وظيفة تفاعلية: وهي التفاعل مع الآخرين interpersonal (تأسيس علاقات مع الآخرين أو ترسيخها أو إعادة صياغتها: "يا سيدي"، "يا بنيّ")

§ وظيفة نصيّة: وهي إنتاج النصوص والخطابات، وتنظيمها، وإدارتها textual (الكلام أو الكتابة عن الكلام أو الكتابة – اللغة الشارحة، ووسائل تنظيم الخطاب: "في الفقرة السابقة")

يرتكز تمثيل الواقع في الأساس على التعدية أو التعدّي transitivity، وهي ليست مجرد خاصيّة في الفعل في تعارض مع لزومه، بل هي خاصيّة في الجملة بكاملها. وتتكوّن الجملة كذلك من المشاركين في الفعل وظروفه. في "هنأ محمد عليا بنجاحه أمس". الفعل فعل التهنئة، والمشاركان هما "محمد" و"علي". وظروف الفعل تشمل السبب والزمان. من هنا تكون البداية – من الفعل، أو ما يقع أو يحدث. تنقسم الأفعال والحالات والأحداث في نسق هاليداي (١٩٨٥) إلى:

§ أفعال كينونة وصيرورة أو تحويل (أفعال إسناد) relational مثل "يبدو"، و"أصبح"، و"ما برح"، و"ما زال"، و"ألفى"، و"وجد".

§ أفعال مادية material مثل "ضرب"، و"قتل"، و"كسر"، و"اغتال"، و"صدم".

§ لفظية/ كلامية verbal مثل "هنأ"، و"نادى"، و"حيا"، و"كتب"، و"خط".

§ ذهنية نفسية mental مثل "يحب"، و"يكره"، و"يعتقد"، و"يشعر"، و"يخشى".

§ أفعال سلوكية behavioral مثل "يضحك"، و"يبكي"، و"يبتسم"، و"يهمس".

§ أفعال وجود(ية) existential كما في "على الطاولة كوب"، "هناك قصور واضح".

لا تحظى أفعال الكينونة والوجود في اللغة العربية بنفس الحظ من التناول الذي نجده في الإنجليزية، لأنها في جملة الأحوال تقديرية، فحين نقرأ "على الطاولة كوب"، ندرك أن تقدير الكلام "يوجد كوب على الطاولة" – هذا إذا دعت الضرورة إلى التقدير. في "رأيته ما فعلت". المشاركان هما أنت وهو، ومن خير الفعل هو هو. وما كان له الأثر هو ما فعلت أنت. وفي "أعجبتني قصيدتك". المشاركان هما أنا وأنت. والفعل هو الإعجاب. ومن خبر الفعل هو أنا، وما أحدث الأثر هو قصيدتك.

المبدأ التعاوني

يُعدُّ المبدأ التعاوني Cooperative Principle في الحوار. والذي قدّمه بول جرايس Grice (١٩٧٥)، ركيزة أساسية من الركائز التي تقوم عليها التداولية. وأداة مهمة من أدواتها في آن. ينقسم هذا المبدأ إلى أربع قواعد على من يستخدم اللغة اتباعها إذا أراد أن يكون "متعاونًا". علينا أن نتذكر أنّ المبدأ التعاوني يصف ما ينبغي أن يكون، لا ما هو كائن بالفعل في مجمل الحوارات والتفاعلات الإنسانية.

أمّا قواعده الأربع فهي:

§ الكمية/ الكمّ Quantity: قدّم القدر المطلوب من المعلومات، لا أكثر ولا أقل. "خيرُ الكلام ما قلّ ودلّ". تتعلق هذه القاعدة بمقدار المعلومات أو كمّها، لا بصدقها أو ملاءمتها.

§ الصدق/ الكيف Quality: كُن صادقًا؛ لا تُقدّم معلومات خاطئة، أو معلومات لا تستطيع أن تبرهن على صحتها. "الصدق منجاة". "الأمانة أفضل الطرق". كما تقول الحكمة الإنجليزية.

§ الملاءمة Relation: لتكن معلوماتك ومساهماتك ملائمة للحوار. فلا تخرج عن الموضوع. لأنّ "لكلّ مقام مقالاً"، و"لكلّ حادثة حديث".

§ الطريقة Manner: كُن واضحا ومُنظما، وتجنب الغموض والرطانة. وخاطب الناس على قدر عقولهم وتخصصاتهم وخلفياتهم المعرفية - وليس "معرفتهم الخلفية" background knowledge، كما تذهب بعض الترجمات.

فيما يلي نماذج لتوظيف المبدأ التعاوني لتحقيق غايات تواصلية (مزيد، ٢٠٠٢). في الرائعة العربية *ألف ليلة وليلة*، (الجزء التاسع، ص ٦٣٤) تحكي شهرزاد لشهريار - بداية من الليلة الثامنة والستين بعد المائة الثالثة حتى الليلة الحادية والثمانين بعد

الحكاية الثالثة - حكاية (أنس الوجود مع محبوبته الورد في الأكمام) وفيها نجد "أنس الوجود" هائما معذبا بعد أن حيل بينه وبين محبوبته "الورد في الأكمام". "و بينما هو كذلك إذ خرج عليه سبع رقبته مختنقة بشعره، ورأسه قدر القبة، وفمه أوسع من الباب، وأنيابه مثل أنياب الفيل. فلما رآه أنس الوجود أيقن بالموت واستقبل القبلة وتشهد واستعد للموت. وكان قد قرأ في الكتب أن من خادع السبع انخدع له، لأنه ينخدع بالكلام الطيب وينتشي بالمديح، فشرع يقول له: يا أسد الغابة، يا ليث الفضاء، يا ضرغام، يا أبا الفتيان، يا سلطان الوحوش، انني عاشق مشتاق، وقد أتلفني العشق والفراق، وحين فارقت الأحباب غبت عن الصواب. فاسمع كلامي وارحم لوعتي وغرامي".

يتحتم على قارئ هذه القصة أن يتحلى بقدر كبير من التسامح المعرفي حتى يصدق وصف الأسد، وحتى يصدق ما قالته الكتب لأنس الوجود من أن "من خادع الأسد انخدع له". "لأنه ينخدع بالكلام الطيب" وحتى يتعاطف مع استعطاف أنس الوجود السبع أن يسمع كلامه ويرحم لوعته وغرامه.

من الواضح أن أنس الوجود في أزمة حقيقية: "أيقن بالموت واستقبل القبلة وتشهد واستعد للموت". إزاء هذه الأزمة الطارئة، يقرر أنس الوجود اللجوء إلى حيلة لغوية تقوم على ركنين أساسيين هما: المديح والشكوى. يبدأ أنس الوجود بإسباغ ألقاب "أسد الغابة" و"ليث الفضاء" و"ضرغام" و"أبي الفتيان" و"سلطان الوحوش" على الأسد، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الشكوى مما يجد: "إنني عاشق مشتاق، وقد أتلفني العشق والفراق، وحين فارقت الأحباب غبت عن الصواب". مستعينا بالسجع والتجانس الصوتي، ثم يأتي في النهاية الرجاء والاستعطاف. وقد قدم أنس الوجود لنفسه بأن قرن قوة الأسد وجبروته بضعفه هو ولوعته وعذابه، والحقيقة أن هذه "الخلطة السحرية" لم تحقق لأنس الوجود مجرد النجاة من الموت المحقق، بل دفعت الأسد إلى التعاطف معه ومساعدته في الوصول إلى مكان حبيبته "الورد في الأكمام": قام الأسد ومشى نحوه بلطف، وعيناه مغرورقتان بالدموع، ولما وصل إليه لحسه بلسانه،

ومشى قدامه وأشار إليه أن اتبعني، فتبعة". بالطبع لم يكن هدف "قس الوجود" الأساسي مدح الأسد، بل كان هدفه من وراء المدح أن يستدر عطف الأسد، فينجو منه؛ لم يكن يطمع في أكثر من هذا، ولكنّ الثناء مع الاستعطاف كانت لهما آثار أخرى إيجابية كما رأينا. لو صدقت شهرزاد فيما روت. فلنا أن نؤمن بأنّ حبّ الثناء ليس طبيعة الإنسان وحده بل طبيعة الحيوان كذلك. هكذا نرى أنّ في هذه القصة – وفي ما يشابهها من أمثولات – خرقٌ صريح لقاعدة الصدق في المبدأ التعاوني بغرض الإفلات من براثن الأسد.

ومن نوادر أشعب: (١)"قالت صديقة أشعب لأشعب: هب لي خاتمك أذكرك به. قال: اذكري أني منعتك إياه فهو أحب إليّ". (٢)"وجدت امرأة شعيب دينارا فأتت به. فقال: ادفعيه إليّ حتى يلد له في كل أسبوع درهمين. فلما كان الأسبوع الرابع. طلبته منه فقال لها: مات في النفاس، فقالت: ويلي عليك كيف يموت الدينار؟ فقال لها: الويل لك. على أهلك، كيف تصدقين بولادته وتنكرين موته في نفاسه؟" (عباس. ١٩٩٠، ص ص ٢٦- ٢٧).

في ظاهر الأمر، يتصادم "أشعب" مع صديقته وزوجته، لكنّ الحقيقة أنه يوقع كلا منهما في شرك لغوي معرفي للخروج من مأزقين، المأزق الأول هو تهديد ملكيته خاتمه، والثاني هو تهديد ملكيته للدينار الذي حصل عليه من زوجته بالتحايل. للخروج من المأزق الأول، يستفيد "أشعب" من تحايل صديقته عليه؛

تخلص

"وسنذكر في كتابنا هذا إن شاء الله تعالى من تخلص من أنشوطة الهلاك وتفلت من حبائل المنيّة، بحسن التّصّل. ولطيف التوصّل، ولسن الجواب، ورفق الاستعطاف، حتى عادت سيآته حسنات، وعوض بالثواب بدلا من العقاب. وحفظ هذا الباب، أوجب على الإنسان من حفظ عرضه، وألزم له من قوام بدنه" (العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الوراق، ص ١٣٠).

فهي تزعم أنّ هدفها من الحصول على خاتمه هو أن تتذكرهُ به. حينئذ يختار لها "أشعب" طريقة أخرى تذكره بها، المهمّ أنّ رغبتها في أن تتذكره سوف تتحقق. هي

تريد أن تذكره بالمنح، وهي يفضّل أن تذكره بالمنع. أمّا زوجة "أشعب" فقد صدقت أن الدينار يمكن أن يلد كلّ أسبوع درهمين عندما كانت لها مصلحة في ذلك. وعندما قلقت من الكذبة، بدأت تطلب الدينار. ولكن أشعب ساعتها يسألها سؤالاً لا تملك إزاءه إلا السكوت والندم على الدخول في الكذبة من البداية. لعلّ الزوجة فهمت في بداية الأمر أنّ زوجها سوف يستثمر الدينار فيربح كل أسبوع درهمين. ولكن "أشعب" في مواجهة الأزمة يتمسك بالمعنى الحرفي البيولوجي للفعل "يلدُ" - وطالما أن الدينار يمكن أن يلد، فيمكن أن يموت في النفاس - ولسان حاله يقول لها: "صدقت عليك الأولى. فلماذا لا تصدقينني في الثانية؟ كذبٌ بكذب. لا يبرز "أشعب" ولا يفسّر. ولكن ينكر على زوجته ازدواجيتها وكيلها بمكيالين. ويتحقق له هدفه الأساسي. وهو الهروب من مطالبة الزوجة بالدينار الذي "مات".

ومن نوادر جحا: "كان جحا ماشياً في الصحراء. فرأى ثلاثة فرسان من قطاع الطريق على بعد. فخاف وخلع ثيابه وأدخلها أحد القبور الخالية. لمّا وصلوا رأوه عرياناً. فقالوا له: من أنت؟ فقال: أنا ميت من جملة الأموات في هذه القبور. وقد خرجت الآن للنزهة وشمّ الهواء. فضحكوا منه وتركوه". (ابن الجوزي، ص ص ٦٢-٦٣).
تنقسم هذه النادرة إلى أربعة أجزاء هي: موقف الأزمة. والتخطيط للتحايل. والمواجهة. والنتيجة. أمّا الأزمة فهي التهديد الواضح لحياة وممتلكات جحا. ويبدو أنه كان مخرجا مُحنكا، حيث بدأ فورا تجهيز الديكور والمناظر حتى وصل قطاع الطريق إليه. فوجدوه عريانا. وقالوا له من أنت؟ يبدو أنّ جحا كان يعتقد - أو كان يريد للصوص أن يعتقدوا - أنّ التجرّد من الملابس والتواجد في دائرة المقابر كافيان لإثبات الموت. على هذا الاعتقاد أسّس جحا لحيلته في التخلص من قطاع الطريق. تتلخص هذه الحيلة في محاولة تحقيق أثرين أحدهما قريب، والثاني بعيد. أمّا الهدف القريب، فهو أن يصدّق قطاع الطريق أنه "ميت من جملة الأموات". والهدف البعيد هو ببساطة أن يتركه اللصوص.

هذا ما تقرره كورين دينويل Denoyelle في تحليلها التحايل في حكايات الشطار، حيث ترى أن خطاب التحايل يسعى إلى تحقيق أثر معرفي تنقاد فيه الضحية إلى التصديق faire croire، وهدف وقعي عملي تنقاد فيه الضحية إلى الفعل والتصرف faire faire (دينويل، ١٩٩٨). لم يصدق قطاع الطريق - بطبيعة الحال - أن جحا "ميت من جملة الأموات". كيف يصدقون هذا وهو يكلمهم؟ وكيف

العلم والأدب

يبقى المبدأ التعاوني صالحا للتطبيق المباشر على خطاب العلوم والرياضيات، وما شابههما، وذلك لاهتمامه بالبرهان، والكمّ، والملاءمة، والوضوح، والترتيب. أمّا فيما يتصل بخطاب الأدب، وما يحفل به من استعارات، وكنايات، ومبالغات مقصودة، وغموض وظيفي، ورطانة معبّرة (تتناولها فيما تتناول التداولية الأدبية أو الأسلوبية - literary pragmatics أو pragma-stylistics) وخطاب السياسة، وما يحفل به من تحسين، وتجميل، وتشويه، وكياسة، وتضليل، وتضمين، وافتراض، وكذلك الدعاية والإعلان، فتكمن أهمية المبدأ التعاوني في أنه آلية مهمّة من آليات التحليل، لأنّ انتهاكاته تشي، وتوحي، وتعبّر، وتنقل تضمينات، وتعكس ظروفا وسياقات. كما نجد هنا من مناقشات. بعبارة أخرى، وعلى سبيل التبسيط تتحقق للغة العلم نجاعتها من خلال التزامها قواعد المبدأ التعاوني، أمّا لغة الأدب وما يشابهها، فبوسعها أن تحقق قدرا كبيرا من تأثيرها من خلال انتهاك هذا المبدأ. وليس من الممكن تصوّر حياتنا اليومية وما فيها من حوارات – وكم سنخسر من الأصدقاء والزملاء – ونحن نطبّق المبدأ التعاوني تطبيقا "رياضيا" مجرّدا دون مراعاة أو تجمّل (فنجيب عن سؤال "كم الساعة؟" بكلمة واحدة مثل "العاشرة"، وعن سؤال "كيف حالك؟" بعبارة واحدة من قبيل "بخير"، ونسمّي القبيح قبيحا دون مواراة أو تلطف، ونتجنّب الاستطراد، دون أن نكترث لاتهام الناس إيانا بالفتور أو الغرور، ولا نقول إلا الصدق، حتى ونحن نصلح بين متخاصمين.

لعلّ هذا التباين بين المبدأ التعاوني بوصفه مجموعة من القواعد المثالية المجرّدة، وبين مبرّرات ودوافع انتهاك تلك القواعد في الواقع هو بعض ما يؤخذ على هذا المبدأ، وهو كذلك ما استوجب تطوير نظرية تفسّر التباين وتشرح المبررات والدوافع هي نظرية الكياسة. كما يرد لاحقا في هذا التبسيط. كيف نقف على ما وقع من انتهاك وكيف نتوصّل إلى تفسيره وتبريره؟.

يصدقون أنّ الموتى يخرجون للنزهة وشمّ الهواء؟ لكن يبدو أنهم تعاطفوا مع خوفه وضحكوا من سذاجة حيلته - سذاجتها الظاهرية على الأقل، وإن لم يتعاطفوا. فما الذي كان يمكن أن يأخذوه من رجل "عريان" يسكن القبور؟ لكنّ هذه السذاجة، ولكل هذا المكر، نحبُّ جحا ونتتبع أخباره.

ومن أمثلة الحيلة وحسن التصرُّف كذلك:

(١) "بلغنا أنّ رجلين سعيا بمؤمن إلى فرعون ليقتله، فأحضرهم فرعون فقال للساعين: من ربكما؟ قالا: أنت. فقال للمؤمن: من ربك؟ فقال: ربي ربهما. فقال لهما فرعون: سعيتما برجل على ديني لأقتله: فقتلهما".

(٢) "امتحن ابن أبي داود الحارث بن مسكين أيام المحنة فقال له: اشهد أنّ القرآن مخلوق، فقال الحارث: أشهد أنّ هذه الأربعة مخلوقة، وبسط أصابعه الأربعة وقال: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فتخلص".

ما زال عنصر "الأزمة" حاضرا في هذين الموقفين. في القصة الأولى يشي رجلان من أتباع فرعون برجل مؤمن، وعندما يكون الثلاثة بين يدي فرعون، يكون السؤال المنطقي: من ربكم؟ يتحايل الرجل المؤمن للخروج من هذه الأزمة العقائدية بالتقية، فإجابته "ربي ربهما" صحيحة وصادقة على مستويين: على المستوى الأول، سوف يربط فرعون بين إجابة الرجلين "أنت" - فرعون - وإجابة الرجل المؤمن: "ربِّي ربُّهما". وقد قالا إنّ ربّهما أنت، إذن ربّي أنت. لا شك إذن في إيمان الرجل بفرعون - كما فهم فرعون. على المستوى الثاني، يقرّر الرجل المؤمن أنّ ربّه ربُّ الرجلين، وهو صادق في هذا في نظر نفسه.

وقد كانت نتيجة التقية باهرة، فقد نجا الرجل المؤمن، وقُتل المتآمران. أما الحيلة اللغوية في القصة الثانية، فتكمن في الازدواجية الدلالية لاسم الإشارة "هذه"، حيث تعني في وقت واحد: "هذه الأصابع الأربعة"، وكذلك "هذه الكتب الأربعة" - التوراة والإنجيل والزبور والفرقان". ما يحدث هنا، وفي حالات كثيرة مشابهة، هو غموض مقصود وإبهام موظّف وانتهاك قاعدة "الطريقة"، حيث تفتقد كلمة "هذه"، ومن قبلها

"ربهما". الدقة والتحديد. ويبدو هذا الانتهاك ضروريا في ظل رغبة الرجل المؤمن في القصة الأولى والحارث بن ممكين في الثانية في تحقيق غايتين متعارضتين وهما: تجنّب الكذب وتجنّب الصدام المباشر مع فرعون في القصة الأولى، ومع ابن أبي داود في الثانية.

ومن أمثلة توظيف قواعد المبدأ التعاوني كذلك ما لا حصر له من تورية، وفكاهة، واستعارة، وغموض، وكذب مقصود، وتحسين قبيح، أو تقبيح حسن، ومداراة، ومواربة، وتغطية، وتعمية، ورطانة، ومبالغة، واستطرادات، وخروج عن النص. يبدو أنّ قيمة المبدأ التعاوني لا تكمن في محاولة اتباعه أو التقيُّد به، بل فيما يشي به انتهاكه وتجاوزه، عن قصد أو غير قصد، من غايات بلاغية أو شعرية، أو سياسية، أو ترويجية – مع ملاحظة أنّ"أو" لا تفصل بالضرورة بين متعارضين أو متناقضين. ولهذا يبقى المبدأ التعاوني أداة ملائمة ومهمّة في تحليل الخطاب ولغويات النص وتحليل الخطاب النقدي وتحليل الخطاب السياسي. ومما يُحسب للمبدأ التعاوني كذلك أن تأسست عليه نظريات التأدب والكياسة، التي ترد مناقشتها لاحقا، على سبيل توضيح ما غمض من جوانبه أو استكمال ما نقص منها.

التضمين

لعلنا لاحظنا في الأمثلة السابقة أن خرق قواعد المبدأ التعاوني يحقق غايات تواصلية بلاغية. بل يحدث تأثيرات مادية في الواقع. كلما انتهك الكاتب أو المتكلم قاعدة من قواعد هذا المبدأ، دل ذلك على شيء ضمني لا يراد التصريح به. لعذر أو قهر أو غاية، أكثر أهمية من مجرد التصريح. من هنا نصل إلى التضمين أو الإضمار Implicature الذي يقارب ما وصف الجاحظ في البيان والتبيين بالكناية. لكنه لا يشبه في شيء تعلق آخر البيت من الشعر بأول البيت الذي يليه، ولا اقتباس جزء من نص في نص غيره.

حتى يستطيع السامع أو القارئ أن يتوصل إلى المعنى الضمني، لا بدّ أن يأخذ في الحسبان ما يقال بالفعل، وما يحيط به من سياق، وقواعد المبدأ التعاوني التي يفترض أن يراعيها الطرفان. على سبيل المثال، حين تسأل عن إحداهن هذا السؤال "كم تبلغ من العمر؟" فيجيب أحدهم عن السؤال "إنها متزوجة ولديها طفلان". ربما دلّ ذلك على عدم معرفته عمرها. هنا يلجأ السائل إلى السياق الاجتماعي الذي يشتمل على معلومات عن السن الطبيعي للزواج والإنجاب في مجتمع معين. وربما دلّ تجاهل أو خرق قاعدة من قواعد المبدأ التعاوني على رغبة المتكلم في حفظ ماء وجهه أو وجه غيره. فيصبح التجاهل أو الخرق نوعا من التأدب واللياقة. وعلى هذا تأسست أطروحات جيفري ليتش Leech (١٩٨٣) التي ترد مناقشتها لاحقا.

في نفس هذه الفئة من المسكوت عنه أو التضمين ينتمي الافتراض المسبق Presupposition والمعلوم من اللفظ أو العبارة بالضرورة Entailment. من أمثلة الافتراض المسبق:

§ "ذهب الولد إلى المدرسة": تفترض مسبقا أن هناك ولدا وهناك مدرسة؛ "الحرب على الإرهاب": هناك "حرب" وهناك "إرهاب". هنا، وفيما يلي من افتراضات مسبقة، يبقى الافتراض حتى إذا تحولت الجملة من الإثبات إلى النفي –"لم يذهب الولد إلى المدرسة".

§ "لماذا يكرهوننا؟" (من خطاب بوش عقب ٩/١١): تفترض مسبقًا أن المسلمين يكرهون الولايات المتحدة.

§ "التطرف الإسلامي خطر يهدد الغرب": تفترض مسبقًا أن هناك تطرفًا إسلاميا؛ "هزيمة الجيش ... الباسل": هناك جيش ... وهو "باسل".

§ "أعلم أنه مخاطرة كبيرة" (من خطاب الرئيس المصري الراحل أنور السادات أمام الكنيست الإسرائيلي): تفترض مسبقًا أن السفر إلى إسرائيل مخاطرة كبيرة.

§ "عملية السلام في الشرق الأوسط تحتاج دفعة قوية": تفترض مسبقًا أن هناك شرقًا أوسط وهناك عملية سلام.

§ "لا بدّ أن تتوقف عن الإساءة إلى جيرانك" - تفترض مسبقًا أنّ المخاطب يسيء إلى جيرانه.

§ "أحمل إليكم رسالة شعب مصر الذي لا يعرف التعصّب" (من خطاب الرئيس المصري الراحل أنور السادات أمام الكنيست الإسرائيلي) - تفترض مسبقًا أنّ شعب مصر لا يعرف التعصُّب.

§ "عاد المستشرق إلى الجزيرة العربية": تفترض مسبقًا أنّ المستشرق كان في الجزيرة العربية، أو زارها من قبل؛ "عادت الفتنة تطل بوجهها البغيض": تفترض مسبقًا أنّ هناك "فتنة"، وأنّ لها وجها بغيضا، ولو على سبيل الاستعارة، وأنها أطلت من قبل.

§ "الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها" تفترض مسبقًا أنّ هناك "فتنة" "نائمة" وأنّ أحدا قد يوقظها أو ربما يوقظها.

§ "أغلق الباب" – تفترض مسبقًا أنّ المتكلم لديه صلاحية إصدار الأمر. ولعل العلاقة بين المتكلم والسامع تمنح الأول هذه الصلاحية دون هيمنة أو قهر.

§ "لم أشعر بأي قدر من الإشفاق على الرئيس الأمريكي جورج بوش عندما عرفت أنه سوف تحاوره مذيعة مصرية تتفوق عليه في مستوى الذكاء بفارق شاسع" (نصار عبد الله: "منى وبوش". المصريون، ٢١ مايو ٢٠٠٨): تفترض مسبقًا أنّ للإشفاق

درجات. وإنّ بوش موجود وهو "الرئيس الأمريكـي" - هكـذا كـان - وإنّ "مذيعـة مصرية" سوف تحاوره، وأنها "تتفوّق عليه في مستوى الذكاء بفارق شاسع".
يشير الافتراض المسبق، إذن، إلى التسليم بصحّة مقولة أو فكرة. ودعوة السـامع أو القارئ إلى التسليم بها، بينما ينشغل بتلقي خبر أو إسناد آخر. في "عملية السلام في الشرق الأوسط تحتاج دفعة قوية"، الخبر هو جملة "تحتاج دفعة قوية". بينمـا نتلقـى هذا الخبر، ونتساءل: هل هي حقا تحتاج دفعة قوية. لا نتساءل: هل هناك حقا عملية سلام في الشرق الأوسط؟ وهنا يكمن الخطر الجسيم، إذ يستخدم الساسة والمروجون والدعائيون ما لا حصر له من الافتراضات المسـبقة لتمريـر مقـولات أيديولوجيـة ملتبسة. وكأنّ علينا حين نطالع جملة من قبيل "التطرف الإسلامي خطر يهدد الغـرب" أن نسلّم بوجود "تطرف إسلامي" بينما ننشغل بتلقي خبر تهديده الغرب.
أمّا المعلوم من مكتوب أو ملفوظ بالضرورة فهو أشد التصاقا بالمكتوب أو الملفوظ. وربّما لهذا السبب لا نجد له نفس التأثيرات البلاغية التي للتضمين. ولا نفس الأهمية في دراسات تحليل الخطاب. إذا قلنا إنّ عليا لديه ثلاثة أولاد. فمن المعلوم بالضرورة أنّ له ولد وولدين، ومن المعلوم بالضرورة أنه تزوّج مرة واحدة على الأقل. على أنّنا لا ينبغي أنّ نغفل السياق، لأنّ ما هو معلوم بالضرورة في ثقافة ما، ليس معلوما بالضرورة في غيرها دائما، فليست كل الثقافات تضع الزواج شرطا للانجاب.

ماذا نفعل بالكلمات؟

لم يكن جـون أوسـتن، أو جـون سيرل من قبله، أول من تناول اللغة بوصفها فعلاً له تـأثيره وشـروط نجاحه. لكنّ نظرية أفعـال الكـلام (والكتابـة Speech Acts كـذلك)، التـي أسّـس لهـا الأول وطوّرها الثاني، هي التـي ألقـت الضوء على هذا الجانب من اللغـة ووضعته في بؤرة اهتمام الباحثين، وجعلته ضرورة لازمة في دراسـة اللغة، وكرّست فرعـا مهمـا مـن فروع علم اللغة هو فلسفة اللغـة. وما زال لهذه النظرية أثرها الفاعل في كل ما تلاها من مقاربات لغوية. وهي فصل مهمّ في تحليل الخطاب، وتحليل النص، وتحليـل الحـوار، وتحليـل الخطـاب السياسـي Political Discourse Analysis، وتحليـل الخطـاب النقـدي (الراديكـالي) Critical Discourse Analysis، والأسلوبية Stylistics.

إنّ لصاحب الحقّ مقالاً

"حدثنا مسدّد، حدثنا يحيى، عن شعبة، عـن سلمة، عن أبي سلمة، عن أبـي هريـرة ــ رضي الله عنه ــ أتى النبيّ صلى الله عليـه وسلم رجلٌ يتقاضاه فـأغلظ لـه فهـمّ بـه أصحابُه، فقال دعوه فـإنّ لصـاحب الحـقّ مقالاً". وقال عمرُ إنّ مقاطع الحقـوق عنـد الشروط، ولك ما شـرطت. وقـال المسـورُ سمعتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم ذكر صهرًا له فأثنى عليه في مصاهرته فأحسـن قـال حدثني وصدقني ووعدني فوفى لي" (صحيح البخاري).

دعائم الكلام أربع

"وقال أبرويز لكاتبه: اعلم أنّ دعائم المقالات أربع، إن التمس لها خامسة لم توجـد، وإن نقصت منها واحدة لم تتمّ. وهـي: سـؤالك الشيء، وسـؤالك عـن الشـيء، وأمـرك بالشيء، وإخبارك عن الشيء. فـإذا طلبـت فأسجح، وإذا سـألت فأوضـح، وإذا أمـرت فأحكم، وإذا أخبرت فحقق. واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول" (العقد الفريد لابـن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الوراق، ص ١٧٥).

تشمل المقولات والأطروحات المؤسِّسة لهذه النظرية تمييز أوستن (١٩٦٢) بين نوعين من الجمل، أو الملفوظات، يقتصر الأول على الوصف أو التقرير constatives (مثل:"تناولتُ طعام الإفطار"). بينما يتجاوز الثاني ذلك إلى الأداء والإنجاز أو الفعل performatives (من قبيل:"أعتذر"."افتح الباب من فضلك"). بل يرى بعض شُرّاح النظرية أنّ كلّ التلفظات والجمل هي في نهاية الأمر أفعال. حتى التقرير والوصف والإخبار أفعال، مثلها في ذلك كمثل الأمر. والاعتذار. والتسمية. والمنح. والمنع. وما إلى ذلك. ومن المقولات المؤسِّسة للنظرية كذلك تصنيف أوستن جوانب التلفظ أو الجملة إلى ثلاثة هي:

١. الصيغة locution – ظاهر التلفظ أو الجملة، أي نطقها أو كتابتها.

٢. المعنى المقصود illocution – ما يريد المتكلم أو الكاتب أن ينقل إلى المتلقي.

٣. التأثير perlocution – ردُّ فعل المتلقي. وصول الرسالة من عدمه.

هنا ينبغي أن نلاحظ أن العلاقة بين الصيغة والمعنى المقصود ليست مباشرة أو شفافة في كلّ حال. لنأخذ مثلا سؤالك ابن أحد أصدقائك على الهاتف "هل والدك موجود؟". من الواضح أنك لا تنتظر مجرد إجابة بنعم أو بلا، بل تريد أن يفهم الابن أنك تريد أن تتحدث إلى والده. إذا أجابك الابن بنعم ولم يعقب، فقد توقف عند

اللغة والبيسبول

"أية نظرية في اللغة لا بُدّ أن تكون جزءا من نظرية في الفعل؛ لسبب بسيط ألا وهو أنّ الكلام نوع من السلوك الذي تحكمه قواعد وقوانين. ولأنه سلوك تحكمه قواعد وقوانين، فإنّ له سمات شكلية يمكن دراستها في صورة مستقلة. غير أنّ دراسة تلك السمات دون دراسة دورها في إنجاز وأداء أفعال اللغة يشبه دراسة العملات وأنظمة الائتمان في الاقتصاد دون دراسة دور تلك العملات والأنظمة في المعاملات الاقتصادية. إنّ هناك الكثير مما يمكن أن يقال عن اللغة دون التعرّض لما تنجز من أفعال. غير أنّ مقاربة شكلية مجرّدة كهذه تبقى حتما منقوصة، وكأننا ندرس البيسبول كمجموعة من القواعد والقوانين المجرّدة، لا بوصفها لعبة من الألعاب (سيرل Searle، ١٩٦٩، ص ١٧).

المعنى الظاهر المباشر لما قلت، وإذا فهم أنك تريد أن تتحدث إلى والده، فقد حققت ما كنت تبتغي من وراء سؤالك.

من هذه المنطلقات ننتقل إلى تصنيف الأفعال التي تؤديها اللغة، أو التي نؤديها نحن باللغة، وفيما يلي تصنيف سيرل (١٩٦٩)، الذي يتأسس على تصنيف أوستن (١٩٦٢)، هذه الأفعال، حيث نستطيع باللغة أن:

§ "تقرر"، و"تعتقد"، و"تجزم"، و"تخبر"، و"تختتم"، و"تقر"، و"تنكر" - وكلها تنتمي إلى فئة الإخبار أو التقرير أو تمثيل الواقع Representatives. والمصطلح الانجليزي أصله الفعل represent ويعني "يمثل"، أو "يعرض".

§ "تأمر"، و"تنهى"، و"تطلب"، و"ترجو"، و"تسأل"، و"تتوسل"، و"تتضرع"، و"تدعو"، و"تصر"، و"تلح" - وكلها تنتمي إلى فئة الأمر والنهي Directives. والمصطلح الانجليزي أصله الفعل direct ويعني "يوجه"، أو "يأمر".

§ "تعد"، و"تتعهد"، و"تقسم"، و"تحلف"، و"تلتزم"، و"تتحمل"، و"تحمل" وزرا أو مسؤولية، أو "تأخذ على عاتقنا" - وكلها تنتمي إلى فئة التعهد أو الالتزام Commissives. والمصطلح الإنجليزي أصله الفعل commit ويعني "يلزم"، أو "يلتزم".

§ "تعتذر"، و"تأسف"، و"تهنئ"، و"تعزي"، و"تشكر"، و"ترحب"، و"تشكو"، و"تمدح"، و"تذم"، و"تجامل"، و"تتلطف"، و"تندم"، و"تمتن" - وكلها تنتمي إلى فئة التعبير، أو البوح Expressives. والمصطلح الانجليزي أصله الفعل express ويعني "يعبر".

§ "تعلن" (حربا مثلا)، و"تزوج"، و"تطلق"، و"تسمي"، و"تحكم"، (بغرامة مثلا)، و"تشهد"، و"توقع (عقدا)"، و"تعين"، أو "تفصل" من العمل، و"تمنح لقبا، أو درجة، و"تبيع"، و"ترهن"، و"تقرض" - وكلها تنتمي إلى فئة الإعلان، أو المنح والمنع Declarations. والمصطلح الإنجليزي أصله الفعل declare ويعني "يعلن"، أو "يصدر".

حتى تتحقق لهذه الأفعال نجاعتها وصلاحيتها felicity، لا بدّ أن تتوفر بعض الشروط والمقدمات التي يصنفها سيرل (١٩٦٩) إلى: شروط تمهيدية preparatory (كأن يكون لمن يؤدي الفعل صلاحية ذلك أو سلطته. فللعالم أن يفتي. وللقاضي أن يحكم. ولصاحب الحق أن يتكلم. على الأقل في عهد كعهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وللمأذون أن يزوّج، وللوالدين أن يسمّيا، وليس للمجنون أن يشهد. وللقائد أو الحاكم أن يعلن الحرب – طالما كان دستوره يخوله هذا الحق)،

الإنشاء:

بذور نظرية أفعال اللغة في البلاغة العربية (١)

الإنشاء هو ما لا يحتمل صدقاً ولا كذباً. كالأمر والنهي والاستفهام والتمني والنداء وغيرها. وينقسم إلى طلبي وغير طلبي. الإنشاء غير الطلبي هو ما لا يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب. وهو على قسم: المدح والذم والعقود، نحو "بعت" و"وهبت" "امرأتي طالق" و"عبدي حر" أو "أنت مفصول". القسم نحو: "والله"، والتعجب، نحو "كيف قبلت هذا العرض؟ والرجاء. أما الإنشاء الطلبي فهو الذي يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب — حسب اعتقاد المتكلم — وهو مجال علم المعاني، وأنواعه خمسة: الأول: الامر. وهو طلب حصول الفعل من المخاطب على سبيل الاستعلاء. ومن ذلك الدعاء، والالتماس، والإرشاد، والتهديد، والتعجيز، والإباحة، والتسوية، والتكريم، والامتنان، والإهانة والدوام والتمني، والاعتبار والإذن، والتخيير، والتأديب، والتعجب. الثاني: النهي. وهو طلب المتكلم من المخاطب الكف عن الفعل، على سبيل الاستعلاء. ومن ذلك الدعاء والالتماس، والإرشاد والدوام، وبيان العاقبة، والتيئيس، والتمني، والتهديد، والكراهة، والتوبيخ، والتحقير. الثالث: الاستفهام، وهو طلب الفهم. فيما يكون المستفهم عنه مجهولاً لدى المتكلم، وقد يكون لغير ذلك كالأمر، والنهي، والتسوية، والنفي، والإنكار، التشويق، والاستئناس، والتقرير، والتهويل، والاستبعاد، والتعظيم، والتحقير، والتعجب، والتهكم، والوعيد، والاستبطاء، والتنبيه على الخطأ، والتنبيه على ضلال الطريق، والتحسّر والتكثير. الرابع: التمني، وهو طلب المحبوب الذي لا يرجى حصوله، لاستحالته عقلاً أو شرعاً أو عادةً، والفرق بين التمني والترجي أن التمني يأتي فيما لا يرجى حصوله، ممكناً كان أم ممتنعاً، والترجي فيما يرجى حصوله. الخامس: النداء، وهو طلب توجه المخاطب إلى المتكلم. وربما يسعى النداء إلى تحقيق غايات أخرى كالاستغاثة، والإغراء، والزجر، والتعجب، والتضجر، والتذكر (الشيرازي، ١٩٩٧).

وشروط مصدقية أو إخلاص sincerity (أن يتحرّى من يؤدي الفعل الصدق ويتجنب الكذب ما استطاع)، وشروط جوهرية essential (تتصل بملاءمة الفعل للسياق والموقف الذي يحيط به، فنحن لا نشكر الناس إذا سبّونا أو أهانونا – إلا إذا رأينا في ذلك ما يستحق الشكر، ولا نهنئ إلا بحادث سعيد، ولا نعدُ إلا بما يفيد).

ولعل مما يقضُّ مضاجع كثيرين اليوم أنّ كلّ هذه الشروط والمقدمات تُنتهكُ دون مداراة أو خجل، في الإعلانات التجارية التي تزكم الأنوف، وفي فتاوى من لا يعلمون، وإمامة من لا يصلحون، وفي ادّعاء المدّعين، وتشدّق المتشدقين، وتهافت المتهافتين، وفي تحليلات أشباه المحللين، وفي الترويج لما يضرّ، وحجب ما ينفع، ربّما لأنّ بعض البشر يجهلون ما تفعل اللغة في حياتهم وحياة غيرهم، وربّما لأنهم يعلمون.

اللغة إذن تفعل، ويُفعل بها ومن خلالها، وفيها، تتكلمنا (على معنى أنها تعبّر عنّا، فالمرء، بعبارة الإمام علي كرّم الله وجهه، "مخبوء تحت لسانه فإذا تكلم ظهر") كما نتكلمها، وتشكّلنا (على معنى أنّها تشكّل وعينا بالعالم، وبأنفسنا، وبالآخرين) كما نشكّلها، وتؤثر فينا كما نؤثر فيها وبها ومن خلالها. ولهذا تظلّ نظرية أفعال الكلام أو اللغة عند أوستن وسيرل فصلا مهما من فصول التداولية، بل من فصول تحليل الخطاب، والتحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي، وكذلك الأسلوبية – تحليل لغة الأدب أو التحليل اللغوي للأدب. وهو فصل لا غنى عنه لكلّ من ينشغل بالتداولية أو تحليل الخطاب – وجاراتهما ومثيلاتهما وأخواتهما من الاتجاهات الوظيفية – ويسعى إلى فهم أو تحليل الخطاب في سياقاته وأنواعه المختلفة. غير أنّ أفعال اللغة تكتسب أهمية خاصة عند تحليل النصوص الحوارية، من محادثات، ومسرحيات، وحوارات في الرواية أو القصة، وما إلى ذلك، لأنّ المواجهة مباشرة، وفي المواجهة تلعب اللغة أدوارها المؤثرة في حسم صراعات الأفكار والمصالح والهويّات والأهواء والانتماءات والولاءات – وربما في تأجيل هذه الصراعات أو تعليقها أو تفاديها.

الإنشاء (٢)

هذا مجرد تلخيص لا يسعى إلى شرح الخبر والإنشاء في البلاغة العربيــة، بل يريد أن يلفت النظر إلى أنّ بذور التداولية، بل ثمارها، كانت حاضرة في تلك البلاغة كما ذهب إلى ذلك كثيرون ومنهم مسعود صــحراوي (٢٠٠٥) الذي يشير إلى أنّ أفعال الكلام قد جرى بحثها في تراثنــا اللغــوي ضــمن "نظرية الخبر والإنشاء"، في مؤلفات عدد من البلاغيين العرب الذين أسسوا لهذه النظرية من أمثال: عبد القاهر الجرجاني، وأبي نصر الفارابي، وأبــي علي ابن سينا، والقاضي عبد الجبــار المعتزلــي، ونجــم الــدين الكــاتبي القزويني، وأبي يعقوب السكاكي، وسيف الدين الآمــدي، وشــهاب الــدين القرافي، وفخر الدين الرازي، وأبي إسحاق الشاطبي، والاسترابادي، وابــن الحاجب، وابن يعقوب المغربي، وسعد الدين التفتــازاني، وغيــرهم ممــن استعملوا أدوات التحليل المنطقية والتداولية في تحليل الظواهر الأســلوبية وتطبيقها على أصناف من الخطاب العربي في الطبقات المقامية المتباينة.

يشير صحراوي كذلك إلى أنّ ظاهرة الأفعال الكلامية عند الأصــوليين، قــد انقسمت إلى نوعين أساسيين: أفعال كلامية منبثقة عــن الخبــر، وأفعــال كلامية منبثقة عن الإنشاء، مع إلماحه على تداولية ظواهر أسلوبية كثيــرة بحثها الأصوليون والفقهاء مثل ألفاظ العقود والمعاهدات باعتبارها "أفعــالا كلامية" تتحقق فيها "الحمولة الإنجازية".

يلفتنا التعبير الأخير في الفقرة السابقة إلى مشكلة حقيقة تكتنف تناولنــا - نحن العرب - منجزات الغرب في مجال علم اللغة وغيره، ألا وهي مشــكلة الترجمة، وإلى ذلك ترد إشارات أخرى في غير موضع من هذا التبسيط. ما الذي تعنيه عبارة "الحمولة الإنجازية" لمن لم يطالع أصلها الغربي؟ تتعلــق المشكلة الثانية بتهافت مقولات السبق المعرفي التي لم يعد لها محــل مــن الإعراب إذا جاز التعبير.

لا ينبغي أن تكون الغاية هي إثبات سبق البلاغيين العرب في هذا الصدد أو غيره، بل ينبغي أن تكون الغاية مراجعة التراث البلاغي العربي، والإفــادة من منجزات اللغويات الغربية الحديثة في سبيل بلاغة عربية جديدة. ربمــا يبدو هذا قولاً مكروراً، لكنّ التكرار في هذا المقام واجب.

"وعليه. فتعريف البلاغيين الخبر في الدرس البلاغي بأنه ما احتمل الصدق والكذب - بزعمهم - تعريف غير مانع أبدا... أرأيت لو أن شخصا نادى غيره. أو أمره. أو نهاه. وهو لا يقصد ذلك ألا يكون كاذبا؟ بلى والله! فإنما الكذب مخالفة العبارة لمقتضى الواقع. وهذا منه: لأن المنادي. أو الداعي. أو النادب. أو المستغيث. أو الآمر. أو الناهي ... إلى آخر ما صنفوه في معنى الإنشاء. كلُّ ذلك إذا لم يصادف إرادة في نفس المتكلم وقصدا فهو كذبٌ محض. فالإنشاء إذن - بهذا المعنى الوجودي - يحتمل الصدق والكذب أيضا. وهل يتوجع المتوجِّع لغير وجع؟ وهل يستغيث المستغيث لغير فزع؟" (فريد الأنصاري: "كلمات الله في معركة السلام". مجلة حراء. ع ١٦، ٢٠٠٩. ص ص ٣١-٣٤).

أفعال لغوية سياسية - أمثلة مترجمة من دراسة عطاونه Atawneh (٢٠٠٨)

(١)"عرفات يطالب العرب بسرعة التحرك لمساعدته في الخروج من مأزقه" (Al-Quds Daily. ١٨ ابريل ٢٠٠٢). (٢)"ملك المغرب يدين السياسات الاسرائيلية أمام الاتحاد البرلماني" (Al-Quds Daily. ١٨ مارس ٢٠٠٢). (٣)"إذا لم تنسحب من الكويت انسحابا كاملا غير مشروط. فسوف تخسر الكويت وأكثر" (من خطاب بوش الأب إلى صدام حسين. ٩ يناير ١٩٩٠). (٤)"وزير الأمن الإسرائيلي يقول: سوف نقتحم مناطقهم. ونحطم جهاز الأمن الفلسطيني. حتى ننتهي إلى تدمير السلطة الفلسطينية" (New York Times. ١٨ يوليو ٢٠٠٢). (٥)"شارون يقول: إسرائيل تريد أن تمحو حماس كقوة عسكرية سياسية قبل أن يحدث أي انسحاب" (Al-Ahram Weekly Online. ١٦-٢٢ ابريل ٢٠٠٤). (٦)"شيمون بيريز يقول إن دم الرنتيسي لا بد أن يمنعك انتقاما من مقاومة حماس وهجماتها على أهداف إسرائيلية" (Al-Ahram Weekly Online. ٢٢-٢٨ ابريل ٢٠٠٤). (٧)"إسرائيل ترفض قرار الأمم المتحدة بشأن عرفات" (AP Online. ٢١ سبتمبر ٢٠٠٣). (٨)"حماس تتوعد بخطف الجنود" (Jerusalem Post. ١ فبراير ٢٠٠٤). (٩)"يقول الرنتيسي إن عبارة وقف إطلاق النار ليست من مفردات قاموس حركة حماس" (Jerusalem Post. ١٥ يونيه ٢٠٠٣). (١٠)"مسئولون فلسطينيون يحذرون من محاولات إسرائيلية لاغتيال عرفات" (Xinhua News Agency. ٢٥ مارس ٢٠٠٤). (١١)"عرفات يلتمس من الولايات المتحدة التدخل لوقف حمام الدم والجرائم الاسرائيلية" (*Al-Ahram Weekly Online*. ٢٢-٢٨ ابريل ٢٠٠٢). ومن نفس المصدر كذلك: (١٢)"السلطة الوطنية الفلسطينية تلتمس من الصليب الأحمر إنقاذ حياة الجرحى". (١٣)"الفلسطينيون يلتمسون من دول العالم التدخل لرفع الحصار". (١٤)"عرفات يطالب المملكة المتحدة بالمساعدة في دفع عملية السلام". (١٥)"وزارة الأوقاف تستنكر منع إسرائيل الفلسطينيين الوصول الى المسجد الأقصى". (١٦)"عرفات يستنكر محاولة إسرائيل اغتيال الرنتيسي" (ومن ذلك أيضا أفعال الشجب والإدانة والاستهجان. وغيرها. مما يملك قليلو الحيلة. وربما غير ذوي المصالح، من أساليب لغوية. ليس غريبا ما انتهى إليه عطاونه وخلاصته أن الأقوياء – إسرائيل والولايات المتحدة – هم من يملكون صلاحيات التقرير، والتهديد. والوعيد. أما الضعفاء والمستضعفون – ومنهم الفلسطينيون – فلا يملكون إلا الالتماس. والشجب. والإدانة. والاستنكار. وحين يطالبون أو يلحّون. فمن قبيل "الحلم").

التأدُّب والكياسة

"التأدّب" هي ترجمة عناني (١٩٩٦) مصطلح politeness، وهي تنسجم مع ما نعرفه عن "أدب الحوار"، و"الآداب والأخلاق"، و"أدب الدعاة"، وغيره. ومع التعابير الدارجة من قبيل: "ولد مؤدّباً"، أو "مُهذّب"، و"قليل أدب"، و"قلة الأدب"، و"تأديب الأبناء". ولعل عناني آثر "التأدّب" على "الأدب" حتى لا يختلط الأمر بين الأدب بالمعنى الذي نتناوله هنا، والأدب بمعنى الشعر والمسرحية والرواية وما إليها. وربما جاز أن نترجم المصطلح إلى "اللياقة"، بمعنى "قول ما يليق"، لكنّ الترجمة ربما تلتبس باللباقة (بالباء لا الياء) التي تعني الطلاقة اللغوية. وربما جاز أن نترجم المصطلح إلى "التهذّب"، إلا أنّ الكلمة لا تبدو مستساغة - على صحّتها. وربّما جاز أن نلجأ إلى "الكياسة"، بمعنى التعقل والفطنة، ومن ذلك اختيار ما يناسب من القول. الاختيار الأخير هو أكثر ترجمات المصطلح الإنجليزية رشاقة واستساغة. لكنني آثرت الصرامة الدلالية على الرشاقة، ولهذا وقع الاختيار على "التأدُّب" – مع تأكيده أو استبداله بما يناسب من مرادفات وفق الحاجة أو الضرورة.

أول طرح لمبدأ التأدب Politeness كما نعرفه في التداولية الغربية الحديثة هو ما قدّمته روبن ليكوف Lakoff (١٩٧٣) – مع ملاحظة أنها من كتبت عن المرأة واللغة والحرب، لكنها ليست جورج ليكوف الذي كان له دور مهم في دراسة الاستعارة وبلورة مفاهيمها وأدوات تحليلها، وفي تحليل استعارات الحرب.

تعتقد روبن ليكوف أنّ الحوار يطير بجناحين – مع أنها لا تستخدم هذه الاستعارة – هما الوضوح والتأدب be clear and be polite. وأنّ المبدأ التعاوني الذي طوّره جرايس قد وفّى حق الوضوح، لكنه لم يُعر التأدّب الاهتمام اللائق به. من هنا، وتأسيساً على أطروحات جرايس، طوّرت روبن ليكوف طرحها عن التأدُّب. وهو أكثر الأطروحات التي نتناولها هنا إيجازاً – وهذا بعض ما يؤخذ عليه – ويتكوّن من ثلاث قواعد كبرى هي:

§ لا تفرض نفسك (أو آراءك أو ذوقك) أو تقحمها على الآخرين Do not impose

§ اترك لغيرك حرية الاختيار Give options

§ اجعل الآخرين يشعرون بالبهجة والارتياح Make people feel good

هذه القواعد لا ترد في أدبيات الكياسة والتأدب الغربية الحديثة بوصفها "نظرية". لكن تبقى للمقاربة وجاهتها ومشروعيتها. إنّ هذه القواعد الثلاث تختصر جلّ ما جاء بعدها من تصوّرات، ويبقى لها فضل السبق والريادة.

ونستطيع أن نعيد صياغة هذه القواعد أو شرحها من خلال تصوّر مفاده أنّ التأدّب يتراوح ما بين الإحجام والإقدام (وقد وجدتهما "الاحتراز" و"التودّد" في دراسة مجهولة المؤلف)، ومساحة من الاختيار فيما بينهما. لنتصوّر مثلا صديقا أصابه البرد، ولنتصوّر ثلاثة ردود أفعال إزاء مرضه العارض: الأول، أن نتجنب صديقك حتى لا تشعره بالضيق، وحتى لا يصدر منك ما يوحي بأنك تخشى العدوى؛ والثاني، أن تبادر بالسؤال عنه، والتخفيف عنه؛ والثالث، بين هذا وذاك، بعض إحجام وبعض إقدام.

ولنتصوّر قياسا على ذلك شخصا فقد عزيزا أو حبيبا، ولنتصوّر ثلاثة ردود أفعال إزاء ما أصابه: الأول، أن نتركه وأحزانه حتى لا نضاعفها؛ الثاني، أن نبادر بالسؤال عنه والمواساة والتخفيف عنه؛ الثالث، بين هذا وذاك، بعض إحجام وبعض إقدام: أن نخفف دون إلحاح، وأن ننصح بالصبر دون وصاية أو تضييق.

كيف نختار ما بين الإحجام والإقدام؟

الإجابة عن السؤال تكمن في طبيعة العلاقة بين طرفي الحوار - هل هي جفاء ومسافة، أم حميمية وألفة. حين يتعلق الأمر بعزيز في قومه لا تربطنا به علاقة شخصية أو بمن لا نعرف، عادة نؤثر الإحجام. لكن حين يتعلق الأمر بصديق أو حبيب أو قريب، نؤثر الإقدام.

هذه القواعد ليست عامة على كل حال، لكنها تخضع لما لا حصر له من اعتبارات وعوامل تتصل بطبيعة الموقف وسياقه وظرفه. يصدق هذا كذلك على ما ذهبت إليه ليكوف في موضع آخر (١٩٧٥) من أن النساء أكثر كياسة من الرجال وفق تعريفها وتوصيفها للتأدب، فليست كل النساء أكثر

فوائد قلّ ما يجمعها كتاب

"فقيدت بخطي في الأعوام الكثيرة وجمعت من ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب أو يحويها لعزتها وغرابتها أهلب الا أنها ليست مرتبة على مثال ولا مهذبة بطريقة ما نسج على منوال أردت أن أخص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية عن الأمم الماضية والقرون الخالية.. وأنثر خلال ذلك نكتا لطيفة وحكما بديعة شريفة من غير إطالة ولا إكثار ولا إجحاف مخل بالغرض ولا اختصار بل وسط بين الطرفين وطريق بين بين فلهذا سميته...

وإني لأرجو أن يحظى إن شاء الله تعالى عند الملوك ولا ينبو عنه طباع العامي والصعلوك ويجله العالم المنتهي ويعجب به الطالب المبتدئ وترضاه خلائق العابد الناسك ولا يمجه سمع الخليع الفاتك ويتخذه أهل البطالة والرفاهية سمرا ويعده أولو الرأي والتدبير موعظة وعبرا يستدلون به على عظيم قدرة الله تعالى في تبديل الأبدال ويعرفون به عجائب صنع ربنا سبحانه من تنقل الأمور من حال إلى حال. فإن كنت أحسنت فيما جمعت وأصبت في الذي صنعت ووضعت فذلك من عميم منن الله تعالى وجزيل فضله وعظيم أنعمه علي وجليل طوله وإن أنا أسأت فيما فطت وأخطأت إذ وضعت فما أجدر الإنسان بالإساءة والعيوب إذا لم يعصمه ويحفظه علام الغيوب... فليسبل الناظر في هذا التأليف على مؤلفه ذيل ستره إن مرت به هفوة وليغض تجاوزا وصفحا إن وقف منه على كبوة أو نبوة فأي جواد وإن عتق ما يكبو وأي عضب مهند لا يكل ولا ينبو لاسيما والخاطر بالأفكار مشغول والعزم لالتواء الأمور وتعسرها فاتر محلول والذهن من خطوب هذا الزمن القطوب كليل والقلب لتوالي المحن وتواتر الاحن عليل." (من فاتحة الخطط المقريزية).

من الطريف أن نقرأ هذه الفاتحة في ضوء ما يرد في هذا الفصل من نظريات، فنرى ما فيها من توتر بين مدح الذات والكتاب من ناحية، والتوسل إلى الله تعالى أن يحقق للكتاب القبول وإلى القارئ أن يغض الطرف عما يجد فيه من قصور من الناحية الأخرى، بين الوعي بما بذل المؤلف من جهد وتبرير ما يمكن أن يقع في الكتاب من قصور.

(أ) سوف نفتقد بل وأجاثا، أليس كذلك؟

(ب) بلى، سوف نفتقد بل. (ص ٨٠)

في هذا الحوار القصير يتفق (ب) ولو جزئيا مع (أ). وبعض الاتفاق خير من الاختلاف. لكنّ (ب) لا يراعي قاعدة الكمية في مبدأ جرايس التعاوني. حيث يتجاهل "أجاثا" تماما. تفسير ذلك أنّ (ب) ربّما ليس لديه من الخير ما يمكن أن يقول عن "أجاثا". فيؤثر الصمت على أن يقول ما لا يسرّ.

هكذا يفسّر مبدأ التأدب كثيرا من الاختيارات البلاغية. تلك الاختيارات تتشكّل من خلال التوتّر بين الغايات التواصلية والغايات الاجتماعية.

يقترح ليتش أربع صيغ للتعامل مع هذا التوتر على أساسها يمكن تصنيف أفعال اللغة/الكلام إلى (ص ص ١٠٤-١٠٥):

§ تنافسية competitive: وفيها تتعارض الغاية التواصلية مع الغاية الاجتماعية، لكنّ التعارض ربما لا يؤدي إلى التضحية بأي منهما، كما في الطلب والأمر.

§ تعاونية collaborative أو محايدة: ليس فيها للغاية التواصلية من أثر ملحوظ على الغاية الاجتماعية، كما في الإخبار والتقرير، طالما لم يكن أي منهما وثيق الصلة بالمتكلم أو السامع.

§ متناغمة convivial: وفيها انسجام وتناغم بين الغاية التواصلية والغاية الاجتماعية، كما في الشكر والتهنئة والتحية.

§ صدامية conflictive: وفيها صراع حادّ، بل أكثر حدّة من مجرّد التنافس، بين الغايتين التواصلية والاجتماعية، كما في توجيه الاتهامات والسب والإهانة.

توترات أخرى يستخدمها ليتش في صياغة مبدأ التأدب، بين الأرباح benefits والخسائر أو التكاليف costs، بين المدح praise والذم dispraise، بين الشقاق disagreement والاتفاق agreement، بين التعاطف sympathy والشماتة antipathy (ص ص ١٣٢-١٣٩).

أما القواعد التي ينتظمها مبدأ التأدب من وجهة نظر ليتش فنبيّنها فيما يلي. مع ما يلزم من تصرّف:

§ اللباقة Tact: لا تكلّف غيرك أكثر مما تكلّف نفسك. ولا تمنح غيرك أقلّ مما تمنح نفسك.

§ الكرم Generosity: لا تكلّف نفسك أقلّ مما تكلّف غيرك. ولا تمنح نفسك أكثر مما تمنح غيرك.

§ الاستحسان Approbation: أكثر من مدحك غيرك، وأقلل من ذمّك غيرك.

§ التواضع Modesty: أكثر من ذمّك نفسك، وأقلل من مدحك نفسك.

§ الاتفاق Agreement: أكثر من الاتفاق، وأقلل من الشقاق مع غيرك.

§ التعاطف Sympathy: أكثر من التعاطف مع غيرك، وأقلل من الشماتة في غيرك.

من الواضح أنّ لكلّ قاعدة من هذه القواعد وجهين: أحدهما يتعلق بالمتكلم أو الكاتب، والثاني يتعلق بالمتلقي أو الطرف الآخر؛ أحدهما يتعلق بالسلب أو التخفيف (فيما هو ضار أو قبيح)، والثاني بالإيجاب أو المبالغة (فيما هو نافع وطيب). فإذا كنت في مقام اللوم أو العتاب، فأقلل منه ما استطعت، وإذا كنت في مقام الامتنان أو التهنئة، فأكثر منهما ما استطعت. من التأدب أن تمدح الآخرين، لكن ليس منه أن تمدح نفسك، فإن كان لا محالة، فقليل منه يكفي، ومن التأدب أن تلوم نفسك، لكن ليس منه أن تلوم الآخرين، فإن كان لا محالة، فقليل من اللوم المهذّب يكفي، ويظلّ الإحجام مقدما على الإقدام، وتظل السلطة الاجتماعية – حتى إن كانت مؤقتة أو مشروطة - والألفة عاملين مؤثرين في تحديد الأسلوب المناسب للتعبير عن التأدب.

إلى هذه القواعد يضيف ليتش تحبيذ كل ما هو مبهج. من هنا تبدو جملة "مقالتك رديئة" أقل كياسة من "مقالتك إلى حد ما رديئة" ومن "مقالتك جميلة ولكن ...". يضيف ليتش كذلك قاعدتين هما المدح في صورة الذم Banter، والذمّ في صورة المدح Irony أو السخرية. يقع الأول بين الأصدقاء المقرّبين الذين زالت بينهم

الحواجز التي تستلزم التأدب، فيكون السبُّ والشتائم والخشونة والتنابز تعبيرا طريفا عن الألفة. أمّا الثاني، فيهدف إلى تجنّب النقد المباشر أو الفظاظة الظـاهرة. فتقـول لنص أدبي ردئ"هذه رائعة أدبية!"

يظل مبدأ التأدب الذي طوّره ليتش نظرية مهمّة ومقاربة مشروعة. لكنه لم يحظ بمـا يستحق من اهتمام في الدراسات التداوليّة، وظل يعاني انحياز هذه الدراسـات إلـى نظرية براون ولفنســون Brown and Levinson (١٩٧٨/١٩٨٧). تنطلـق نظرية براون ولفنسون من مقولات عالم الاجتماع ايرفنج جوفمان Goffman حول صياغة الانطباعات وتشكيلها، وكذلك مـن الكتابـات المؤسّسـة لاوسـتن وسـيرل وجرايس.

وتدور النظرية حول مفهوم ماء الوجه face، إن حفظا وإن إراقة. فبعض ما نقـول أو نكتب فيه حفـظ face-saving، وبعضـه فيـه إراقـة face-damaging، وبعضه ينذر بإراقة ماء الوجه face-threatening – ماء وجه المـتكلم (أنـا) self-face، أو المتلقي (الآخر) other-face. وكما هو الحال فيما سـبق، يظـل للكياسة وجهان هما الإحجام والإقدام – هما التأدب السالب أو الســلبي negative politeness، والتأدب الإيجابي positive politeness في نظريـة بـراون ولفنسون - وهما يقابلان حاجة البشر إلى الخصوصية والتحرُّر من الضغوط ومـن فضول الآخرين وتطفُّلهم negative face من ناحية، وإلى الثنـاء والاستحسـان والقبول positive face من الناحية الأخرى (براون ولفنســون، ١٩٨٧، ص ص ٦١ -٦٢).

وكما هو الحال فيما سبق، تظل سلطة المشاركين في الحوار والمسافة أو الألفة بينهم أو بينهما تحدد أسلوب التأدّب ومقداره واتجاهه (براون ولفنســون، ١٩٨٧، ص ص ٧٧ -٧٨). حيث يصلح الإحجام إجمالا مع من لهم سلطة أو نفـوذ علينـا. ويصـلح الإقدام مع من تجمع بيننا وبينهم ألفة أو مودّة.

حين يكون المتكلم في مقام التلفظ بما يحتمل إهانة، أو إساءة، أو تكليفا، أو لوما، أو زجرا، مما يهدد بإراقة ماء وجه من يكلم أو وجهه هو، تبقى أمامه مجموعة من الاختيارات. الاختيار الأول: بين أن يتلفظ بذلك وألا يتلفظ به. إذا اختار، أو كان عليه أن يتلفظ بما يحتمل شيئا مما سبق، يبقى لديه الاختيار بين التصريح on-record، والتلميح off-record. حتى إذا اختار التصريح، بقي أمامه أن يفعل ذلك دون مداراة أو تهوين أو تخفيف أو تلطيف without redressive action. أو أن يفعل مع شيء من التلطيف والتخفيف with redressive action. فإذا اختار التخفيف والتلطيف، فقد اختار التأدب، وبقي عليه أن يختار بين نوعين من التأدب تكررت الإشارة إليهما من قبل – الإحجام والإقدام (براون ولفنسون، ١٩٨٧، ص ص ٦٠، ٦٩).

ولنضرب لما سبق مثلا. أنت تريد أن تقترض بعض المال من صديق. أمامك في البداية طريقان: أن تسأله المال أو ألا تسأله (لعله يفهم من تلقاء نفسه). إذا قررت أن تسأله المال، فأمامك طريقان: أن تصرح أو تلمح (تخبره عن ظروفك الصعبة غير المواتية وضرورات الحياة التي لا تنتهي – وربما لا يفهم، وربما يفهم فلا يبالي). إذا اخترت التصريح، بقي أمامك أن تفعل ذلك دون تلطف أو تلطيف ("أقرضني مبلغ كذا وكذا" أو "عاوز ....." أو "هات ....."، أي "أحتاج" أو "يعوزني"). أو أن تفعل مع شيء من التخفيف والتلطف ("من فضلك ....."، و"لو معندكش مانع ....."، و"ممكن لو سمحت ..."، أو "تكرما"، و"إذا لم تكن تمانع"). في هذا المخطط كثير من التبسيط غير أن له وجاهته.

وفي تفصيل نوعي التلطف أو التأدب يطرح براون ولفنسون عددا من الأساليب البلاغية التي تندرج تحت الإحجام (التأدب السلبي) والإقدام (التأدب الإيجابي) (براون ولفنسون، ١٩٨٧، ص ص ١٠٢-١٢٩، ١٢٩-٢١١، والأمثلة هنا من اللغة العربية). تشمل أساليب الإحجام أو الكف والمنع ما يلي: المواراة وتجنب المباشرة، ووضع الطلب في صورة تساؤل، والتعبير عن التمني، واستخدام صيغ التوقير

والاحترام ("حضرتك" و"سعادتك" و"طال عمرك" و"فخامتك" و"سموك"). والاعتذار وطلب القبول ("آسف للإزعاج ..."، و"معذرة ..."، و"أرجو أن تسامحني ...")، وتجنب صيغ الخطاب المباشر "أنا" و"أنت" ("كيف يمكن الوصول إلى ...")، وتفضيل الصيغ المصدرية على الفعلية ("ممنوع التدخين" بدلا من "نحن نمنعك من أن تدخن") والتعميم ("حسب اللوائح والتعليمات، يمنع ...")، وحفظ الجميل والاعتراف به ("سنكون ممتنا غاية الامتنان لكم ...")، واستخدام صيغة الجمع ("على السادة الركاب المسافرين ..."، و"نعتذر" بدلا من "أعتذر")، والتخفيف ("فقط أردت أن أسأل إذا كان من الممكن أن ...")، واستخدام صيغة الماضي ("أردت أن ..."، و"كنت أود أن ...").

وتشمل أساليب الإقدام أو المنح ما يلي:

مراعاة حاجات الآخرين ("لا بدّ أنك جوعان")، والاستحسان والاهتمام والمبالغة فيهما كلما كان ذلك ممكنا ("ما أروع قصيدتك!"، و"أعجبتني مداخلتك اليوم جدا"، و"حلوة خالص"، و"وايد حلوة"، و"ممتاز!")، والتعبير عن الألفة من خلال الصيغ الدارجة ("هات يا عم البتاعه دي"، و"رمسه عودة"، و"إيش لونك؟"، و"إزيّ الحال؟")، وتجنب الاختلاف والشقاق ("دا صحيح"، و"أنا أتفق مع ما تقول") وطلب الوفاق والاتفاق. بل افتراض وجودهما أحيانا ("سوف نلتقي غدا، أليس كذلك؟"، و"هنشوفك بكرة"، و"انت جاي معانا، مش كده؟") وافتراض وجود أرضية أو خلفية مشتركة بين المتكلم والسامع ("كما تعلم ..."، و"تعلمون أنّ ...")، والفكاهة، والمبادرة الكريمة والوعد بما يسرّ ("أزورك غدا إن شاء الله") والتعبير عن الترابط والمشاركة ("كيف حالنا اليوم؟"، و"لا، احنا النهارده عال العال"، و"مشينا")، وتقديم المبررات والأعذار كلما لزم الأمر ("لقد تأخرت ..."، و"لا بدّ أن أذهب الآن ...")، والتعاطف ("تبدو مرهقا اليوم")، والعطاء في مقابل الأخذ ("أرد لك هذا الجميل يوما"، و"هذا دين في عنقي").

هنا ينتهي الكلام عن مبدأ التأدب في الدراسات التداولية الغربية، لكن هذه الدراسات حظيت بما لا نستطيع له هنا حصرا من مقاربات ومراجعات أكدت على ما تعاني منه هذه الدراسات والتصورات من تجريد، ومن انحياز إلى الثقافة الغربية، ومن تبسيط مخل في تصنيف التأدب إلى إقدام أو إحجام، دون معالجة الدرجات الرمادية فيما

الكلمة الطيبة

M{ZD@L 6@Ms dy t-x @s @y= WAB ! $a u # lx t9 NB

! $U . e3@u bl ; 8 m @ $@2 @ AE ; 8/; 98 @@ m

dy t-x @@ py= @Bb ; c r2 x@ Og@@ b $@ R$@F $

(سورة AE ; 98% ' B $@ $B F$ - qp ' B MIG 8 pl/@

ابراهيم).

في القرآن الكريم، وهو معين البلاغة العربية الأول، إشارات أخرى إلى فضيلة الكلام الطيب. ومن ذلك خطاب الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم

@ x@ x @@E x $ e MY q@(N@ M@ t 8z B @ mu $@

M@ @ (' F8 @N ?$ a Nm ' IG @ N@ # ' $ (@ $gn ' B

(سورة آل عمران). AE ; 8@ q@ = t ! $b) 4 $ @ q@

وفي صحيح البخاري مما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم كتاب للأدب من بين ما نجد فيه: (١)"حدثنا قتيبة بن سعيد: حدثنا أبو الأحوص، عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرا أو ليصمت". (٢)"حدثنا آدم: حدثنا شعبة: حدثنا سعيد بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، عن أبيه، عن جده قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: على كل مسلم صدقة. فقالوا: فإن لم يجد؟ قال: فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق. قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟ قال: فيعين ذا الحاجة الملهوف. قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: فليأمر بالخير، أو قال: بالمعروف. قال: فإن لم يفعل؟ قال: فليمسك عن الشر فإنه له صدقة". (٣)"وقال أبو هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: الكلمة الطيبة صدقة". (٤)"حدثنا أبو الوليد: حدثنا شعبة قال: أخبرني عمرو، عن خيثمة، عن عدي بن حاتم قال: ذكر النبي صلى الله عليه وسلم النار، فتعوذ منها وأشاح بوجهه، ثم ذكر النار فتعوذ منها وأشاح بوجهه، قال شعبة: أما مرتين فلا أشك، ثم قال: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجد فبكلمة طيبة". وفيه الصحيح كذلك كثير عن بر الوالدين، وصلة الرحم، والرحمة، وحسن الخلق، والرفق، والتواضع، والأمانة، والوفاء.

بينهما، ودون اهتمام مناسب بنقيض التأدب، أي الوقاحة أو البـذاءة ("قلّـة الأدب").
حتى الدراسات التداولية العربية – التي تبقى حبيسة المكتبات الجامعية – تتناوله من منظور غربيّ. وحين تُترجم نظرية التأدّب خصوصا والتداولية عموما إلى العربيـة، ينتهي الأمر إلى نصوص غريبة تستعصي على الفهم، وتضطر قراءها إلى الرجـوع إلى الأصول الغربية. هذا إلى ما نألفه من تهافت ادعاءات السبق الحضاري والاختيار غير الواعي بين بلاغة عربية قديمة دون تجديد أو مراجعة، وبلاغة غربية بقضّـها وقضيضها، دون تفنيد، ودون اهتمام بالسياق الثقافي الذي تطوّرت فيه.

كياسة أون لاين

لم ينضب بعد معين البحث في التأدُّب. مازال ينتقل من جنس خطابي إلى آخر. وتتناوله الدراسات في مختلف اللغات والثقافات. ويستجيب لمتغيرات العصر فيتجلى في آداب وأخلاقيات استخدام الانترنت أو netiquette التي نجد شرحا مفصلاً لها في كتاب فيرجينيا شيا Shea (٢٠٠٤). من تلك الآداب:

§ تأكيد البعد الإنساني، لأنّ وراء الأجهزة والشاشات والرسائل البريدية والدردشة والمنتديات بشرا يشعرون ويعقلون.

§ التزام نفس الآداب والقواعد الأخلاقية والسلوكية التي ينبغي الالتزام بها في الواقع البشري الذي فُقِناه عند الانتقال إلى الواقع الافتراضي الذي لم يعد هناك بد من معايشته. على معنى أنّ القواعد التي وردت فيما سبق صالحة للتطبيق في الواقع الجديد، مع ملاحظة ما يتسم به من خصائص وما يستخدم من وسائط

§ الوعي بالمكان والمقام في هذا الفضاء الواسع حتى لا نقع فريسة الرسائل غير المرغوب فيها، والإعلانات المُضللة، والقرصنة، والفيروسات. وغسيل الاموال، وشتى صنوف الاحتيال والتحايل، وحتى لا نؤذي الآخرين، أو نلحق بهم الضرر.

§ احترام خصوصيات الآخرين وأوقاتهم وانشغالاتهم. لانّ لهم أولوياتهم التي ربما لا تتفق مع أولوياتنا، والتزاماتهم التي ربما لا تشبه التزاماتنا.

§ حسن المظهر وحفظ ماء الوجه على الانترنت. فلا تفعل ما يشين، أو يثير الكراهية أو التقزُّز أو النفور.

§ تداول المعرفة وتقاسمها، وتبادل الخبرات والمهارات عبر ما يتيح الواقع الافتراضي من وسائط ووسائل.

§ مناهضة التعصُّب والحروب الكلامية، والتنابز، والإساءات المتبادلة بين أنصار المذاهب المختلفة، والفرق الرياضية المتنافسة، والعرقيات المتصارعة، والبلدان المتجاورة.

§ تجنب إساءة استخدام ما يتيح الواقع الافتراضي لبعض "سكانه" من قوة أو سلطة وهيمنة مصدرها الخبرة، أو المعرفة، أو الإحاطة بما لا يحيط به الآخرون. ومن ذلك أن يتجنب مديرو المواقع والمشرفون على المنتديات الغلظة، والفظاظة، والسخرية، والتطاول في إصدار ونشر تعليماتهم.

§ التسامح والتجاوز عن هفوات وأخطاء الآخرين التي ربما تنجم عن حداثة عهدهم بالواقع الافتراضي وآلياته، وأدواته، وقواعده. وربما يقتحم الدردشة أو المراسلات أو المنتديات أو المدونات قراصنة، وينجحون في إشعال فتيل الكراهية والحروب الكلامية بين المتحاورين.

بلاغة الصمت

وردت إشارة إلى الصمت، وهو جدير بشيء من الاستطراد. فمنه، ومن مرادفه السكوت، ما يكون أبلغ أو أكثر كياسة ولياقة من الكلام، فيكون ذهبا حين يكون الكلام فضة. ومنه ما يكون كلاما بغير كلام، كما نجد في الثقافة العربية الإسلامية –"السكوت علامة الرضا". ليس كل الصمت بالقطع رضا أو قبول. فمنه ما يكون خوفا، أو هروبا من الرقابة والمحكمة – كما في "المسكوت عنه" من أمور الدين والسياسة والجنس - أو كمدا، أو خجلا، أو حيرة، أو دهشة، وانبهارا، أو تأملا، أو استراحة من الكلام، أو استعدادا له. ومنه ما يكون اضطرارا جسديا، كما يحدث أثناء النوم والتنفس. ومنه ما يكون رعاية لبعض القوانين أو التعليمات والأدب، كما نعاين في المكتبات العامة، وأثناء خطبة دينية. ومنه ما يكون صمت الغرباء الذين لا يجمعهم جامع إلا مكان كالطائرة أو الحافلة. ومنه ما يكون استماعا وطلبا للمعرفة أو المتعة، أو كليهما، يتباين في تركيزه، ووقاره بتباين ما يقال من تلاوة، أو محاضرة، أو خطاب سياسي أو أغنية. ومن الصمت ما يكون إجلالا للموت، وما يصاحبه من حزن، وتعزية، وجنازة، وما يتلوه من حداد. ومنه ما يكون صوما عن الكلام وفاء لنذر، كما فعلت السيدة مريم وروى عنها القرآن الكريم. ومنه ما يكون تعففا عن قول ما لا يليق – ولا بد أن ما "يليق"، ومن ذلك الكلام في الأمور الأسرية، والسؤال عن العمر، والراتب، والحالة الزوجية، والديانة، أو المذهب، يختلف من سياق إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى. ومن الصمت ما يكون إشارة إلى انتهاء حوار أو كلام. ومن الصمت والسكوت ما يكون قهرا، أو قمعا يمارسه ذوو القوة والسلطان والنفوذ على من سواهم. ومنه ما يكون جهلا بما يقال، أو ازدراء له، أو لمن يقولونه. ومنه ما يكون من قبيل ضعف الثقة بالنفس أو فقدانها، وما يصاحب ذلك من خوف الوقوع في الخطأ، والتعرض للسخرية. ومن الصمت ما يكون احتجاجا، أو اعتراضا، أو امتناعا مؤقتا عن الكلام في محكمة، أو أمام النيابة.

(انظر على سبيل المثال إيفرت Ephratt، ٢٠٠٨).

الإشـــارة

تتجــــاوز التعــــابير الإشارية أسماء الإشارة ("ذا" و "هذا" و"ذي" أو "هذه" و"ذلك" و"تلك" وهــــذان" و"هاتــــان" و"هؤلاء" و"أولــئك" – مع ملاحظة أن "هـ" أو "ها" أضيفت للتنبيــه – ومشــتقاتها العاميــة المتنوعة من قبيل "دا" و"دي" و"دولـــــة" أو "دولــت" و"هذيلــة"). لكنها تشاركها طبيعتها الدلالية، وهي الإحالــة إلى ما يفهم من سياق النص – سياقه اللغوي وغير اللغوي الذي ورد تفصيله فيما سبق. من خــلال تصــنيفات لفنسون Levinson (١٩٨٣، ص ص ٥٤-٩٦)، وكــروز Cruse (٢٠٠٠، ص ص ٣٢٢-٣٢٣)، وجرنـــدي Grundy (٢٠٠٠، ص ص ٢٢-٤٧). يمكـــن أن نلخص أصناف الإشارة فيما يلي، مع ما يلزم من توضيحات وأمثلــة وإحــالات إلــى البلاغة العربية:

عن الالتفات في القرآن الكريم

ما أبلغ خطاب هارون أخاه موسى عليهما الســلام بمــا بينهما من صلة لم ورحــم حتــى لا يبــالغ فــي لومــه وتقريعه:

Rq) 9b6M -g §(Б A(wn lus g ı L 18w RaB9 A9%

!(سورة طه) Æ ¯ عطـ Ed Nb @ ˙ ١) 6 1 8 I M6p

وفي البلاغة العربية وقفات دالة عند ظــاهرة الالتفــات deictic/pronoun shift – وإليه ترد إشارة في غيــر هذا الموضع من هذا التبسيط - تنطق من القرآن الكريم الذي يحفل بأمثلة لهذه الظاهرة، في التحول من المــتكلم إلى الغائب أو المخاطب، ومن الغائب إلى المخاطب، ومن الغائب إلى المتكلم. من ذلك ما نقرأ في

8 B; 8BEd Bd ¯ LEEBM 4y N8u y Z 8) F/@b)

.(سورة القلم) Æ ¯ bq93B# Ix /39$B ˙ ¸ 8 B1

أمّا ما يؤدي الالتفات من وظائف بلاغيــة فــي القــرآن الكريم مما نجد في تفاسيره، فيشمل المبالغة، والتعجُــب، والتخصيص، والامتنان، والتشريف، والتنكير، والترهيب، وإقامة الحجة والعتاب، والتخفيف، والتوبيخ. ليس مــن المقبول إذن الوقوف – كما درجت بعض كتب البلاغة - عند "رفع السآمة أو درء الملل" بوصفها الغاية الوحيــدة للالتفات.

§ الإشارة إلى (أو في) الخطاب discourse deixis :

"في الفقرة السابقة"، "فيما يلي"، "في هذه الرواية"، "فيما سبق". هذه إشارات نصية تنظيمية تحيل إلى أجزاء في النص أو الخطاب وتسعى إلى تنظيمه وتحقيق السبك والحبك فيه. ومن ذلك الإشارات الشارحة – كما نجد في هذا الاقتباس -"الناظر" - من مقدمة قطعة من أوروبا لرضوى عاشور - وما تتحدد من خلاله بؤرة السرد وزاويته: "في هذه الرواية أنا الناظر. ليس هذا الاسم هو ما اختاره لي والدي. ولا هو كنيتي التي يناديني الناس بها. أنا الناظر لأن مهمتي النظر. أنقل عبر حكايتي ما نظرت إليه من نظر العين والقلب، أي ما رأيته بالبصر والبصيرة. حين رجعت إلى المعاجم لأتأمل مادة "نظر" وأطمئن أن الاسم يفي تمام الوفاء بالغرض، استوقفتني عبارة "ناظرُ العين"، وهي النقطة السوداء الصافية التي في وسط سواد العين، وبها يرى الناظر ما يَرى، وهي البصر نفسه، وهي أيضا عرق في الأنف (أو عرقان على جانبي الأنف) فيه (أو فيهما) ماء البصر. أترجمهما بلغتنا المعاصرة إلى قناة الدمع. قلت هذا اسم يناسبني، ثم عدلت عن استخدامه لغرابته. وأيضا لمنافاته الدقة، فما أرويه ليس البصر نفسه بل ما رأيته فأعجبني أو ساءني. أتفكر فيه وأقدّره قياسا على موقعه مني وموقعي منه. ثم أعجبتني "نظيرةُ القوم" وهو طليعتهم. ينظر إليه قومه. يمتثلون ما امتثل، وهو طريقتهم. ولكني وجدت هذا الاسم الثاني تماما كسابقه غير مألوف ويفتقد الدقة، فأنا، على عكس نظيرة القوم، رجل وحيد معتكف في داره، لست طريقة أهلي، ربما كان لي أهل أتعرف عليهم ذات يوم، ولكن هذا أمر مستبعد لأن العمر لن يمتد طويلا. أنا الناظر، منظرتي تلة عمري. أقف عليها رقيبا وحارسا، أنتظر وأعتبر وأقدّم دلائل المحبة، لأن النظر في لسان العرب دليل محبة، وترك النظر دليل انصراف أو بغض وكراهية. ربما كان هذا التوضيح زائدا عن الحاجة، يستبق الرواية بإعلان ما قد تشير إليه وتضمنه، ولكني أردت رفع اللبس، لأن كلمة "الناظر" في العربية الدارجة في مصر تحيل إلى مدير المدرسة. وفي الماضي غير البعيد كان الوزير المتنفذ يدعى الناظر، يدير شئون نظارته المحددة ويحكم سير الأمور فيها. لم

أعمل مديرا لمدرسة في حياتي، ولا توفرت لـي سـلطة الإدارة والمـديرين. نـاظر المدرسة أو الوزارة ينافي المقام والمقال وتجربتي، كيف لي وأنا أقصد الدقة والأمانة أن أترك لاسمي الدال على مهمتي أن يسحب خيال القارئ إلى طريق مفارقـة تغيّـر المعنى وتعكسه؟" (رضوى عاشور: قطعة من أوروبا، ٢٠٠٣).

§ الإشارة الوجدانية empathetic deixis :

"هذا" للقريب و"ذلك" للبعيد، والبعد هنا قد يكون مكانيا، أو زمانيا، أو شعوريا، وقـد يكون تعبيرا عن التوقير والإجلال، من هنا تبدو غرابة تعبير من قبيل "هذا الماضـي البعيد" الا في سياقات خاصة، وبلاغة التعبير القرآني عن القرآن ذاتـه فـي سـورة البقرة: "ذلك الكتاب لا ريب فيه". ومن جميل ما ورد في البلاغة العربية عن ذلـك أنّ "للمشار إليه ثلاث مراتب: قريبة وبعيدة ومتوسطة. فيشار إلى ذي القربى بما لـيس فيه كاف ولا لام: كأكرم هذا الرجل أو هذه المرأة وإلى ذي الوسطى بما فيـه الكـاف وحدها: كاركب ذاك الحصان، أو تيك الناقة، وإلى ذي البعدى، أي البعيد، بمـا فيـه الكاف واللام معا، كخذ ذلك القلم، أو تلك الدواة" (الغلاييني، ص ٢٩).

§ ظروف الزمان time deixis :

"الآن"، و"عندئذ"، و"صباحً"، و"مساءً"، وهكذا. لكلّ فعل أو حدث أبنيته. فحين نقول "أنا الآن أقرأ"، تحيل "الآن" إلى زمن تعرفه الأنا في هذه الجملة ويرتبط بها وترتبط بـه، وحين نقرأ "الآن حصحص الحق" على لسان امرأة العزيز في سورة (يوسف)، تحيلنا "الآن" إلى زمنها وزمن "يوسف" عليه السلام، لا زمانك أنت بينما تقرأ، ولا زماني أنا بينما أكتب.

§ ظروف المكان place deixis :

"هنا"، و"هناك"، و"ثمّ"، ماذا نعني حين نقول "هنا"؟ لعلها "هنا" حيث تقرأ أنت، أو "هنا" حيث أكتب أنا، أو "هنا" أخرى لمتكلم آخر. لا بدّ أنّ "من هنا وهناك" تعني من مكـان/ فضاء المتكلم في النص ومن فضاءات أخرى بعيدة.

§ الضمائر person deixis :

"أنا"، "نحن"، "هو"، "هي"، "هم" "هن"، "هما"، "أنت"، "أنت"، "أنتما"، "أنتم"، "أنتن". عن الضمير يقول ابن منظور في لسان العرب "كما أن أكثر المضمر في العربية إن شئت جئت به. وإن شئت لم تأت به"، ويقول الرازي في مختار الصحاح "أضمر في نفسه شيئا. والاسم الضمير. والجمع الضمائر. والمضمر الموضع والمفعول".

§ الإشارة الاجتماعية social deixis :

"السيد"، "حضرة"، "عمادا"، "أستاذي الفاضل"، "أفندم"، وما إليها. تضع المشار إليه في مكانة اجتماعية بالنسبة إلى من يستخدمها، فيما عدا ما يكثر اليوم من استخدامات ساخرة أو فكاهية. وينبغي أن نلاحظ أنّ الإشارات الاجتماعية وغيرها من صنوف الإشارة ربّما تتضافر. أو تتعارض، أو تتنافر في نصّ ما لتحقيق بعض غاياته البلاغية. في اقتباس "الناظر" ضمائر متكلّم تتضافر مع التطبيقات الشارحة لتحديد دور المتكلم في الخطاب أو النص، والزاوية التي يعاينه منها المتلقي.

من الأهميّة بمكان، إذن، أن نتناول النص من زاوية التعابير الإشارية. من تساؤلات التحليل في هذا الصدد ما يتعلق ببؤرة الأحداث، ونقطة انطلاقها، ومن ثمّ وجهتها، أو وجهاتها، وتحوّلاتها، وإدراك الشخصية المحورية ما يحيط بها من شخصيات وأماكن وأحداث بُعدا، وتباعُدا، أو قُربا وتقارُبا، وتقرُّبا، ألفة، أو جفوة. سوف نرى فيما يلي من هذا التبسيط أنّ الإشارة بالغة الأهمية، وأنّها تتجاوز مُجرّد التحديد والتصنيف والتمييز والتسمية أو النداء إلى تكريس الانتماءات، وصراع الهويات والانحيازات. لكن ينبغي التمييز بين الإشارة بالمعنى الذي ورد هنا وبين الإشارة بمعنى الحركة والإيماءة، وربّما النظرة، أو الإشارة باليد، أو الكتف، أو الرأس، أو العين – مع أنّهما يتقاسمان القدرة على الإبلاغ والتأثير. ما نقصده هنا هو إشارة النص أو الخطاب إلى العالم الذي يحيط به، وإلى ما فيه من شخوص، وما بينهم من علاقات تقارب، أو تباعد، مساواة، أو تمايز، وإشارة الخطاب إلى نفسه ومختلف أجزائه

ومكوّناته. وسوف تعاود الإشارة الظهور بهذا المعنى في معرض الكلام عن ترابط النصوص وسبكها. أمّا الإشارة بمعنى الحركة والإيماءة وما إليها فمجالها دراسة الاتصال غير اللفظي nonverbal التي تستلزم جهدا مستقلا، لأنها تعين اللغة التقليدية على أداء ما يرد هنا من غايات ووظائف، أو تعوقها عن ذلك كله.

من ذلك ما ورد في القرآن الكريم في سورة مريم: [illegible] (الآية: ٢٩).

لقد نذرت مريم للرحمن صوما، وعزمت على ألا تكلم ذلك اليوم إنسيا. ولمّا كانت تريد أن تبرّ بعهدها، وفي ذات الوقت تدحض الاتهام، وكان لابد لتحقيق ذلك من التواصل، لم تجد مفرًا من اللجوء إلى الإشارة. ولقد تحقق التواصل من خلال الإشارة، ودليل ذلك أنّ الرسالة بلغت هدفها، فردّ عليها قومُها المرتابون بقولهم: "كيف نكلم من كان في المهد صبيا". في هذا السياق، حلت الإشارة غير اللفظية محلّ اللغة وأنجزت وظيفتها. هذه تداولية موازية، لا سبيل إلى الإحاطة بها هنا. ولا الوفاء بحقها، إلا على سبيل "الإشارة" العابرة.

1

اللغة، إذن، تُشير

من خلال مناقشة نظرية أفعال اللغة، ومن بعدها الإشارة، ومن قبلهما السياق وعناصره، نستطيع أن نجمل القول فيما تفعل اللغة في أنها "تشير". أو أنها "مؤشر" - وكلاهما ترجمة صالحة لكلمة Index، فعلاً واسماً - يدلُّ ويوحي. أمّا الأم تشير اللغة، وعلام تدلُّ، فهو على سبيل التلخيص، والكلام لبول تشيلتون وكريستينا شيفنر (٢٠٠٢، ص ص ٣١ -٣٢)، مع ما يلزم من توضيح وتمثيل:

- درجات اليقين والشكّ :

موقف المتكلم مما يقول، والكاتب مما يكتب، من حيث اليقين أو الشك. ومن ذلك ما نجد في "أنا أعتقد"، و"أزعم"، و"أظنّ"، و" مما لا شك فيه". و"الحقيقة". وفي "الواقع". وقد نلاحظ أن اللغة الإعلامية في غير دولة من الدول العربية تتجرّد بالتدريج من محتواها. فنسمع على سبيل التمثيل لا الحصر، "يمكن النهارده نحب نرحب بـــ". ويذهلنا ما يحتشد في برامج "التووك شوو" - أو البرامج الحوارية - من تعابير من قبيل "في الواقع" و"في الحقيقة"، وهذا الغياب اللافت لتعابير الشكّ والاحتمال في ثقافتنا العربية.

- العاطفة والوجدان، أو الحالة الشعورية :

من خوف أو حبّ أو كراهية، وما تتسم به لغة السياسة من تعبير عن الوطنية patriotism، أو حبّ للوطن والانتماء، وكراهية الغرباء والأجانب xenophobia، إذا لزم الأمر.

• الغاية أو المقصد، أو الفعل الذي يُرادُ إنجازه من خلال الكلام أو الكتابة :

وقد تقدّم الكلام عن تلك الأفعال، على أنّنا لا بدّ أن نبقى على الحذر اللازم إزاء ما نجد في لغة السياسة والإعلام من خبر يُرادُ به الإنشاء، أو تقرير لا يُراد به مجرّد التقرير، بل الاتهام أو اللوم، أو وصفٍ في إعلان لا يُراد به مجرّد الوصف، بل الدعوة إلى الشراء. ومن كلام الجاحظ ما ورد في استطراد سابق بعنوان "وهذا كتاب": "و هذا كتابٌ موعظةٍ ... والكثرةُ من السلامة ...". وقد تقدّم أنّ من غايات هذه المقدمة ومقاصدها: التبرير - تبرير المزح والفكاهة في مقام الجد - والتنويه إلى ما يسعى الكتاب إلى إنجازه وتوصيله -"موعظةٍ وتعريفٍ وتفقهٍ وتنبيهٍ".

• جنس الخطاب، سواء أكان كلاما أم كتابة :

في كلّ نصّ أو خطاب بعض ما يشير إلى نوعه، سواء كانت الإشارة ظاهرة شارحة - من قبيل "سوف أحكي لكم حكاية"، أو "فيما يلي بيان وزارة الداخلية"، أو "والآن مع النشرة الجوية" - أو تركيبيّة شكليّة - فالنصّ الذي يتشكّل من أبيات كل منها من شطرين أغلب الظن أنّه قصيدة، والموسيقى التي تصاحبها كلمات منغّمة أغلب الظن أنها أغنية، وهكذا.

• هويّات المشاركين في الخطاب، وانتماءاتهم الاجتماعيّة والسياسيّة والعرقيّة :

وقد تقدّم الكلام عن ذلك. لا تكتفي هذه المقدّمة بالكلام عن جنس الكتاب - وهو التاريخ أو الكتابة التاريخية، عن "أنباء ما بديار مصر" - وأسلوبه -"من غير إطالة ولا إكثار ولا إجحاف" - والتعبير عن التوتر بين مدح الذات والكتاب من ناحية، والتوسّل إلى الله تعالى أن يحقق الكتاب القبول وإلى القارئ أن يغضّ الطرف عما يجد فيه من قصور من الناحية الأخرى، بين الوعي بما بذل المؤلف من جهد، وتبرير ما يمكن أن يقع في الكتاب من قصور، بل تتجاوز ذلك إلى الإشارة إلى انتماء الكاتب وخلفيّته الدينية الإسلامية -"عجائب صنع ربنا سبحانه" و"أقدّلك من عميم مننن الله تعالى وجزيل فضله وعظيم أنعمه علي وجليل طوله" و"إذا لم يعصمه ويحفظه علام الغيوب".

• أدوار المشاركين في الخطاب، والعلاقات التي تربط بعضهم ببعض، وتبادل الأدوار وتغيّرها:

فالمدرّس في المدرسة زوج وأب في البيت، وصديق في جلسة الأصدقاء، وهكذا. ولكلّ دور لغته التي تميزه عن غيره من الأدوار. ولكلّ علاقة لغتها – كما يرد في غير هذا الموضع من التبسيط – ولكلّ ارتباك مقصود بين الدور واللغة التي ترتبط به في نصّ أو خطاب غاياته البلاغية التواصلية.

التداوليّة العامّة

- طوّر يورجين هابرماس Habermas تداوليّة تسقية عامّة Universal Pragmatics تنسجم مع جملة الاتجاهات الوظيفيّة التي ورد ذكرها في هذا التبسيط في تركيزها على اللغة المتداولة، لا القواعد النحوية أو الصرفية. مع تركيزها الخاص على المصداقيّة والقول بالصدق أو زعمه. وتسعى الى اكتشاف ما يحقق التفاهم من خلال التواصل بين البشر، لأنّ التفاهم هو السبيل إلى تجنّب الصراع والشقاق وإلى حل النزاعات. أمّا سوء التفاهم أو عدم التفاهم. فقد ينجّم عنهما القتال والحروب والثارات والعداوات. وهي تداولية تسعى إلى تجاوز الفصل المفتعل بين الجسد والعقل، بين النظرية والتطبيق، بين التحليل والنقد أو التفنيد. حتى يتحقق التفاهم، لا بدّ من لغة مشتركة يفهمها طرفا الحوار أو التفاعل، ومجموعة من القواعد التي تنظّم التفاعل أو الحوار، ومن التوقّعات التي يحترمها الطرفان. غايات التفاهم الذي يتحقق من خلال التواصل اللغوي هي الانسجام وتبادل المعرفة. وترسيخ الثقة بين الطرفين بما يحقق التنوير وروح الجماعة والاتّفاق. ويكرّس الإحساس المتبادل بحسن النيّة (هابرماس، ١٩٧٩، ص ٣). فيما يلي تلخيص أركان تلك التداوليّة ومكوناتها:

أسس الصدق	مجاله	نوع التواصل	وظيفة اللغة
الحقيقة	العالم الخارجي	معرفي موضوعي	تمثيل الواقع وتبادل المعرفة
الأمانة	المتكلم أو منتج الخطاب–الذات المشاركة في التواصل	تعبيري ذاتي	البوح بما يشعر به المتكلم وبما يعتقد
الملاءمة	المجتمع/الجماعة	تفاعلي توافقي	تأسيس علاقات اجتماعية مقبولة بما يحقق انسجام القيم والمواقف

أركان التداوليّة العامّة ومكوناتها

نقلاً عن هابرماس (١٩٧٩، ص ص ٢٨-٢٩، ٦٨)

الركن الأول من أركان تلك التداولية -الحقيقة- هو الوظيفة التصويرية الوصفية ideational في نسق هاليداي، وهو التقرير في نسق أوستن وسيرل، وهو الخبر في البلاغة العربية. أمّا الركن الثاني -الأمانة أو الإخلاص- فجزء من الوظيفة التفاعلية التواصلية Interpersonal في نسق هاليداي. وهو يناظر ضرورات الصدق والنجاعة في نظرية أفعال اللغة عند أوستن وسيرل. كما يرد في غير هذا الموضع. ينتظم الركن الثالث في التداولية العامة -وهو المواءمة- خصائص الأجناس الخطابية، والضرورات والقواعد الاجتماعية التي تحيط بالخطاب. وهو شرط من شروط النصية، أو النصوصية، في لغويات النص.

كيف يتحقق للخطاب صدقه ونجاعته؟ من خلال الإحالة إلى حقائق قابلة للملاحظة أو الاختبار في العالم الخارجي، ومن خلال ما ينشأ بين منتج الخطاب ومستقبله من ثقة وألفة وتفاهم، ومن خلال الالتزام بالأعراف التواصلية الاجتماعيّة التي نجدها تحت مسميات التقاليد الأدبية، أو أدب الحوار، أو الأجناس الخطابية، وغير ذلك، مما يحقق التفاهم بين طرفي الحوار أو الخطاب مما يرد في هذا التبسيط في معرض الحديث عن شروط النصية، والمبدأ التعاوني، واللياقة والكياسة.

وكيف يحقق المتكلم أو الكاتب غاياته البلاغيّة التواصليّة، ويدافع عن موقفه أو مواقفه وتوجّهاته، وينقل ما يريد من معنى؟

لا بد أن يكون ما يُقال أو يُكتب قابلاً للفهم، وأن يتسم بالصدق، وأن يعبّر عن مقاصد المتكلم أو الكاتب، وأن يتأسس نوع من الفهم المشترك بين المتكلم أو الكاتب والمتلقي، أو بين أطراف الخطاب (هابرماس، ١٩٧٩، ص ٤).

وحتى تتحقق للتواصل غاياته، هناك مجموعة من الافتراضات التي يجب أن يقبلها المشاركون في الخطاب، أو يسعوا إلى تحقيقها، ومنها أنهما أو أنهم يستخدمون نفس العلامات اللغوية بنفس الطريقة وبنفس المعنى. وأنّ للجميع حقّ المشاركة والتفاعل. وأنّ الفضل لا يكون إلا للحجة القوية. وأنّ الجميع حريصون على تحقيق التفاهم. وأنّ كلّ ما يُقال يمكن أن يخضع للتفنيد والمساءلة.

التداوليّة المُقارنة

توقفنا فيما سبق عند جملة من مبادئ تداوليّة منها مبدأ الكياسة في ثلاث أطروحات متمايزة، على ما فيها من تشابه، والمبدأ التعاوني، وما يتصل بهما من تضمين، وانتهاك، وتجاوز، وما تستند إليه التداوليّة في جملتها من تصنيف أفعال اللغة أو الكلام وشروط نجاعتها وفق تصورات أوستن ومن بعده سيرل.

لم نتوقف طويلا فيما سبق من هذا التبسيط عند حقيقة أساسيّة مهمّة، ألا وهي أن تلك المبادئ والقواعد التداوليّة تختلف في تجليّاتها من لغة إلى لغة، ومن ثقافة إلى ثقافة، ومن موقف إلى موقف، بما في ذلك من يشارك في الموقف من شخوص أو شخصيات. هذا التباين هو موضوع التداوليّة المقارنة أو التقابليّة contrastive pragmatics أو cross-cultural pragmatics أو continental pragmatics – وهي تهتمُّ بالكلام والحوار - وما يتصل بها من بلاغة مقارنة contrastive rhetoric – وهي تنشغل بالكتابة، والتداوليّة بين تدوالبتين interlanguage pragmatics، وتتناول أساليب التعبير التي يستخدمها من يتعلم لغة أجنبية حيث تختلط فيها تداوليته التي درج عليها والتداولية الجديدة التي ترتبط باللغة الجديدة (على سبيل المثال كاسبر وبلوم كولكا Kasper and Blum-Kulka، ١٩٩٣).

أين يقع الاختلاف والتباين في تداول اللغة بين الثقافات المختلفة؟

فيما يلي بيان بعض مواضع التباين، تأسيسا على شرح بوهل Pohl (٢٠٠٤)، بكثير من التصرّف والتوضيح:

- الميول الذهنية وعادات التفكير mental sets:

كيف يفسّر الضيف سلوك مضيّفه حين يلحّ في دعوته إلى الطعام أو إلى القهوة؟ كيف نفكّر؟ وكيف نفسّر ما يقع حولنا من أحداث؟ كيف يتشكّل سلوكنا اللغوي من

خلال طرائق تفكيرنا؟ كيف نفسّر تبسّم أحدهم بينما يستمع إلى ما نقـول؟ لا بـدّ أنّ طرائق تفسيرنا ما يحدث لنا وحولنا تؤثّر في ردود أفعالنا اللغوية وغير اللغوية.

- الأنساق والتصورات، أو المخططات، الذهنيّة المسبّقة أو الجـاهزة schemata عن الأشياء والموجودات والأماكن ومما تتشكّل. ومن ذلك تصوّر المرء عن هيئـة أو مظهر المدرسة، ومعنى العطلة أو الإجازة. لا بدّ أن يكـون لهـذه التصـورات عـن المقام، ومن عناصره المكان، تأثيرها فيما يحدث فيه من سلوك لغوي.
- التصورات، أو السيناريوهات، الذهنيّة المسبّقة scripts عن الأحداث ومكوّناتها وتتابعها، ومن ذلك التسوّق، أو مراجعة الطبيب، أو الاتصال لحجز موعد مـع مـدير شركة أو إدارة، وما يصاحب كلّ ذلك من أفعال لغوية.
- الأحداث التواصليّة speech events والأغراض اللغوية، وكيف تتحقّق مـن خلال تتابع أفعال اللغة.

من ذلك على سبيل المثال الاعتذار apology وما يشتمل عليه من تأسّف وإقـرار بالخطأ ثم تبريره، إذا كان هناك ما يبرّره، ثم التعهّد ألا يقع الخطأ مرة أخـرى. مـن هنا تتجاوز الأحداث التواصلية أو الأغراض اللغوية، من اعتذار، وطلـب، وشـكوى، وإطراء، وغير ذلك، مجرّد الأفعال الكلاميّة المنفردة إلى مجموعة من الأفعال الكلامية التي تنتظم وفق أعراف تداوليّة تحكمها الثقافات التي تحيط بها.

- الأعراف الاجتماعيّة الثقافيّة socio-cultural norms التي تحدّد ما يليق وما لا يليق في الكلام والحوار، وتبادل الأدوار، والسكوت، ورفع الصوت، وما إلى ذلك.
- الكياسة واللباقة، وقد تقدّم الكلام عن ذلك، وما يحدّدهما من الألفة solidarity أو التباعد distance بين المشاركين في الحوار، وما لكلّ منهم من نفوذ أو سلطة، أو مكانة.

كلّ ما سبق من عناصر يتباين من لغة إلى لغة، ومن ثقافة إلى ثقافة، ومـن موقـف إلى موقف، ومن هنا ينشأ التباين في السلوك التداولي. إذا جاز التعبير. فـإذا كـان الشكر أو التعبير عن الامتنان غرضاً لغوياً إنسانياً عاماً، فإنّ الطريقة التي تعبّر بهـا

كل لغة وكل ثقافة عن ذلك تختلف عن الطريقة التي تعبّر بها لغة أخرى في ثقافة أخرى عن نفس الغرض. وقد ظلت التداولية التقليدية رهن الانحياز للأنساق اللغوية والثقافية الانجلوأمريكية، حتى تطورت التداولية المقارنة، بين سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، وهي تنطلق من التسليم بالفروق الجوهرية بين الثقافات المختلفة في إنتاج أفعال الكلام أو اللغة وتلقيها، وفي تطبيق أو انتهاك المبدأ التعاوني، وفي سلوك الكياسة والتأدب، وغير ذلك من جوانب التداولية. لا سبيل إلى حصر الدراسات التي تتناول الفروق الثقافية في تحقيق الأغراض التواصلية من شكر، وشكوى، وطلب، وإطراء، واعتذار، وتعزية، وتهنئة، ولوم، وغير ذلك. غير أنّ جلّ تلك الدراسات تقع في شرك الاحتكام إلى الأنساق اللغوية الانجلوأمريكية، وتطبيق النظريات التي تنطلق من تلك الأنساق، دون مراجعة أو تفنيد، واختزال ما يُلاحظ من تعابير لغوية وأساليب تداولية، قد تدعو إلى أعادة النظر، حتى تندرج تحت النماذج الغربية.

حين يحدث التلاقي بين لغتين، ومن ثمّ ثقافتين، تتبدى تلك الفروق التداولية، وقد ينجم عنها سوء فهم أو ارتباك حين يحاول طرفٌ من الطرفين أن يفرض أنساقه اللغوية التداولية على الطرف الثاني، وحين يجهل طرفٌ عادات غيره التداوليّة. وهذا بعض ما يشتمل عليه مصطلح pragmatic failure (توماس Thomas ١٩٨٥). وقد يقع الاختزال، فيتبنى الجميع تداولية الأقوياء، فتصبح المعيار والنموذج الذي يجب أن يُحتذى. ولا تخلو تلك المواجهات بين الثقافات من الطرافة. على سبيل التمثيل لا الحصر، في مقام الإطراء ربّما يبدي غربيٌّ اعجابه بساعة يد يضعها محدثه العربيّ، فلا يكون من الأخير إلا أن يقدمها إليه، ويدعوه أن يأخذها. لو لم يكن الغربيّ على دراية ببعض العادات اللغوية التداولية العربيّة، لحسب أنّ الدعوة صادقة جادّة – ولعلها كذلك في بعض المواقف. وربما يخطئ عربيّ تعوّد "الرسميات" مخاطبة زميلة غربيّة إياه باسمه الأول، فيظنها حبًا أو ألفة تنمو، وما هي كذلك.

لا تقتصر تلك التباينات على الأفعال اللغوية المفردة أو التعبيرات والجمل، بل تتجاوزها إلى العادات التداولية، من قبيل تجنب الرفض والإجابة بـ"لا أعلم"، وغير ذلك، وإلى أساليب التعبير الكبرى، وما قد تشتمل عليه من مباشرة أو مداراة، ومن

تكرار، واستطراد، أو اقتضاب، وخروج عن الموضوع، أو التزام به، وما إلى ذلك من أساليب تداولية.

تقع تلك التباينات، ومن ثمّ المفارقات، كذلك على مستوى التعابير غير اللفظيّة، من لمس، وإيماء، وحركات، وإشارات، وتبسّم وضحك، واقتراب أو تباعد، وهمس، ونظرات، وما إليها. من ذلك أن الصمت لا يعني الرضا في كل حال. كما يرد في غير هذا الموضع، ولا الإيماء بالرأس، بما يفيد الموافقة في ثقافتنا العربيّة، له نفس المعنى في غيرها من ثقافات، وليس وضع الساق على الساق في حضرة من يكبرنا فعلاً غير لائق في كل الثقافات، ولا خلع الحذاء عند دخول منزل مضيف ضرورة أخلاقيّة في كل المناسبات أو الثقافات.

وليس بمستغرب، والحال هكذا في الكلام والإشارة، أن يقع التباين في أساليب الكتابة وطرائقها وأدواتها من لغة إلى لغة، ومن ثقافة إلى أخرى، وهذا هو مدار انشغال البلاغة المقارنة أو التقابلية كما سلف. تبلورت تلك البلاغة في نسختها الغربية تأسيساً على دراسة كابلان Kaplan (١٩٦٦) المهمّة، والتي تتناول أساليب الكتابة في ثقافات مختلفة، منها ما يسير في خط مستقيم، ومنها ما يناور ويداور حتى يصل إلى غايته البلاغية، ومنها ما بين ذلك. تبقى تلك البلاغة، بعد مرور ما يقارب نصف قرن منذ نشر كابلان دراسته التي تتخذ من أسلوب الكتابة الأمريكي معياراً للحكم على غيره، موضوعاً ثريّاً، على أن تتجاوز التصنيفات الجاهزة في تناولها أساليب الكتابة وبلاغتها في المكاتبات والرسائل العلمية، وما تشتمل عليه من محاجّة، ومقدمات الكتب، وغير ذلك من أجناس تحريرية.

وليس بمستغرب كذلك أن يقع في الكتابة ما يقع في الكلام من انتقال transfer الأساليب البلاغية من اللغة الأمّ إلى اللغة الثانية، أو الأجنبيّة، وتشكّل ما يسمى تداولية بين تداوليتين، لا هي تداولية اللغة الأمّ، ولا هي تداولية اللغة الجديدة التي يقبل الطلاب والدارسون على تعلمها. من ذلك ما يمكن أن يصدر عن متعلم عربيّ في ردّه الإعجاب بهاتفه المتحرك باللغة الإنجليزية قائلاً "Please take it" – مفردات

إنجليزية ونحو إنجليزي، لكنّ الدعوة عربيّة. إذا ظلّ المتعلم على هذا الارتباك، ولم يتقن التنقل بين اللغتين والتداوليتين، كان كالغراب الذي أراد أن يدرج كالحجلة في كتيلة ونمنة. ليس من صالح أحد أن يتمّ إقصاء إحدى اللغتين لصالح الأخرى. ولا أن تصبح اللغات جميعا نسخا شائهة من لغة كالإنجليزية. لكنّ من صالح الجميع احترام عادات الآخرين اللغويّة والتداوليّة، والوعي بالفروق الثقافيّة بين البشر بما يضمن التفهم، وحسن الظنّ، وتجنّب الضرر.

يبقى أن نعرّج على بعض ما يُناط بدراسات الترجمة وهي تتناول الأساليب البلاغيّة والتداوليّة المختلفة. (وهل الترجمة الجميلة الأمينة إلا مهارة وقدرة على التنقل بين تلك الأساليب، وما يحملها من مفردات وتراكيب بما يناسب السياق؟) من الأهمية بمكان أن تتناول تلك الدراسات علاقات القوة والهيمنة والأيديولوجيا في النصّ الأصلي، وتحوّلاتها في النصّ المترجم. كيف تنتقل علاقات القوة والتأثير من الأصل إلى الترجمة؟ هل يبقى الفاعل فاعلا، والمنفعل منفعلا، والمفعول به مفعولا به؟ هل يبقى القاتل قاتلا، والضحية ضحية؟ هل نُترجم"John killed Mary" إلى"جون قتل ماري"، أم"لقيت ماري حتفها"، أم"قُتلت ماري"؟ وما دلالة ذلك على غايات الترجمة، وسياقها، والعوامل المؤثرة فيها؟ وكيف نترجم وجهة نظر النصّ الأصلي ومؤلفه؟ هل يبقى التهكم تهكما، والسخرية سخرية، والنقد نقدا، أم يتجمّل النصّ في الترجمة؟ وما هو حظ الترجمة من اليقين بالنسبة إلى الأصل؟ هل تظلّ أفعال الكلام على حالها في الترجمة، فيبقى الطلب طلبا، والأمر أمرا، والنهي نهيا، والخبر خبرا، والحكم حكما؟ أين مباشرة"افتح الباب" من مداراة" Would you please open the door?" وتلطفها؟ وأين كياسة"ممكن لو سمحت تسكت؟" من فظاظة "Shut up!" ، وهل تترتب على"أنا أعلنكما زوجا وزوجة" في الثقافة العربية نفس الحقوق والواجبات التي تترتب على"I declare you man and wife" في الثقافة الإنجليزية؟ وهذا كله غيضٌ من فيض الأسئلة الممكنة في تفصيل بعض ما تستطيع دراسات الترجمة أن تفعل في سياق التداوليّة.

مثل: أوباما في القاهرة

"شكرا جزيلا. وطاب عصركم. إنه لمن دواعي شرفي أن أزور مدينة القاهرة الأزلية حيث تستضيفني فيها مؤسستان مرموقتان للغاية. احداهما الأزهر الذي بقي لأكثر من ألف سنة منارة العلوم الإسلامية، بينما كانت جامعة القاهرة على مدى أكثر من قرن بمثابة منهل من مناهل التقدم في مصر. ومعا تمثلان حسن الاتساق والانسجام ما بين التقاليد والتقدم. وانني ممتن لكم لحسن ضيافتكم ولحفاوة شعب مصر. كما أنني فخور بنقل أطيب مشاعر الشعب الامريكي لكم مقرونة بتحية السلام من المجتمعات المحلية المسلمة في بلدي: "السلام عليكم". (من خطاب أوباما في جامعة القاهرة، ٤ مايو ٢٠٠٩).

في هذه الترجمة ما يشي بأنَّ من ترجمها، وقد صدرت عن البيت الأبيض، ليس من أهل اللغة العربية، أو أنه قد تركها زمنا ففقده الاحساس بجماليتها، وبلاغتها، و"تداولها" بين الناس في الواقع. من ذلك ما نجد في "طاب عصركم" في ترجمة Good afternoon، وهي تحيّة لا ترد في لهجة من لهجات اللغة العربية – في اللهجات العربية تحايا من قبيل "مساء الخير"، و"أسعد الله مساءك/ مساءكم"، "مسّاكم الله بالخير"، وما شابهها. وفي الترجمة تلازم لفظيّ مُقحم بين "التقاليد والتقدم" – والصواب أن يتلازم "الماضي والحاضر"، و"القديم والجديد"، و"الأصالة والمعاصرة"، وهكذا – وتلازم آخر بين "مناهل" و"التقدم" – والصواب أن ننهل من العلم والمعرفة والحكمة – وفيها تعبير ناشز هو "المجتمعات المحلية المسلمة" – والمألوف هو "الجاليات الإسلامية" في الولايات المتحدة – ومفردة ناشزة هي "الأزلية" في وصف القاهرة – والصواب هو "العتيقة"، وما إليها - وفي الترجمة مبالغتان على الأقل في "من دواعي شرفي" و" فخور" - والأصوب في ذلك المقام "يسرني" ويسعدني" وما إليهما.

ترد التداولية وتحليل الخطاب في غير موضع بوصفهما مترادفين، أو مصطلحين مختلفين لمفهوم واتجاه واحد. وترد التداولية أحيانا بوصفها نوعا من تحليل الخطاب. هي بالفعل نوع من تحليل الخطاب، يركز على فعل اللغة، وما يرتبط بها من تضمين، وافتراض، وكياسة، وقواعد تعاونية، ومقاصد، ونوايا، وطرائق تأويل. لكنها تفتقر إلى شمولية تحليل الخطاب، وانشغاله بالنصوص، لا الجمل. في نفس هذا الفلك – فلك تحليل الخطاب - تدور كواكب ونجوم أخرى لا سبيل إلى الإفاضة في شرح تفاصيلها. من اللسانيات البنيوية structural linguistics ومقولات رائدها في الغرب دي سوسير عن اللغة والكلام والعلامة، وعلاقتها بسياقها، وبغيرها من العلامات. إلى دراسات مستويات اللغة، والأسلوب، وتحليل الأنواع الخطابية وفق جنس الخطاب، وغايته، والمشاركين فيه register and genre analysis، إلى دراسة بيئات الكلام والتواصل اللغوي ethnography of speaking،

مصطلح تحليل الخطاب

"مصطلح تحليل الخطاب مصطلح بالغ الغموض. سوف استخدمه في هذا الكتاب بمعنى التحليل اللغوي للخطاب الطبيعي المكتوب أو الشفهي (المنطوق). وعلى سبيل التبسيط، يشير المصطلح إلى محاولات دراسة تنظيم اللغة فيما يتجاوز مستوى الجملة أي على مستوى الوحدات اللغوية الأكبر. كما في المحادثات والنصوص المكتوبة. يعني هذا فيما يعني أنّ تحليل الخطاب يهتم بالسياق الاجتماعي الذي تُستخدم اللغة فيه وخصوصا ما يتصل منه بالتفاعل بين من يستخدمونها" (ستبز Stubbs، ١٩٨٣، ص ١).

والنص

"... نستطيع أن نقول إنّ أي استخدام للغة هو نص – وهو تعريف يظل على سعته محدوداً، لأنّ نصوصا كالبرامج التليفزيونية تتشكل إضافة إلى اللغة التقليدية من مؤثرات صوتية وبصرية. ... أمّا مصطلح الخطاب فيشير إلى اللغة قيد الاستعمال في الواقع بوصفها جزءا من الحياة الاجتماعية يرتبط بغيره من عناصرها ومكوناتها" (فيركلف، ٢٠٠٣، ص ٣).

وكيف يتشكل بها، ومقولات فوكو عن القوة والمعرفة، ومقولات ألتوسير عن النظم والأجهزة الأيديولوجية للدولة ideological state apparatuses، ومقولات بورديو عن العنف الرمزي وأشكال القوة، والمفاهيم التي طورها جوفمان عن ماء الوجه والتأطير framing، وتبدل أحوال المشاركين في الخطاب، وتغير الانتماءات والموقف footing، و"إدارة الانطباعات" أو تشكيلها impression management، ودراسات الشعر في المجتمعات البدائية وعند "أهل البلد" الأصليين، وكذا دراسة التراكيب والصيغ الشعرية التي تتسم بها ثقافة معينة ethnopoetics، إلى الأنثروبولوجيا اللغوية واللغويات الاجتماعية التفاعلية interactional sociolinguistics، وما بعد البنيوية، خصوصا عند باختين - الخيال الحواري dialogic imagination، وتعدد الأصوات polyphony في الخطاب - إلى علم العلامات semiotics، والدراسات الثقافية cultural studies.

ليس من غايات هذا التبسيط شرح تحليل الخطاب Discourse Analysis أو مراجعة نشأته وتاريخ وتطوره، ولا استقصاء أصوله الفلسفية واللغوية، لأن موضوع التبسيط هو التداولية – التي يراها بعض الباحثين نوعا من أنواع تحليل الخطاب – ولأن في دراسات أخرى غناء وكفاية في تناول أصوله الفلسفية واللغوية وتاريخه (فضل، ١٩٩٢). غاية هذا الجزء من تبسيط التداولية هو عرض بعض أدوات تحليل الخطاب ومقولاته ومفاهيمه، تأسيسا لمناقشة التحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي.

ولا سبيل إلى فض الاشتباك بين تحليل الخطاب من ناحية، وتحليل النص أو لغويات النص Text Linguistics وتحليل الحوار أو المحادثة Conversation Analysis من الناحية الأخرى، لأنها تلتقي جميعا في غير موضع، وتنطلق من نفس الانشغال بالسياق والجوانب الدلالية ووظائف اللغة، وتتجاوز حدود المفردة

والعبارة والجملة إلى ما يتشكل منه الخطاب أو النص - الذي يشمل من وجهة نظر تحليل الخطاب كلّ ما هو مكتوب أو شفهي. ويقتصر على الحوارات والمحادثات المنطوقة في تحليل المحادثة، وينطلق من النصوص المكتوبة لكن لا يتوقف عندها في تحليل النص. في قليل من المقاربات اللغوية، نجد تعارضا بين الخطاب discourse والنص text، لكنّ الأول لا يقتصر، كما رأينا، على ما هو منطوق، ولا يقتصر الثاني على ما هو مكتوب.

في تحليل الخطاب وتحليل النصّ، يبرز مفهومان تتباين ترجمتهما في اللغة العربية، وهما مفهوم cohesion ومفهوم coherence. سوف يجد من يطالع ما كُتب في هذا الصدد باللغة العربية عددا مُربكا من الترجمات من قبيل "الانسجام" و"الترابط" و"التجانس" و"الاتساق". على سبيل التبسيط، يشير المصطلح الأول إلى ترابط المبنى، أو الوحدات النحوية (الشكل)، والثاني إلى ترابط المعنى أو الأفكار (المضمون). فإذا قلنا "ذهب الولد إلى المدرسة. التقى زملاء صفه وحيّاهم" فنحن إزاء نصٍّ، على قصره وربّما افتعاله، يتسم بالترابط والوحدة العضوية - ولنستقر من الآن على "السبك" والحبك" تفاديا للالتباس والارتباك، حيث يرى بعض الدارسين العرب، ومنهم مرابعة (٢٠٠٧)، أنّ للمصطلحين جذورا في البلاغة العربية. وهما على كل حال مصطلحان رشيقان معبّران. في النص القصير السابق، ترتبط الجملة الثانية بالأولى من خلال الضمير المتصل في "صفّه" والذي يعود على "الولد". ومن خلال العلاقة الدلالية، علاقة الكلّ بالجزء، بين "المدرسة" و"صفّه" - هذا بالاضافة إلى السبك في كلّ من الجملتين على حدة.

ليس السبك والحبك كل ما في تحليل الخطاب أو تحليل النص من جوانب مهمّة - فهما يستخدمان مجمل الأدوات التحليلية ومنها التضمين، والافتراض المسبق، وأفعال اللغة، والمبدأ التعاوني، كما يرد تفصيل ذلك في الحديث عن التحليل النقدي للخطاب - لكنهما مفهومان محوريّان في كل الاتجاهات الوظيفية كما يرد لاحقا. وكم يعيب النقاد وكم عابوا - على الأقل قبل الحداثة وما بعد الحداثة - على الشعراء افتقاد

بعض قصائدهم الوحدة العضوية، وكم شكا المدرسون ويشكون افتقاد ما يكتب تلاميذهم الترابط و"التسلسل المنطقي"، وكم شكا الممتحنون ويشكون افتقاد أطروحات طلابهم الانتقال المنطقي المبرَّر من جزء إلى آخر. وكم يشكو الجميع اليوم ما تحفل به الكتابة العربية الصحفية من واوات عطف لا تعطف، وفواصل لا تفصل، وجمل تتراصّ دون مبرِّر أو منطق، ودون فواصل أو وقفات – وعلى المتضررين إن شاءوا أن يتكفلوا بسبك النصّ وحبكه بطرقهم الخاصة!

ولأنّ السبك من أشراط الخطاب والنصّ، فقد خصّه هاليداي ورقية حسن بكتاب كامل (١٩٧٦) أصبح مرجعا لا يستغني عنه الدارسون في تحليل الخطاب وما يرتبط به من اتجاهات تداولية ووظيفية. فيما يلي تبسيط بعض ما ورد في الكتاب من صنوف السبك، وأمثلة توضحها من اللغة العربية. وطالما أنّ الغاية هي التبسيط فلا ينبغي أن نتوقّع تعبيرات من قبيل "إشارة إكسوفورية"، أو "خارجية"، أو "خارجة" في ترجمة exophoric مثلاً، أو تعبيرات من قبيل "الأنفرة"، أو "الإشارة المرتدة"، أو "الرجعة" في ترجمة anaphora، حتى لو كان ثمن التبسيط ترجمة كلمة واحدة إلى عبارة أو جملة.

§ طرائق السبك وأدواته

١. الإشارة reference

أ - إلى خارج النص exophoric :

على سبيل التمثيل: "ضع الكتاب على هذه الطاولة"، و"تلك السماء الصافية".

ب - إلى داخل النص endophoric:

- إلى ما سبق anaphora – على سبيل التمثيل: "كما ورد في هذا الكتاب من قبل"، "في الفقرة السابقة كلام عن السبك"، "ذهب الولد إلى المدرسة. التقى زملاءه وحيّاهم". "بعض ما قلت عار من الصدق". وكما يشير الهامش إلى المتن.

- إلى ما يلي cataphora – على سبيل التمثيل:"في الجزء التالي، نتناول لغويات النص وتحليلة"، "أجب عن السؤال الآتي"، "قرأنا ما هو آت"، "في الفصل الثاني، تتناول الرسالة أدبيات الخطاب الإعلامي بالمراجعة والنقد". وكما يشير العنوان إلى النص.

٢. الاستبدال substitution

على سبيل التمثيل: "هاتان الروايتان لك؟ أعرني واحدة!"، "هل كتبت التقرير؟ فعلته فعل"، "اختلف الأصدقاء، فقال أحدهم: لا بد أن نحتكم إلى طرف محايد".

٣. الحذف ellipsis

على سبيل التمثيل:"ما اسمك؟ أحمد"، وتقدير الكلام "اسمي أحمد". و"أنا اسمي أحمد". و"تكرما افتح الباب"، وتقدير الكلام "افتح أنت الباب". و"عم". وأصلها" عن ما أو ماذا". و"كيف حالك؟ بخير"، والأصل "أنا بخير". ويكون الحذف لتجنب الإطالة، وربما لأن المحذوف معلوم من السياق اللغوي وغير اللغوي. وربما للاحتراز، أو خشية ذوي السلطان. وغير ذلك من مبررات.

٤. الربط conjunction

على سبيل التمثيل:"و" العطف والحال والمفعول معه. و"لكن". و"بل". و"من ثم". و"على ذلك". و"غير أن"، و"أو"، و"ف" التعاقب والسببية. و"عندئذ". و"حينئذ". وما شابههما، و"سوى"، و"حتى"، و"كي"، و"أن"، و"إن"، و"ل" التعليل والجحود والسببية. و"من"، و"أينما"، و"حيثما"، و"متى"، و"أنى"، و"لو"، و"مذ"، و"منذ". القائمة طويلة، ولا سبيل إلى حصرها هنا.

٥. السبك الدلالي lexical cohesion

ومن ذلك التكرار، والتلازم الدلالي، والجناس، والترادف، والطباق. والحقول الدلالية: "السرور"، و"البهجة"، و"السعادة"، و"الحبور"، و"الفرح" (ترادف). و"الخير والشر".

و"الفضيلة والرذيلة"، و"الأفراح والاتراح"، و"اليأس والامل"، و"البداية والنهاية"، و"الأبيض والأسود"، وما بينهما، و"يفعل ولا يفعل" و"محور الشر ومحور الخير" (طباق). و"البحر والمحيط والنهر والمضيق والخليج"، و"الشمس والقمر والسماء والنجوم"، و"القلم والقرطاس والريشة والحبر والطابعة" (حقول دلالية).

ماذا تفعل أدوات وطرائق السبك تلك في النص؟ فلنتخيل نصا عربيا يخلو منها جميعا. أو فلنتخيل نصا آخر ليس فيه من رابط إلا "واو" العطف. ليست طرائق السبك وأدواته إذن مجرد حشو، بل هي التي تخلّص الخطاب من الرتابة، وتضفي عليه التماسك، وتعين المتلقي على التعامل معه بوصفها علامات طريق.

لكنّ علينا أن نمارس ما نستطيع من حذر في قراءة تلك الأدوات والروابط - خصوصا ونحن نعاين نضج التحليل النقدي للخطاب وتحليل الخطاب السياسي. وقد وردت في غير هذا الموضع أمثلة لما يمكن أن تفعل حروف الجر. وما يمكن أن تنقل الاشارة من تصورات عن العالم، وعن الأنا والآخر وما بينهما من نفور أو تجاذب، وقرب أو بعد. ماذا نقرأ في أداة الربط في جملة كهذه: "إنه فقير، لكنه يعيش في سعادة دائمة"؟ لعلنا نلحظ تعارضا بين الفقر والسعادة، وتضمينا مفاده أنّ الغنى لا الفقر هو السبب الطبيعي للسعادة، وأنّ حالة الشخص الذي تشير إليه الجملة مجرد استثناء من القاعدة.

مزالق ومحاذير

أحيانا يصبح تحليل الخطاب نوعا من شرح النصوص أو تلخيصها دون تفسير أو تأويل، وأحيانا يقتصر على مجرد مثل من هنا وآخر من هناك لتأكيد ملاحظة أو فرضية، دون محاولة لاكتشاف الأنساق الكبرى والظواهر الدالة في الخطاب. وربما يعيب التحليل الانحياز المسبق الى وجهة نظر أو تفسير - أو الاكتفاء على نموذج أو نظرية لا تصلح للتعامل مع ما يتناوله التحليل من نصوص. وقد يعيب دراسات تحليل الخطاب أن تكتظ بالاقتباسات المطولة من النصوص موضوع التحليل دون مبرر أو تفسير. وقد تقع بعض دراسات تحليل الخطاب في شرك التعميم والاعتقاد بأنّ ما يصدق على سياق يصدق على غيره. هذا بعض ما يمكن أن يقع فيه تحليل الخطاب من مزالق. نجد شرح هذه الأخطاء وتوضيحها بالأمثال في دراسة تشارلز أنتاكي Antaki وآخرين (٢٠٠٣).

وفي موضع آخر، يرد حديث عن الثنائيات التي يحفل بها الخطاب السياسي المعاصر، خصوصا تحت تأثير مقولة صراع الحضارات/ الثقافات. وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، والحرب على أفغانستان، وغزو العراق. في ترسيخ هذه الثنائيات تحتشد مفردات الخير، والعدل، والحرية، والسلام، والديموقراطية. في طباق حتمي مع مفردات الإرهاب، والتطرف، والقمع. وتحتشد مفردات الجهاد، والاستشهاد، والمقاومة. في طباق آخر مع مفردات وعبارات الاستعمار، والحروب الصليبية، والغرب المتحرز، والانحياز، والكيل بمكيالين. وحين نقرأ في سياق مغاير تقريرا لخباريا عن "غرق عبارة لأنّ المسافرين لم يتحلوا بالصبر وتدافعوا حتى تجاوزت العبارة حمولتها الطبيعية"، فلا ينبغي أن نكتفي بحصر الروابط وتصنيفها إلى روابط سببية، لأنّ الأسباب الحقيقية ربما تختلف عما ورد بعد "لأنّ" وقبل "حتىّ" ولم يكن للمسافرين من يد في غرق العبارة. وحين يداهمنا إعلانٌ تجاريٌ بتعبير محكم من قبيل "ابتسم للحياة ... ابتسم لـ ... (اسم المنتج)". فلا ينبغي أن يكون مبلغنا من التحليل مجرد رصد التكرار – تكرار فعل الأمر وتكرار البنية النحوية التي تتكوّن من فعل الأمر والفاعل المستتر والجار والمجرور، لأن التكرار هو الذي يحقق بلاغة هذا النصّ. وينقل رسالته. وهي أنّ المنتج المعلن عنه هو الحياة والحياة هي هو. ولا حياة للمستهلك المستتر في الجملة، المستهدف في الواقع، بدون هذا المنتج. من هنا، لم يعد كافيا بحال من الأحوال عند تحليل السبك في نصّ سياسيّ أو إعلاميّ أن نكتفي بحصر الأمثلة وتصنيفها، وأنّ نشعر بالرضا حين نجد في النصّ مثلا أو مثلين لكل فئة من فئات السبك كما حددها هاليداي ورقية حسن. لا مفرّ من إعادة قراءة أدوات السبك وطرائقه في ضوء مقولات ومفاهيم تحليل الخطاب السياسي والتحليل النقدي التي ترد مناقشتها فيما بعد.

نفس هذا الحذر ينبغي أن نتحلى به ونحن نتناول الحبك. وهو قرين السبك الذي لا ينفصل عنه – إلا لغايات بلاغية خاصة – من منطلق ما تردد في فيلم سينمائي مصري معاصر على لسان أستاذ التمثيل حتى أصبح مثار سخرية طلابه وطالباته.

وهو أنّ "الشكل والمضمون وجهان لعملة واحدة"، "الملك والكتابة". وقد تقدّم أنّ الحبك هو ترابط المعنى وانسجامه، في علاقات سببية، أو تفسيرية، أو تمثيلية، أو علاقات تعارض، أو مقارنة بين الجُمل، أو الانتقال من الخاصّ إلى العامّ، ومن العامّ إلى الخاصّ. وعلى نطاق أرحب، يتجلّى التأكيد على الحبك في توقّع الوحدة العضوية في النصّ الشعري منذ كانت القصيدة الجاهلية تشتمل على الوقوف على الأطلال، ثم ذكر الرحلة، وبلوغ الحبيبة، ثم بعض الحكمة والنّصح، إلى أن تبلورت مفاهيم البناء الروائي والقصصي التقليدي الذي ينتظم وصف المكان، وتحديد الزمان، وتقديم الشخصيات، ثم تصاعد الأحداث إلى نقطة تصادم أو كشف، ثمّ الزواج أو البراءة أو غير ذلك من النهايات السعيدة التي لم تعد لا هي، ولا خطيّة الزمن من بداية إلى وسط إلى نهاية، ولا الوصف التقليدي للمكان - وقد اختلط الواقعي بالغرائبي والخيالي والأسطوري، واختلط الوعي باللاوعي - من سمات السرد المعاصر.

ونجد التأكيد على الحبك كذلك في تعاليم التسلسل المنطقي، وكتابة المقالة الدراسية من مقدمة، ووسط، وخاتمة، مع ما يلزم من أمثلة توضيحيّة، وتعليلات، ومقارنات، وإرشادات كتابة البحوث العلمية، والمقالات، والأخبار الصحفية. كلما تطوّر جنس خطابي جديد، تبلورت معه طرائق الحبك الملائمة له. حتى إذا استقرت، شرعت فئة من الكتاب والمبدعين في الخروج عليها رغبة في تحقيق غايات بلاغية جديدة، وانسجاما مع سياقات وظروف تاريخية متغيرة، لأنّ المقدّمات اليوم لا تصل بنا إلى النتائج بنفس السهولة والثقة التي كانت تصل بها في الماضي (ليس كلُّ من يزرع اليوم يحصد، ولا كلّ من يحصل على "شهادة جامعية" يجد وظيفة. وليس "فلانٌ" مفكرا، من منطلق أنّه إنسان، وأنّ كلّ إنسان بطبعه مفكر)، حتى تتماهى الحدود بين الأجناس الخطابية، وتتداخل الأنواع، وتتطوّر أجناس خطابية جديدة، في انتظار من يغامر بالخروج على قواعدها.

ولأنّ للسبك والحبك هذه الأهمية والتأثير، انتقلا من تحليل الخطاب إلى لغويات النص التي يرى باحثون، من أمثال روبرت دي بوجراند de Beaugrande، أنها يجب أن تشغل أول ما تشغل بشروط النصيّة، أو النصوصية، textuality وضروراتها – على معنى ما ينبغي أن يتحقق في مجموعة من الجمل أو التراكيب اللغوية حتى تستحق أن تُسمّى نصاً.

وقد ألف دي بوجراند ودريسلر Dressler كتابا كاملا (١٩٨١) لمناقشة شروط النصيّة بعد مراجعة مهمة لنشأة وتطور علم لغة النصّ أو لغويات النص. فيما يلي شرح وتبسيط هذه الشروط – ما عدا السبك والحبك فقد تقدّم الكلام عنهما – وتوضيحها بالأمثلة، ونماذج مما يتردد من ترجمتها إلى اللغة العربية.

١. التضامّ والتماسك والسبك cohesion:

"المشكلة هي أنت بالضبط يا حضرة الصاغ. لا ينفع في هذه الدنيا أن تكون نصف طيب ونصف شرير، نصف وطني ونصف خائن، نصف شجاع ونصف جبان، نصف مؤمن ونصف عاشق، دائما في منتصف شيء ما" (بهاء طاهر: واحة الغروب، ص ٢٠٢). في هذا الاقتباس يتحدث "محمود" إلى نفسه، وقد أخرجها، وفصلها عن نفسه في لحظة وعي ومحاسبة، حيث تشي الإشارة وصيغة المخاطبة بهذه المسافة التي يبتعدها "المتكلم" عن "المخاطب" –مع أنهما واحد– ويتضافر الطباق بين الجميل والقبيح في نفس المتكلم المخاطب والترادف بين جوانب القبح وبين جوانب الجمال فيها للتعبير عن روح ممزقة، وذات منفصمة، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فكيف يقرّ لها قرار؟

٢. التقارن والتناسق والحبك coherence:

"قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل. فاضرب لي مثلاً في شأن الذي يضع المعروف في غير موضعه، ويرجو الشكر عليه. قال الفيلسوف: أيها الملك إن طبائع الخلق مختلفة. وليس مما خلقه الله في الدنيا مما يمشي على أربع أو على

رجلين أو يطير بجناحين شيء هو أفضل من الإنسان. ولكن من الناس البر والفاجر. وقد يكون في بعض البهائم والسباع والطير ما هو أوفى منه ذمة. وتشد محاماة على حرمه، وأشكر للمعروف، وأقوم به، وحينئذ يجب على ذوي العقل من الملوك وغيرهم أن يضعوا معروفهم مواضعه، ولا يضعوه عند من لا يحتمله ولا يقوم بشكره ..." (ابن المقفع: كليلة ودمنة، باب السائح والصائغ). في كتاب كليلة ودمنة طبقات متداخلة ومتراكبة من السرد، بحيث تحتوي القصة الإطار. قصة الملك والفيلسوف، مبررا للقصة التي يرويها الفيلسوف، وهو النزول على رغبة الملك والاجابة عن سؤاله. وتتوالد القصة من القصة، وفي كل مرة نجد في الثانية تبريرا منطقيا للأولى، وفي الأولى توضيحا لما غمض في الثانية، أو إجابة عن بعض تساؤلاتها. هذا التبرير هو الذي يحفظ للقصص حبكها ومنطقها - هذا بالإضافة إلى انتماء القصص إلى جنس خطابي أثير هو الأمثولة fable، أو الحكاية على لسان الحيوانات، ودخولها في باب النصح والتعليم، وما فيها من مجاز وازدواجية دلالية تتيح المتعة البريئة لمن أرادها، وتتيح الحكمة والفلسفة لمن أرادها. وفي كل مرة ينفتح الباب بما يقول الملك -"قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثلاً" في إشارة بليغة إلى ما سبق وإلى ما يتبع من الحكايات.

٣. القصدية والقصد Intentionality:

وراء كلّ نصٍّ إرادة إنسانية واعية، وغايات مقصودة، وليس ظاهر النص كباطنه. إذا جاز التعبير. فربّما تسأل عن الوقت وأنت تقصد أن توحي إلى ضيفك أن يذهب لأنك مُرهق، أو لديك التزامات وواجبات أخرى مُعطّلة - سواء على ضيفك فهم ما ترمي إليه أم لم يفهم. وقد تقدّم الكلام عن الإنشاء في البلاغة العربيّة، وأفعال اللغة والتضمين، والتأثير، أو المعنى المقصود في التداولية في نسختها الغربيّة. غير أنّ مزيداً من التوضيح لن يضر. ربما نجد في الخطاب ما يشير إلى قصد مُنتجه -"أريد أن أسألك"، "نرجو أن نحيطكم علماً"، "على سبيل الاعتذار" - مع ضرورة توخّي الحذر. لأنّ المقاصد الحقيقية ربما لا تنسجم مع ظاهر الأقوال. كما نعاين في غير

موضع من هذا التبسيط. تفتتح أمامة بنت الحارث وصيّتها ابنتها أم إياس – وهي إحدى روائع النثر العربي التي نكتفي إزاءها في الغالب بالاقتباس أو "سوء الاستعمال" لتحقيق مصالح شخصية ذكورية - بتحديد غاياتها ومقاصدها البلاغية - "تذكرة للغافل ومعونة للعاقل" - والاعتذار عما يمكن أن يقع من سوء الفهم -"إنّ الوصية لو تُركت لفضل أدب، تُركت لذلك منكِ" - وتبرير ما سوف تُقدّم من النصيحة، ناهيك عن الاستمالة والتحبّب والتكريم اللازم -"أي بُنيّة" و"لو أنّ امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها، وشدّة حاجتهما إليها، كنت أغنى الناس عنه" - حتى تؤتي النصيحة ثمارها المرجوّة.

وتختتم أمامة نصيحتها بالدعاء لابنتها، فكيف لا تقبل الابنة أو لا تستمع والنصيحة ما بين تحبُّب وأمنيات طيبة؟ لعلّ أمّ إياس لم تخطئ مقصد والدتها، ولم تجد في النصيحة نوعا من القهر أو الوصاية:"أي بُنيّة: إنّ الوصية لو تُركت لفضل أدب، تُركت لذلك منكِ. ولكنها تذكرةٌ للغافل، ومعونة للعاقل. ولو أنّ امرأةً استغنت عن الزوج لغنى أبويها، وشدّة حاجتهما إليها، كنتِ أغنى الناس عنه. ولكنّ النساء للرجال خُلقن. ولهنّ خُلق الرجال".

الجنس الخطابي لا الأدبي

"لا تستمد اللغة جماليتها من تكوينها الذاتي فقط، أي باعتبارها أصواتاً وتراكيب ومجازات ذات طاقة تأثيرية مباشرة، ولكن أيضا من علاقتها بالجنس الأدبي الذي تذعن له في صوغ أبنيتها، إذ تصبح اللغة بموجب هذه العلاقة في أفق جمالي جديد حيث يعمد المبدع إلى نسج خيوطها واختيار ألوانها وفق ما يقتضيه هذا الإطار من مكونات وثوابت" (مشبال، ٢٠٠١، ص ص ٥١-٥٢).

هذه إشارة مهمة إلى نوع الخطاب وجنسه وتأثيره على اللغة والأسلوب، مع التحفظ اللازم على "الأدبي" وضرورة استبدال "الخطابي" بها، مع ملاحظة أنّ الباء تلحق بالمتروك، كما يرد في غير هذا الموضع، وعلى "المبدع"، لأنّ كلّ استخدام للغة ينتظمه نوع أو أنواع خطابية.

٤. التقبّلية والقبول والتقبّل والمقبولية acceptability:

وهي أن يتوافق النصّ مع توقعات المتلقي – مع ضرورة أن يتحلى المتلقي بالتسامح إزاء النصوص التي تنتهك الحدود النوعيّة والتنظيرات التقليدية، وتخرج عن أفق توقعاته بغرض صياغة توقّعات وخصائص نوعيّة جديدة.

حين نقرأ خبرا صحفيا، نتوقع أن نجد فيه إجابة عن أسئلة يتعلّمها طلاب وطالبات الاعلام -"من؟" و"ما؟" و"متى؟" و"أين؟" و"لماذا؟" و"كيف؟" – كما نجد في هذا الخبر:

"بدأت روضة الياقوت (من؟) في منطقة مصفوت التابعة التابعة لمنطقة عجمان التعليمية (أين؟) بتطبيق مشروع الحافلة المرحة (ما؟) الذي يعتبر الأول من نوعه على مستوى الدولة بدعم مباشر (كيف؟) من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي (من؟) الذي أمر بتوفير الدعم اللازم للمشروع عقب زيارته للمناطق النائية العام الماضي (متى؟)"

(جريدة البيان، ٣٠ مايو ٢٠٠٨، الأقواس والأسئلة ليست في الأصل).

٥. الإعلامية والإعلام والإخبار informativity:

كل نصّ يُخبر بشيء - حتى الكلام "الفارغ" يخبر بشيء عن صاحبه –

وتتفاوت النُّصوص في نوعيّة المعلومات أو الحقائق التي تنقلها من علمية إلى أدبية وصحفية، إلى غير ذلك، وفي نصيبها من الصدق أو الكذب، كما تتباين الحقائق من حقائق طبيعيّة إلى حقائق شعوريّة أو رُوحيّة، فليست "حقائق" الفيزياء مثلا كحقائق الشعر.

ولعلّ من توابع تطوّر التحليل النقدي للغة تناول "الحقيقة" و"البرهان" و"البيّنة" من منطلق أنّها مفاهيم نسبية، تتباين من ثقافة إلى ثقافة، ومن نسق معرفي إلى آخر.

٦. الموقفية والموقف والمناسبة أو الملاءمة situationality:

لكلّ مقام مقال، ولكل حادثة حديث."حكمة بالغة. فما يروق لزيد ربما ينفر عمراً، وما يدركه قوم ربما أعجز آخرين.. فلتؤطر حوارك بالحال من حولك. وتجنب التحديد الواضح عند حوار ذوي الروح الناقدة؛ حتى لا يستعجلوا عليك. وتحفظ خط الرجعة مفتوحا من ورائك.

وقد يتعذر الحوار في أمر ما، لسبب أو لآخر من الظروف الاجتماعية أو السياسية أو غيرها، ولذا كان لزاما على المحاور الفطن أن يقدر للأمر قدره، وأن يزن المصالح والمفاسد، وألا تغلبه شهوة الحديث عن تقدير الموقف..." (طارق الحبيب: "لكل مقام مقال". http://www.asyeh.com ، ٣٠ مايو ٢٠٠٨، بتصرّف يسير)

مصطلح وترجمة

"يمثل مصطلح الموقفية تسمية عامة للعوامل التي تقيم صلة بين النص وبين موقف لواقعة ما سواء أكان موقفا حاضرا أم قابلا للاسترجاع. ونادرا ما تتحقق تأثيرات مقام سياقي معين بدون حدوث التوسط: أي مدى تغذية المرء بمعتقداته وأهدافه الخاصة للنموذج الذي يقيمه الموقف الاتصالي الحالي" (الفقرة الأولى من الفصل الثامن – الموقفية situationality - من ترجمة إلهام أبو غزالة كتاب مدخل في علم لغة النص *Introduction to Text Linguistics* (http://www.beaugrande.com). هذا مثل آخر للكتابة التداولية العربية التي قد لا تصل بالقارئ إلى شيء، على ما فيها من جهد وإخلاص، ربما لإصرارها على الترجمة الحرفية.

٧. النصوصية، والتناصّ، والتضمين intertextuality:

ومن ذلك الترجمة، والاقتباس، وإعادة النشر، والمعارضة، والأسلبة، أي تقليد أسلوب نصّ سابق، والسرقة الأدبية وغير الأدبية، والتلخيص، والتعقيب، والمراجعة."ومن الإهداءات المثيرة إهداء كتبه الكاتب السياسي الراحل 'أحمد بهاء الدين' إلى: 'الرقيب العزيز منير حافظ الذي كان له فضل اختصار الكتاب ليظهر في هذا الحجم الرشيق'.. وذلك بتاريخ ١٩٥٦/٢/١٤، أي في مقتبل رئاسته لتحرير مجلة صباح الخير. وكان

الكتاب: شهر في روسيا صادرا عن دار النديم. ويعتبر هذا الكتاب من أجمل ما كتب بهاء. وفيه يتحدث عن روسيا من الداخل، ويطلق عددا من الأفكار الجديدة أو المعتقدة التي كانت منتشرة آنذاك مثل قوله: 'إنّ روسيا لا تحكمها الوزارة التي يرأسها بولجانين. ولا الجيش الذي يقوده زوكوف، ولا الحزب الشيوعي الذي يتولى خروتشوف منصب سكرتيره العام.. إنّ روسيا تحكمها نظرية!'.. المهم هل كان بهاء صادقا في إهدائه إلى الرقيب .. وأريد أن أنوّه إلى أنّ منير حافظ أصبح فيما بعد مديرا لمكتب شمس بدران" (شعبان يوسف: "إهداءات على الرصيف" جريدة أخبار الأدب، ٢٥ مايو ٢٠٠٨).

1

التَّناص وما إليه

ذهب جيرار جينيت Genette (١٩٩٧) إلى أنّ علاقات النص بنفسه وبغيره من النصوص يمكن تصنيفها إلى ما يلي:

§ التناص Intertextuality (انظر المتن).

§ النص الموازي paratext – المقدمات، والهوامش، والشروحات، والعناوين الرئيسية والفرعية، والمراجع، والإهداءات، وما إليها مما يحيط بالنص.

§ المعمار النصّي، أو الجنس الخطابي architext الذي ينتمي إليه النص.

§ النص الشارح metatext – من ذلك ما نجد في الاقتباس من تقارير السيدة راء.

§ النص اللاحق hyper، وعلاقته بنص سابق hypo، ربما على سبيل المحاكاة الساخرة أو النقض أو المعارضة.

§ النص الفائق hypertext، بمعناه الإلكتروني الذي نجده على صفحات "الشبكة العنكبوتية" أو الإنترنت.

إنّ حديث التناص وما يتصل به حديث يطول، من توظيف النصوص لأغراض اعلانية ترويجية -"عند جهينة الخبر اليقين" (إعلان حليب جهينة) - إلى توظيفها لتحقيق غايات سياسية. إلى "السرقات الأدبية" - ولا بد من اعادة النظر في صفة "الأدبية"، لأنّ السرقة لا يمكن أن تكون "أدبية"، ولأنها تقع في الأدب وفي غيره من أجناس الخطاب. في البلاغة العربية تصنيف طريف لتلك السرقات إلى "نسخ"، و"مسخ"، و"سلخ" - وتعني على الترتيب: سرقة اللفظ والفكرة معاً، وسرقة بعض اللفظ، وسرقة المعنى دون اللفظ. ويتصل بذلك ثمانية أمور هي "الاقتباس" - إعادة إنتاج جزء من نص سابق أو معاصر في نص آخر - و"التضمين" embedding - وهو اقتباس فيه تحوير أو اجتزاء وفق ظروف النص الجديد - و"العقد" versification - وهو نظم النثر - و"الحل" - وهو نثر النظم - و"التلميح" allusion - أي الاشارة إلى مكان أو شخص أو قصة معلومة - والابتداء - أو براعة الاستهلال - والتخلص - الخروج من المقدمة إلى الموضوع - والانتهاء - أو حسن الخاتمة (الهاشمي، ١٩٩٩، ص ص ٣٢٥-٣٣٣). إلى ما سبق. لا بد أن نضيف المحاكاة الساخرة، أو الباروديا parody - محاكاة نص سابق أو معاصر بغرض السخرية منه، أو من مؤلفه، أو من سياقه، أو من بعض ما يتناول النص الجديد، أو من هؤلاء جميعا، كما نجد في الشعر "الحلمنتيشي" في مصر - مثلا - والمعارضات والنقائض.

علاقات بين نصيّة

(١)

"كل قصة بطبيعة الحال مقدمة، فإذا كانت القصة "موباسانية" نسبة إلى الكاتب الفرنسي الشهير جي دو موباسان تطرح المقدمة عناصر حدث يتطور ويتعقد لينفرج في الختام. وإن كانت القصة تنحو منحى الحداثة أو ما بعدها فلا ضرر في أن تكون علاقة المقدمة بالخاتمة غير ظاهرة للعيان، ولا مانع من نهاية مطلقة ومفتوحة. وقصتي؟ لا مقدمة لها سوى خطبة للمؤلفة تفتح فيها باب الكلام. يعقبها سرد الواقعة التي تنتهي بنهاية يمكن ببعض التغاضي وشيء من الحكمة، اعتبارها نهاية سعيدة" (رضوى عاشور: *تقارير السيدة راء*، ٢٠٠١، ص ص ١٧-١٨).

(٢)

الشاعر المعلم

إبراهيم طوقان (١٩٠٥-١٩٤١)

شوقي يقول وما درى بمصيبتي	قم للمعلم وفه التبجيلا
اقعد فديتك هل يكون مبجلا	من كان للنشء الصغار خليلا
ويكاد يقلقني الأمير بقوله	كاد المعلم أن يكون رسولا
لو جرب التعليم شوقي ساعة	لقضى الحياة شقاوة وخمولا
حسب المعلم غمة وكآبة	مرأى الدفاتر بكرة وأصيلا
مئة على مئة إذا هي صلحت	وجد العمى نحو العيون سبيلا
ولو أن في التصليح نفعا يرتجى	وأبيك لم أك بالعيون بخيلا

لكنْ أصلحُ غلطــــةً نحويـــةً	مثـــلاً وأتخـذ الكتـاب دليـلا
مستشهدا بالفـــرزدق مـــنْ أبياتـــه	أوْ بالحـديث مفصّــلاً تفصـيلا
وأغوصُ في الشعْرِ القديم فـأنتقي	ما لـيس ملتبسـا ولا مبـذولا
وأكادُ أبعثُ سـيبويْه مـن البلـى	وذويه منْ أهل القـرون الأولـى
فأرى (حمـارا) بعـد ذلـك كلّـه	رفع المضــاف إليْـه والمفعـولا
لا تعجبوا إنْ صحتُ يوما صـيحة	ووقعتُ مـا بين البنوك قتـيلا
يا منْ يريـدُ الانتحـار وجدتـهُ	إنّ المعلـم لا يعـيشُ طـويلا

النصُ الأول من قبيل الكتابة عن الكتابة، أو الكتابة الشارحة، يتناول المقدمة والنهاية بوصفهما من مكونات السرد، الأولى قد تكون تقليدية أو حداثية، والثانية مفتوحة أو سعيدة. يبقى الانشغال بالكتابة – إضافة إلى الانشغال بالعالم - سمة مهمة من سمات السرد العربي الحديث.

النص الثاني من قبيل الباروديا أو المحاكاة الساخرة – أو المعارضة الشعرية - وفيها ساخر (النص الراهن) ومسخور منه (النص السابق: نص شوقي وسلوك المجتمع المعاصر إزاء المعلم) وموضوع السخرية (قيمة المعلم). ليس المقصود هنا أنّ الشاعر يسخر من أحمد شوقي أو نصه المشهور عن المعلم. لكنه يرثي قيما بادت أو كادت، ويسخر من انهيار صورة المعلم وقيمته في المجتمع المعاصر.

إنّا مفاتيح شفرة المحاكاة قريبة ميسورة، ومنها الاقتباس والاحالة إلى نصّ شوقي في "شوقي يقول ..."، وتشابه الوزن والقافية في النص الراهن والنص السابق.

بين المعلم والمتعلم

من الأطروحات المؤسِّسة في تحليل الخطاب ما طوّره سينكلير Sinclair وكولتهارد Coulthard (١٩٧٥) في دراستهما التفاعلات اللغوية بين المعلم والمتعلم في الفصول الدراسية. في هذه الدراسة المهمة تمييز بين التفاعل/ التبادل اللغوي/ الكلامي exchange والنقلة أو الانتقالة move والفعل اللغوي act. فمن الأفعال الكلامية – وهي الوحدات الصغرى ومن أمثلتها السؤال، والأمر، والنهي، والخبر، والنداء، وما إلى ذلك - تتشكل النقلات – وهي النوبات في بعض كتب التراث، وهي في دراسة سينكلير وكولتهارد استهلال initiation، أو ردٌّ response، أو تعقيبٌ على الرد feedback - ومن مجموع النقلات يتكوّن التبادل اللغوي. ويرد الاستهلال عادة في صورة سؤال أو طلب أو أمر، كما نجد فيما يلي:

- المدرس: يا مريم، ما هي عاصمة الصين؟
- التلميذة: بكين.
- المدرس: أحسنت.

هذا مثل غايته التبسيط لا الاختزال أو الحصر. في هذا المثل ثلاث نقلات تتكون أولاها من فعلي كلام: (١) نداء وسؤال، ثمّ (٢) إجابة، ثمّ (٣) تعقيب على الإجابة.

ليس في الثقافة العربية - على قدر علمي - تناول الحوار بين المعلم والمتعلم بهذه الطريقة الوصفية البنائية، غير أنّ فيها ثروة من المقولات والمبادئ التي تندرج تحت أدب العالم والمتعلم، ويغلب عليها النصح والإرشاد، لا الوصف، من قبيل ضرورة التعريض لا التصريح في مقام زجر العالم المتعلم، لما للتصريح من آثار نفسية وخيمة، ومن قبيل ما ورد في تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم للشيخ بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله الكناني المتوفى سنة ٧٣٣هـ:

"جرت العادة أن يقول المدرِّس عند ختم كل درس: والله أعلم. وكذلك يكتب المفتي بعد كتابة الجواب؛ لكن الأولى أن يقال قبل ذلك كلام يشعر بختم الـدرس كقولـه: وهـذا آخره، أو ما بعده يأتي إن شاء الله تعالى، ونحو ذلك ليكون قوله: والله أعلم خالصـا لذكر الله تعالى، ولقصد معناه، ولهذا ينبغي أن يستفتح كل درس ببسـم الله الـرحمن الرحيم ليكون ذاكرًا لله تعالى في بدايته وخاتمته".

التحليل النقدي للخطاب

"التحليل النقدي للخطاب" هو أفضل ما في الإمكان في ترجمة مصطلح Critical Discourse Analysis، وهو الترجمة الرائجة على كل حال. أما "تحليل الخطاب النقدي" فربما ينجم عنه التباس المصطلح بالنقد الأدبي، لأنّ المقصود ليس تحليل "خطاب النقد الأدبي" (وهو ما يلفطه النقد الشارح والنظرية النقدية الشارحة). المقصود هنا هو تحليل الخطاب من وجهة نظر ناقدة، فيها تمحيص وتفنيد ومساءلة، على معنى أنّ التحليل النقدي للخطاب لا يكتفي على السياقات اللغوية والنصية المحدودة بل يتجاوزها إلى السياقات الاجتماعية المهيمنة، ولا ينخدع بالمقولات الجاهزة، ولا بما تمارسه الأيديولوجيات من تعمية، وتعتيم، وخداع، ولا يتوقف عند ما هو كائن، بل يتجاوزه إلى ما يمكن وما ينبغي أن يكون. ويسعى إلى إحداث تغييرات اجتماعية تبدأ من الوعي ولا تنتهي به (هامرسلي Hammersley، ١٩٩٧، ص ٢٣٨).

إذا كان تحليل الخطاب ولغويات النص يضيفان إلى التداولية بعدا نصيا كليا ويخلصانها من انكفائها على المفردات والعبارت والجمل والحوارات المجتثة من نصوصها أو المفتعلة، فإنّ التحليل النقدي للخطاب Critical Discourse Analysis (CDA) – وهو ينتمي إلى نفس الاتجاهات الوظيفية في تناول اللغة والخطاب ويتفق معها في رفض السلوكية والبنيوية المجرّدة، وفي الاهتمام بالسياق والمقام وبالوظيفة والغاية - يُخلّص هؤلاء جميعاً من "البراءة"، ومن تجاهل السياقات الاجتماعية والسياسية، ويضيف انشغالا بما لا بدّ من الانشغال به، وهو صراع القوى والإرادات والمعتقدات، وبالتحايل، والاحتيال، والقمع والقهر، والتمييز، والدعاية والترويج، و"غسيل المخ"، والتشويه والتجميل في اللغة وباللغة. إلى ما سبق، يتسم التحليل النقدي للخطاب بالوعي بالذات وتوجهاتها وانحيازاتها، لأنّ من يمارسونه هم بشر كالبشر.

أما أسس ومنطلقات التحليل النقدي للخطاب فتشمل اهتمامه بالقضايا الاجتماعية، لأن الخطاب ظاهرة اجتماعية، وتسليمه بأنّ القوة والهيمنة يتم إنتاجهمـا وتـداولهما أو مناهضتهما باللغة وفي اللغة، وأنّ اللغة تُشكّل المجتمع والثقافة كما تتشكّل بهما، وأنّ اللغة أو الخطاب حقيقة تاريخية متغيرة وفعل اجتماعي مؤثر. وأنّ اللغة تحقق غايات إيديولوجية، وأنّ هناك ما يتوسط العلاقة بين النصّ والمجتمع/العالم ألا وهو الـوعي أو الإدراك، وأنّ مهمّة تحليل الخطاب لا تقتصر على الشرح والوصف بل تتجاوزهمـا إلى التفسير والتأويـل (فيركلـف ووداك Fairclough and Wodak، ١٩٩٧، ص ٢٧١ - ٢٨٠، وقد يكتب الاسم الأول في العربية هكذا"فيركلـوف" أو "فيـركلاف" والثاني هكذا"وودك").

من الواضح أنّ القوة power (ومرادفاتها وبنات عمومتها السـلطة authority والهيمنـة hegemony والسـيطرة أو الـتحكّم control) والأيـديولوجيا ideology (أو المعتقد، أي كل ما نؤمن به، وندافع عنه من أفكـار، وتوجهـات، وميول، وانتماءات نحتفظ بها لأنفسنا أحيانا، ونحاول فرضها على الآخرين أحيانـا) هما في صدارة اهتمام التحليل النقدي للخطاب. درجات ومرادفات القوة التي سـبقت مردُها امتلاك ما لايمتلك الآخرون، وكلُها تشير إلى القدرة على التأثير فـي سـلوك الآخرين وأفعالهم، أو أفكارهم، أو مواقفهم (فـان دايـك van Dijk، ٢٠٠٧، ص ١١٢)، وهي قدرة تتيحها التباينات الاجتماعية، أو الاقتصادية، ودرجة القـرب مـن مصادر المعرفة والمعلومات، والخبرات المكتسبة، والفروق الجسدية أو الجنسـية أو العرقية، وإجادة بعض اللغات المُهمّة. وكما أنّ للغة قوتها وتأثيرها. فللقـوة لغتهـا، على معنى أنّ اللغة بوسعها أن تؤثر في سلوك البشر، وتوجّهاتهم، وأفكارهم – انظر كيف ينساق البشر وراء الشائعات، والإعلانات، والحمـلات الدعائيـة والترويجيـة، والشعارات، كيف نُؤذي الآخرين باللغة، وربما نُثـبط هممهـم، وكيـف نُسـعدهم أو نُخرجهم من عزلتهم، وكيف نرفع من أقدارهم أو نحطّ منهـا، وكيـف نشـوّههم أو نجمّلهم . كيف نقتل باللغة، بالوشاية، أو التحريض، أو إيغار الصدور، كيف نجـذب الآخرين أو ننفّرهم، نرغّبهم أو نُرهبهم. هذه بعض قوة اللغة. وللقوة لغتها كـذلك –

لأصحاب النفوذ. والعلماء، والخبراء، والمسؤولين، والقادة والرؤساء، وأرباب الأعمال، والمشاهير والنجوم، وغيرهم. وإذا كانت قوة اللغة power of language من انشغالات نظرية أفعال اللغة والبلاغة الكلاسيكية من قبلها. كما يعتقد بول تشيلتون Chilton وكريستينا شيفنر Schaffner (٢٠٠٢، ص ١)، فإنّ لغة القوة language of power من انشغالات التحليل النقدي للخطاب وتحليل الخطاب السياسي من بعده، كما يرد فيما بعد. هذه ليست نهاية قصة القوة، بل مجرد إيجاز يغفل جذور المفهوم عند فوكو وغيره، وتطوّر المفهوم في الدراسات التداولية من براون وجيلمان (١٩٧٢) حتى بلغت التحليل النقدي للخطاب.

أمّا الأيديولوجيا فهي كلُّ ما نؤمن به، وقد أسهب فان دايك (١٩٩٥، ص ٢٤٤ - ٢٤٧) في الكلام عنها، وتحديد سماتها، ومنها أنها تتعلق بالإدراك والوعي، لأنها مجموعة من المعتقدات والأفكار تتوسط، كما ورد من قبل، وكما ورد في تحليل الحيل اللغوية العربية وانتهاكاتها المبدأ التعاوني، بين اللغة والعالم المحيط بها، بين ما نقول وما يُقال لنا، وما نفعل وما يُفعل بنا، وهي إلى ذلك اجتماعية، حيث تميّز جماعةً عن غيرها، أو فرداً عن غيره في محيطٍ اجتماعي. وربما تتحدد مكانة بعض الأفراد أو الجماعات في مجتمع على أساس ما يؤمنون به، وما ينتمون إليه من اتجاهات فكرية، أو دينية، أو سياسية. وربّما يُفسد الخلاف في العقيدة أو الأفكار أو أسلوب الحياة – رغم أنف القول المأثور - كل قضايا الود بين الأفراد أو الجماعات، وربّما تنجم عنه حروب، وثارات، وعداوات، وربّما لا يتجاوز بعض المشاحنات والنكات. هكذا تتباين الأيديولوجيات والمعتقدات والخلافات التي تنشأ فيما بينها في سطوتها وحدّتها. ومن سمات ما نؤمن به من أفكار أو معتقدات أنّ معايير الصواب والخطأ لا تنطبق عليها بنفس الطريقة التي نجد في حقائق العلوم الطبيعية، وليست كلّها من الحقائق على كل حال، فكلُّ جماعة ترى فيما تؤمن به عين الصواب: ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾"سورة الروم: ٣٢". تتباين المعتقدات والأيديولوجيات كذلك في عمقها وتعقيدها، من مجرد تفضيل طعام على غيره، أو لون على غيره، أو فريق

كرة قدم على منافسه، إلى الانتماء إلى اتجاه سياسي، أو شيعة، أو ملّة. وتتباين مواقف البشر مما يؤمنون به، من تمسّكٍ يبلغ حدّ التطرف، إلى مجرد انتماء بالاسم أو بالتبنّي.

لا انفصام بين القوّة ومرادفاتها وبين الأيديولوجيا، لأنّ بعض الأفكار والمعتقدات تكتسب نفوذاً وقوّة لمجرّد ذيوعها وانتشارها وربما لقوّة من يؤمنون بها. على معنى أنّ بعض المعتقدات تمنح من يؤمنون بها القوة والسلطة. وبعض ذوي النفوذ والسلطة يمنحون ما يؤمنون به من معتقدات سلطة ونفوذاً. ومن يملكون القوة والنفوذ هم بحكم العادة الأقدر على تكريس معتقداتهم، ونشرها والدفاع عنها، وإضفاء الشرعيّة والعقلانيّة عليها، وإقناع الآخرين بها، والأقدر على تشويه ما لا يؤمنون به من معتقدات، وما لا ينتمون إليه من توجّهات أو أحزاب، وأسلحتهم في ذلك شتى، ومن أكثرها نجاعة وتأثيراً اللغة. وباللغة يستطيع المقهورون أن يقاوموا القهر والمهمّشون أن يقتربوا من المتن، ولو بمجرّد الخروج عن الصمت. وسوف نعود إلى أدوات ترسيخ المعتقدات والأفكار وترويجها وإضفاء الشرعيّة والعقلانيّة عليها أو مقاومة كل ذلك لاحقاً.

لا حصر لموضوعات التحليل النقدي للخطاب أو مجالاته. فطالما كانت هناك قوّة أو سلطة (تفرضها أو تكرّسها أو تقاومها)، أو أيديولوجيا (فكرة، أو عقيدة، أو ميل، أو ذوق، أو موقف، أو توجّه، أو انتماء، أو هوى)، كان التحليل النقدي للخطاب صالحاً للتطبيق، وطالما كانت هناك لغة أو خطاب (حوار، أو مناجاة، أو قصّة، أو قصيدة، أو مسرحيّة، أو تقرير إخباري، أو خطاب سياسي، أو إعلان تجاري، أو أغنية، إلى ما لا نهاية)، فهناك قوّة وأيديولوجيا أو عقيدة . غير أنّ بعض الموضوعات والمجالات حظيت باهتمام خاص من ممارسي التحليل النقدي للخطاب، وهي الصراع والتوتر بين الجنسين gender encounters، والخطاب الإعلامي media discourse، الخطاب السياسي political discourse، وخطاب العنصرية racism (ومناهضتها أو إنكارها) ، ولغة البرلمانات parliamentary discourse.

أما أدوات التحليل النقدي للخطاب فلا تختلف كثيرا عن أدوات تحليل الخطاب التقليدي وسائر الاتجاهات الوظيفية، لأنّ ما يميز التحليل النقدي للخطاب من غيره من طرائق التحليل ليس ما يستخدم من أدوات، ولا حتى ما يقارب من موضوعات أو مجالات، بل الزاوية التي يتناول من خلالها تلك الأدوات والموضوعات.

نقرأ مثلا (والأمثلة من العراق بعد احتلالها وبعد سقوط صدام حسين على يد الولايات المتحدة وحلفائها في العقد الأول من الألفية الميلادية الثالثة):

في نقد التحليل النقدي للخطاب

هناك الكثير مما يأخذه نقاد التحليل النقدي للخطاب عليه. من منطلق اختلافات أساسية بين المدارس اللغوية المختلفة - السلوكية والتوليدية وغيرهما - أو تأسيسا على بعض الممارسات غير الناضجة في هذا الاتجاه. مما يؤخذ على بعض ممارسات التحليل النقدي للخطاب الانحياز إلى الجوانب اللغوية من الخطاب على حساب ما يحيط به من سياقات ثقافية، واجتماعية، وسياسية. يؤخذ على تلك الممارسات كذلك إهمالها الأبعاد التاريخية، وتغير اللغة، ودلالاتها، ووظائفها من عصر إلى عصر. في كتابات الراسخين من أصحاب هذا الاتجاه، من أمثال فان دايك وبول تشيلتون وفيركلف وروث وودك Wodak، ما يدحض هذه الاتهامات، وفيها ما يدحض الاتهام بأنّ التحليل النقدي للخطاب ينطلق من انحيازات أيديولوجية، ويعمد إلى ما يثبت تلك الانحيازات، على معنى أنه يبدأ بفروض وأفكار جاهزة، ولا يرى في النصوص إلا ما يثبت تلك الأفكار والفروض. عند لا بأس به من دراسات تحليل الخطاب التي لم تبلغ مرحلة النضج هنا وهناك يقع في مثل هذه المزالق. لكنّ تحليل الخطاب لا ينبغي أن يحتكم على أسس هذه الدراسات. ولعلنا نضيف إلى ما سبق. عند تطبيق التحليل النقدي للخطاب في بيئة عربية، مزالق اليقين غير المبرر، والجزم، وتراكم الدراسات والمراجع دون رابط أو تفسير، أو تبرير، أو تفنيد، تحت عنوان "الدراسات السابقة"، والتكرار، والتسليم بالنظريات والمقولات الكبرى دون مراجعة، ودون وعي بالفروق الجوهرية بين السياقات الاجتماعية والثقافية التي تطوّرت فيها تلك النظريات، والسياقات الجديدة التي تنتقل إليها، و"التطبيق" على حساب التفسير، ناهيك عن التنظير، والبحث عن مصطلحات عربية أو نحتها إذا لزم الأمر.

إضافة إلى كل ذلك، لا ننسى التعتيم، وتجنب الموضوعات التي من شأنها أن تستفز الرقابة، والرقباء - وما أكثرهما. من الدراسات والمراجع في نقد التحليل النقدي للخطاب، على سبيل التمثيل لا الحصر: ويدوسون Widdowson (١٩٩٥، ٢٠٠٤) وهامرسلي Hammersley (١٩٩٧) وبلومايرت Blommaert وبولكاين Bulcaen (٢٠٠٠)

"عشرات العراقيين قتلوا أمس"، أو "قتل عشرات العراقيين بالأمس"، أو "لقي عشرات العراقيين مصرعهم أمس". يهتم النحو التقليدي (نحو الكلمة والعبارة والجملة) إزاء هذه الجمل بصيغ الجمع – جمع التكسير وجمع المذكر السالم - والإعراب –"ين". لا "ون". لأن "العراقيين" مضاف إليه – والفعل حين يُبنى للمجهول. والضمير المستتر. وما إلى ذلك. وربما يتناول تحليل الخطاب، إضافة إلى ذلك أو تأسيسا على ذلك، السياق الذي حدث فيه ما حدث، والمشاركين، والصيغة الإخبارية أو التقريرية، والسبك والحبك –"هم" المتصلة تعود على "العراقيين" – والإشارة إلى "أمس" الخبر، لا أمسنا نحن اليوم، ومقدار ما تشتمل عليه الجمل من صدق، وما تعطي من معلومات، ربما لا تكون شافية أو وافية، وغير ذلك. أما التحليل النقدي للخطاب فيضيف إلى كل ذلك الكلام عن صراع القوى في العراق، وحول العراق، وبسبب العراق، و"التغطية" الإعلامية التي تتجاهل الفاعل ولا تلقي بالملائمة على أحد. وربما تحوّل الفعل، فعل القتل العمد، إلى مجرد حدث -"لقي ... مصرعهم".

هذا على سبيل التبسيط، لكن لعله تبسيط مفيد. بقدر من التسامح ومزيد من التبسيط نستطيع أن نرى في هذه الأمثال استعادة لما ورد من قبل من تصنيف أوستن مكونات فعل اللغة إلى صيغة لغوية، ومعنى مقصود، وتأثير مرغوب.

وبقدر من التسامح والتصرُّف نستطيع أن نتخذ من هذا التبسيط مدخلا إلى أبعاد التحليل النقدي للخطاب الثلاثة التي حددها فيركلف (١٩٩٥، ص ٢) وهي:

§ الخطاب بوصفة لغة – مكتوبة، أو منطوقة: حروف، وأصوات، ومفردات، وعبارات، وجمل، وتراكيب، وقواعد نحوية.

§ الخطاب بوصفه ممارسة بلاغية – ظروف إنتاج الخطاب، وظروف تلقيه، وسياقته، وغاياته البلاغية، وطرائق تنظيمه وتداوله.

§ الخطاب بوصفه فعلاً اجتماعيا – علاقة الخطاب بما يحيط به من قوى فاعلة، وأيديولوجيات مؤثرة، وتأثيرها فيه وتأثيره فيها.

في التنقل بين هذه المستويات يستعين التحليل النقدي للخطاب بنفس الأدوات والآليات التي يستعين بها تحليل الخطاب التقليدي، وغيره من الاتجاهات الوظيفية. مع تأكيده على استكشاف تجليات القوّة والسلطة والأيديولوجيا في النصوص - تحريرية وشفهية.

من الأدوات التي يستخدمها التحليل النقدي للخطاب والجوانب التي يركز عليها:

§ التعدّي/ التعدية transitivity :

من الفاعل؟ ومن يقع عليه فعل الفاعل؟ من الجاني؟ ومن الضحية؟ وهل يختفي أيٌ من هؤلاء جرّاء خوف الكاتب أو المتكلم، أو انحيازه؟

§ درجات اليقين certainty :

اليقين قرين السلطة، وقرين المطلق، وربما يكون قرين الجهل، وضيق الأفق، أو غلبة الهوى على العقل، والشك doubt - الشكّ أول العلم، والطريق إلى اليقين، وهو قرين التواضع، أو الضعف والقمع، وربما يكون قرين الحكمة والنضج الفكري، والإلزام obligation - من الذي يقول "ينبغي". و"يجب". و"لا بدّ". و"المطلوب". و"من الضروري". و"عليكم أن تفعلوا كذا وكذا"؟ وهل من صلاحيته أن يقول ما يقول؟ وغير ذلك من كيفيات modalities.

§ الاثبات والنفي Affirmative-Negative:

"الجوّ صحو". "أظن الجوّ صحواً". "ليس الجو صحواً" والتساؤل interrogative: "هل الباب مفتوح؟". "أيكون الباب مفتوحاً؟". "أليس الباب مفتوحاً؟" والامر والنهي Imperative: "افتح الباب". "ينبغي أن تفتح الباب". "لا تفتح الباب" (فيركلف، ٢٠٠٣، ص ١٦٧ -١٦٨، بتصرّف).

§ اختيار المفردات lexicalization :

من مفردات دارجة أو فصحى، بسيطة أو معقدة، إيجابية أو سلبية. وما بين المفردات من ترادف أو تعارض، وما فيها من تكرار وإسهاب أو إيجاز.

§ الصيغ الاسمية nominalizations والمصدرية :

"مقتل المئات في... لبس"، بدلا من "لقي مئات من .... مصرعهم على يد .... في .... لبس". الرسالة واضحة. وما أكثر ما نقرأ من أسماء وصيغ مصدرية توحي بالتحقق في الحديث عن أشياء لا تتحقق، أو لم تتحقق بعد -"زراعة ألف فدان..."، و"زيادة المرتبات والأجور"، و"تحرير العراق"، و"إقامة الدولة الفلسطينية"، و"حل مشكلة الشرق الأوسط".

§ الألقاب والصفات labels, adjectives and epithets :

"هجوم انتحاري"، أم "هجوم استشهادي"؟ "المجاهدون" أم "الإرهابيون"؟ "المسلمون" أم "المحمديون"؟ الاختيار ليس عفويا، ولا بريئا من الهوى أو الانحياز.

§ الاستعارة metaphor :

استعارة "العصا والجزرة" في معرض وصف علاقة الإدارة الأمريكية ببقية دول العالم مجرد مثل لما يفعل الخطاب، والتشبيه simile، والتشخيص personification، والمجاز المرسل metonymy، والمفارقة والسخرية irony، والمبالغة hyperbole.

§ الافتراض المسبق presupposition، والتضمين implicature، والمعلوم من اللفظ بالضرورة entailment.

§ الإشارة deixis – إلى الأشخاص، والأزمنة، والأمكنة، والوظائف، والأدوار، والتلاحم أو التنافر، والقرب أو البعد، وصيغ المخاطبة address forms، والنداء vocative –"يا بني"، "يا بعد عمري" – والالتفات deictic-shift.

§ التجميل euphemism :

في الكلام عما لا يستحب الكلام عنه، من مرض، أو موت، أو وظائف بيولوجية - والتقبيح dysphemism – في تسمية الأشياء القبيحة بأسمائها، وفي السب، والشتم، واللعن، وما إلى ذلك.

§ البناء للمجهول passivization :

ليست "ضرب عمرو زيداً" كـ"ضُرب زيدٌ" أو "ضرب أحدهم زيداً". و"قَتلانا" ليست كـ "من تقتلون من أبنائنا". وفي "هذا العالم الكبير المعقد بصراعاته الدامية, المضطرب بتناقضاته الحادة, المُهدّد بين الحين والحين بالحروب المدمرة" (من خطاب الرئيس المصري الراحل أنور السادات أمام الكنيست الإسرائيلي, ١٩٧٧) هروبٌ من تسمية الفاعلين والمسئولين عن معاناة العالم إلى أسماء مفعول تُقيّد الجرائم ضد مجهول.

وهذا ما يفعله الفعل "حلّ" بمعنى "وقعَ" أو "حدث". والمبني للمجهول "أُسدلت" في "يوم حلت عليها غارات الغزو العثماني, وأُسدلت من حولها أستار الجهل تعوق تقدمها وتمنعها من الوصول إلى عصر النهضة في نفس الوقت الذي بدأ فيه عصر النهضة في أوروبا" (من خطاب الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر, بمناسبة الوحدة بين مصر وسوريا, ١٩٥٨).

§ ما ورد من قبل من أفعال اللغة :

من يخبر؟ ومن يأمر؟ ومن ينهى؟ ومن يحكم, ومن يهدّد؟ على سبيل التمثيل, وقواعد المبدأ التعاوني, وقواعد الكياسة والتأدب.

بعض ما سبق مما لا ترد له أمثلة سبق الكلام عنه في هذا التبسيط وبعضه سيرد لاحقاً. حتى حروف الجر تستطيع أن تُحدث فروقاً جوهرية – هل "الحرب في العراق", و"الحرب على العراق", و"الحرب مع العراق" تحمل جميعها نفس الرسالة؟

الإجابة بالنفي على سبيل اليقين لا الظنّ, لأنّ الأولى لا تلقي بالملامة على أحد, والثانية تضع العراق موقع الضحية أو المذنب الذي يستحق العقوبة, والثالثة تبرئ المعتدي من العدوان, وتضع طرفي الصراع على قدم المساواة, وكأنّ كلا منهما يتحمل نفس القدر من المسؤولية عن الحرب, ويمتلك نفس القدرات والأسلحة والنفوذ. فلا داعي للتعاطف مع أيٍّ منهما.

ومن أدوات التحليل النقدي للخطاب التي شاع استخدامها وانتقلت إلى تحليل الخطاب السياسي ما أطلق عليه فان دايك (٢٠٠٧ ب، ص ١٣٠) مصطلح "المربع الأيديولوجي" Ideological square، أو التجميل والتشويه، والتهويل والتهوين، ويشير ببساطة إلى استخدام كلّ ما سبق من أدوات في تجميل كل ما لنا ومن معنا، وتشويه كل ما لغيرنا ومن علينا أو ضدنا.

لتحقيق ذلك، يعمد المتكلم أو الكاتب إلى التهويل والتهوين، بمعنى تضخيم حسناته وسيئات غيره، وتهوين سيئاته وحسنات غيره:

§ تعزيز صفاته وأفعاله الإيجابيّة وتأكيدها (أنا): تهويل (كل ما هو) إيجابي (عندي أنا أو عندنا نحن).

ترجمة المربّع الأيديولوجي

"وبالرغم من كونها ليست بالمفصّلة ولا المركبة، فإنّ هذه القائمة الموجزة للمستويات والبنى الخطابيّة توفّر لنا انطباعا أوليًا حول الكيفيّة التي يرتبط من خلالها الخطاب وبناء المختلفة ببعض نواحي العنصرية. لاحظوا أيضا أن الأمثلة المعطاة تبين نوع الاستقطاب المجموعاتي الذي نعرفه نحن أيضا من خلال التحليل المنضوي تحته. أي ميل مجموعة الداخل العام للتفضيل استراتيجية تمثيل النفس الإيجابي من جهة. وازدراء مجموعة الخارج أو تمثيل الآخر السلبي من الجهة الأخرى.

وبمعنى آخر، يؤكد الخطاب العنصري، مع بناءه المعنوية الدقيقة بالإضافة إلى الصيغ والأفعال، على صفاتنا الحسنة وصفاتهم السيئة. ويتجاهل (أو يخفف أو يخفي) صفاتنا السويّة وصفاتهم الحسنة. إنّ المربع الأيديولوجي العام لا ينطبق على الهيمنة العنصرية فحسب، بل كذلك على استقطاب مجموعة الداخل-الخارج ضمن الممارسات الاجتماعية والخطاب والفكر" (توين أ. فان دايك: الخطاب والقوة. ٢٠٠٧، ترجمة سهى مطلوب، غير منشورة، ص ٩٠).

وهذا مثل آخر لترجمات فيها كثير من الجهد والإخلاص، لكنّ فيها كذلك استسلام للنصّ الأصلي، وفيها كثيرٌ من النقل الحرفيّ الذي لا يراعي الفروق البلاغية بين اللغتين العربية والانجليزية، ولا يحقق الغاية التي من أجلها يجب أن تكون الترجمة وهي التوصيل – توصيل فكرة النصّ الأصلي إلى القارئ في اللغة التي يُترجم إليها. ما الذي يعنيه "المربع الإيديولوجي" عند من لم يقرأ النصّ الأصلي ومن ليس له سابق عهد بكتابات فان دايك؟ ولماذا لا تستخدم الترجمة تعابير عربية أصيلة من قبيل "التجميل والتقبيح"، و"التهويل والتهوين"، و"المدح والذم"؟

§ تعزيز صفات عدوه أو منافسه (الآخر) وأفعاله السلبية وتأكيدها: تهويل (كل ما هو) سلبي (عندك أنت أو عنده هو أو عندهم هم).

§ التهوين من صفاته وأفعاله السلبية (أنا): تهوين (كل ما هو) سلبي (عندي أنا أو عندنا نحن).

§ التهوين من صفات عدوه أو منافسه وأفعاله الإيجابية (الآخر): تهوين (كل ما هو) إيجابي (عندك أنت أو عنده هو أو عندهم هم).

1

عن لغة الإعلام واستعارات شتّى

يعود كثير من الفضل في تطوّر التحليل النقدي للخطاب، وتحليل الخطاب السياسي من بعده، إلى جورج أورويل Orwell، وما طرح من أفكار، وما نحت من مصطلحات، في مقالاته وروايات منها رواية ١٩٨٤.

من بين هذه المصطلحات يبرز مصطلح doublespeak، وهو الكلام ذو الوجهين، أو الزائف المضلل، ومن أمثلته تجميل ما هو قبيح، أو ما ينفر الناس من الكلام الصريح عنه اشمئزازا أو خجلا أو خوفا -"يقضي حاجته"، و"توفاه الله"، و"بعافية"، و"وعكة"، و"معاشرة". أصبح هذا المصطلح مبررا لعدد كبير من المصطلحات والمفاهيم التي تصف لغة السياسة والإعلام، ومنها مصطلح لغة الإعلام mediaspeak الذي تناوله فوكس Fox (٢٠٠٠) بالتفصيل، حيث صنف هذه اللغة إلى لغة زائفة مضللة، ولغة تخاطب الحواس sensationspeak، ولغة ترويجية salespeak (إعلانات، وعروض، وهدايا، وتنزيلات). وتشمل لغة

الحواس بدورها الكلام عن النجوم والمشاهير celebspeak (خصوصـــا مشـــاهير ونجوم الرياضة، والفن، وحكاياتهم، وأخبارهم، وزيجاتهم، وموضاتهم. إلـــى مـــا لا نهاية – مع الاعتذار بضيق المكان لنون النسوة) والكلام عـــن الكائنـــات الفضـــائية والغريبة aliensspeak (الحياة على الكواكـــب الأخـــرى، والســـياحة الفضـــائية، والأطباق الطائرة)، ولغة الكراهية hatespeak (وما أكثرهـــا ومـــا أوفرهـــا فـــي المنتديات، والمدونات، ومقالات الصُحف، والرسوم الكاريكاتيريـــة. وفـــي الرســـائل القصيرة على شاشات التليفزيون، وفي البرامج الحوارية التليفزيونية. خصوصا بعـــد الحادي عشر من سبتمبر، وكاترينا، وغزو الكويت، واحـــتلال العـــراق. ومباريـــات الاهلي والزمالك، ونظيراتها في الدول العربية الشقيقة).

حمامة وصقر

"على أنّ مقامكما هناك لن يستغرق إلا ريثما يبحث مختار له عن سكن خاص. وأظنك معي في أنه لا وجه لأن يقيم بيننا بعد الآن، وفي البيت عذراء في جمال زينات. أجل، فيما مضى كانا فرخين لا خوف عليهما من الجوار. ولكن الحمامة نبت ريشها، كمـــا برزت مخالب الصقر. وما أظن أنّ عشا واحدا أصبح يصلح لإيوائهما".

(حسين عفيف: زينات، ١٩٣٩، ص ص ١٩ - ٢٠)

الإسلام فضاء وصراط

"الإسلام فضاء ذو حدود: هذه الاستعارة استراتيجية ليس في الخطاب الديني للإســـلام السلمي فقط، وإنما في الخطاب الديني الإسلامي على وجه العمـــوم. وتقـــوم هـــذه الاستعارة على معرفتنا بالفضاءات المغلقة، كالغرفة، أو السيارة، أو قاعة الدرس، أو السينما". الإسلام طريق وصراط مستقيم: "فصدرت مني إليهم إشارة بالنصيحة عـــن هذا الاعوجاج ومطالبة الرجوع إلى أقوم المنهاج". "أفتؤمنون بـــبعض الكتـــاب وكفـــرتم

ببعض. واستبدلتم بالرشد غيا، وبالهدى ضلالا". وقوله تعالى: "ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل" (من كتاب بذل المجهود في مخالفة النصارى واليهود للإمام السالمي في دراسة الحرامي. ٢٠٠٠)

استعارات منها ما ورد في القرآن الكريم

من (فقه اللغة للثعالبي)

"رأس الأمر"، و"رأس المال"، و"وجه النار"، و"عين الماء"، و"حاجب الشمس"، و"أنف الجبل"، و"أنف الباب"، و"لسان النار"، و"ريق المزن"، و"يد الدهر"، و"جناح الطريق"، و"جناح الذل من الرحمة"، و"كبد السماء"، و"ساق الشجرة"، و"انشقت عصاهم"، و"شالت نعامتهم"، و"مرُّوا بين سمع الأرض وبصرها"، و"قصا بينهم الغربان"، و"كشفت الحرب عن ساقها"، و"أبدى الشر عن ناجذيه"، و"حمي الوطيس"، و"دارت رحى الحرب"، و"افترَّ الصبح عن نواجذه"، و"سل سيف الصبح من غمد الظلام"، و"نعر الصبح في قفا الليل"، و"باح الصباح بسره"، و"ارتفع النهار"، و"ترحلت الشمس"، و"رمت الشمس بجمرات الظهيرة"، و"خفقت رايات الظلام"، و"شاب رأس الليل"، و"نهبت الشمس جلبابها"، و"قام خطيب الرعد"، و"خفق قلب البرق"، و"انقطع شريان الغمام"، و"تنفس الربيع"، و"تعطر النسيم"، و"تبرجت الأرض"، و"قوي سلطان الحر"، و"انحسر قناع الصيف"، و"جاشت جيوش الخريف"، و"شابت مفارق الجبال"، و"اشتعل الرأس شيبا"، و"يوم عبوس"، و"الأدب غذاء الروح"، و"الشباب باكورة الحياة"، و"الشيب عنوان الموت"، و"العيال سوس المال"، و"النار فاكهة الشتاء"، و"الوحدة قبر الحي"، و"الصبر مفتاح الفرج"، و"الشمس قطيفة المساكين"، و"لباس الجوع والخوف"، و"سوط عذاب"، و"أم الكتاب"، و"أم القرى" (الثعالبي، ٢٥٦ -٢٥٧).

من الأهرام، والمصريون، والمصري اليوم، والخليج،
والإمارات اليوم، والرياض (٣ يوليو ٢٠٠٨) وغيرها

(١)

دول "مارقة"، ودول "شقيقة"، ودول "صديقة"، ودول "معادية" (المجتمع الدولي أسرة)، و"محور" الشر، والحرب "على" الإرهاب، و"كبش فداء"، و"بطة سوداء"، وحصان "أسود"، ورغبة "متوحشة"، و"الراعي" والنساء، و"غرام" الأفاعي. (البشر حيوانات عاقلة)، و"الحيتان" الكبيرة، و"الأسماك" الصغيرة، والعذراء و"العقرب"، و"أخطبوط" الفساد، وحكومة "الظل"، وأصوات "محروقة"، و"شراء" الأصوات، و"شاهبندر تجار" مصر، و"القيصر"، و"تفريغ" قانون حماية المنافسة (القانون وعاء)، و"لعبة شد الحبل" بين طهران وواشنطن، و"اللعب" بالنار، و"اللعب" على العقول، و"لعبة" الكراسي الموسيقية، و"لعبة" السياسة، و"الدعارة" السياسية، والعهر السياسي (السياسة لعبة قذرة)، و"غسيل" المخ، و"هجرة" العقول، و"استنزاف" خزينة الدولة، ومواطنون "ضد الغلاء"، و"جحيم" الأسعار، و"تدني" الرواتب، والأسعار "تلتهم" الزيادة في الرواتب، و"خرق" القواعد، و"اختراق" الصفوف، وأسلحة "الخداع" الشامل، و"خنق" المبادرات الشابة، ويشدد "الخناق" على غزة، و"فجوة" مخصصات الديون، ودون تحميل الموازنة أية "أعباء"، و"حسني عبد ربه" من "حق" الإسماعيلي (البشر ممتلكات)، ودفع "عجلة" التنمية، ودفع "مسيرة" السلام، والصين قوة "صاعدة"، و"فشل" نزيع لإسرائيل، و"نجاح" لحزب الله، و"شراكة" إستراتيجية، و"انفصال" بين شركتين، و"شد وجذب" بين الشركاء، و"تسونامي" الشائعات، و"عيد جلاء" المدرسين الخصوصيين عن بيته، و"موجة" من اللاجئين، و"غليان" في شوارع العاصمة، والدنمركيون "أسعد" شعوب العالم، وزيمبابوي الأكثر "تعاسة"، و"حقائب" وزارية جديدة، و"بنك"

المعلومات، و"صدام" الحضارات، وثقافة الاحتلال لم "تتجذر" بعد. و"يحيي" الأمل في الوصول إلى حل، و"بزوغ" فجر العسكرية المصرية، والفاتحين الأسبان الجدد (فريق كرة القدم الفائز ببطولة أمم أوروبا ٢٠٠٨).

(٢)

"معركة" الهبوط، و"شبح" الحرب والانتفاضة (الأمة جسد)، و"هيبة" الدولة، ورأب الصدع، و"بلورة" رؤية إفريقية، و"ألقوا قيدا" (لاعب يريد ترك ناديه)، و"ليل" الاحتلال، و"تدشين"/ إطلاق مشروع، و"شمس" الحرية، و"قيود" الاستعمار، والحقيقة "العارية"، و"شجرة"/"بذر" الحرمان، وبيت من "لحم"، والصحة "تفحص" العمالة في بلادها، و"ترسيخ" العمل العربي المشترك، والحضارة "الفعل" الذي "يناهض" الهمجية، و"علل" المجتمع و"آفاته" (المشكلات الاجتماعية أمراض)، وكلام "حلو"، وكلام "لذيذ"، وكلام "معسول"، وكلام "جارح" (الكلام طعام وشراب وسلاح). ومنيعة "لامعة"، و"نجم" متألق، و"كوكب" الشرق، و"يحيك" مؤامرة، و"ينسج" قصة من الخيال، و"حرب" كلامية (الجدل والمحاجة حرب)، و"أعمدة" الحكمة، و"أسس" البلاغة، و"جذور" الاستبداد، والقضاء على الفتنة في "مهدها"، و"ملامح" أزمة الغذاء (الظواهر الاجتماعية والثقافية أبنية ونباتات وكائنات)، والوطن/ اللغة "الأم"، و"حضن" الوطن (الوطن أم)، والأصدقاء "المقربون"، والقراء الزوار الكرام، والمحرر "الضيف" (المواقع والمنشورات بيوت)، وأيام "سوداء" أو "بيضاء"، ومستقبل "مظلم" أو "مشرق"، ويدير "دفة" الأمور، و"ربان" سفينتنا (الحياة سفينة)، و"رحلة" النسيان، و"رحلة" الحب، والحياة "رحلة" (الحياة رحلة)، وفي "ظلال" القرآن/ السنة، و"ظلام" الجهل، و"نور" المعرفة، ويوم "حلو" ويوم "مر"، وأيامنا "الحلوة"، وإجازة سريعة/ قصيرة، والزمن "يجري"، والأيام "تمر"، و"لوحة فنية" رائعة (مجموعة من البشر يعملون معا)، والعيون "نوافذ" الروح، و"كلام" العيون، وله "يد" "بيضاء" على تلاميذه،

ويعد "يد" العون، والأم "مدرسة"، و"سيمفونية" رائعة (عن أداء جماعي)، و"عـزف" منفرد (عن مهمة فردية)، و"فيروسات" و"قراصنة" (في عالم الكمبيوتر والإنترنـت)، والصفحة الرئيسية (في أصلها الغربي homepage)، و"تآكل" الطبقـة الوسـطى، و"نار" الغيرة، و"بركان" الغضب (المشاعر نيران)، و"بحر" الحياة موجه عال، و"بـر" الأمان (الحياة بحر)، و"الزواج" بين الولايات المتحدة وإيران وبين الولايات المتحـدة ودول أخرى (العلاقات بين الدول كالعلاقة بين زوج زوجة، الدول بشر).

تحليل الخطاب السياسي

إنّ السياسة بمعنى التأثير والتوجيه والتمويه والخداع والتفاوض ماثلة في كل زمان ومكان. من هنا يأتي تأكيد التحليل النقدي للخطاب على تناول علاقات القوّة والهيمنة، وتجليات الأيديولوجيا في كلّ أنواع النصوص – في خطب الآباء والأبناء، والقضاة والمتهمين، والأطباء والمرضى، والمدرسين والطلاب أو التلاميذ، ورجل الشرطة والمواطن "العادي"، والعالم والمتعلم، والشيخ والمريد، والمُمتحِن والمُمتحَن،، والراعي الرعيّة، وأرباب الأعمال ومديريها بموظفيهم، من يملكون ومن لا يملكون، من يعلمون ومن لا يعلمون - إذا كانوا يعلمون أنهم لا يعلمون.

وليس من بين أنواع الخطاب ما تتجلى فيه الهيمنة والقوّة ومحاولات التأثير أكثر من الخطاب السياسي بمعناه الخاص المُحدَّد الذي يتعلق بأمور الحكم والسياسة. ولهذا السبب استأثر الخطاب السياسي دون غيره من مجالات التحليل النقدي للخطاب. وما زال يستأثر، باهتمام متزايد حتى تطوّر في دراسته اتجاه مهم هو تحليل الخطاب السياسي Political Discourse Analysis. الذي ينطلق من مقولات ومفاهيم التحليل النقدي للخطاب، ومن ثمّ ما تأسس عليه من اتجاهات ومفاهيم. ويركّز على لغة الساسة والسياسة، في خطبهم وحواراتهم ومكاتباتهم وقراراتهم ومؤتمراتهم وتصريحاتهم، وعلى وظائف الخطاب السياسي، وغاياته، وأدواته في تحقيق هذه الغايات.

في أدبيات تحليل الخطاب السياسي، التي تتراكم وتزداد نضجاً وتعقيداً يوما بعد يوم – وتحديدا في دراسة تشيلتون وشيفنر (١٩٩٧) المهمّة عن الخطاب والسياسة - أربع وظائف يسعى الخطاب السياسي إلى تحقيقها - ليست مقصورة عليه، لكنها تتجلى فيه بشكل لافت، وهي:

(أ) القمع والقهر coercion – من خلال فرض القوانين والأحكام والعقوبات والتنظيمات، وشنّ الحروب، والتهديد، وفرض الأوامر والتعليمات وما إليها.

(ب) إضفاء الشرعية أو تجريد الآخرين – الأعداء، والخصوم، والمنافسين، ومن إليهم - منها legitimation/ delegitimation – من خلال تجميل الذات وتقبيح الآخر، كما يرد تفصيله في غير هذا الموضع، ومن خلال ادّعاء الانحياز إلى جانب الحق والخير والعدل في مواجهة من ينحازون إلى الباطل والشر والظلم.

(ج) المقاومة والمواجهة resistance and opposition – إزاء الخطاب السائد المهيمن، خصوصاً إذا كان خطاباً شمولياً لا يراعي إنسانية البشر ولا يعدل بينهم، وفي محاولات التغيير إلى ما هو أفضل. علينا أنْ نلاحظ هنا أنّ ما هو هامشيٌ في لحظة تاريخية مُحددة ربما يحتل المتن في مرحلة لاحقة، وقد يمارس كل الرذائل التي كان ينتقدها في سابقيه.

(د) التضليل dissimulation – من خلال إخفاء بعض التفاصيل أو الحقائق لحساب تفاصيل وحقائق أخرى، أو التركيز على بعض جوانب الواقع دون غيرها تحقيقاً لما سبق من غايات.

يستطيع الخطاب السياسي أن يحقق هذه الغايات من خلال اللغة. ومن آليات ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر – وقد تلزم تلخيص هذه الآليات في الحديث عن التحليل النقدي للخطاب:

(أ) الاستعارة :

من ذلك ما نجد في تعبير الإدارة الأمريكية "hunting down bin Laden" الذي يتحول فيه أسامة بن لادن إلى "حيوان" يطارده صيادو البنتاجون.

وقد وردت أمثلة أخرى للاستعارة في متن التمهيد وهوامشه.

(ب) التشبيه :

تشبيه صدام حسين بهتلر، والقاعدة بالمافيا، على سبيل المثال. لا يبدو أنّ للتشبيه نفس التأثيرات السياسيّة والبلاغيّة التي للاستعارة، ربما لأنّ أداة التشبيه تلفت النظر وتستفز التساؤل عن حقيقة العلاقة بين طرفي التشبيه.

(ج) الافتراض المسبق :

من ذلك سؤال بوش في خطابه عقب الحادي عشر من سبتمبر الشهير Why do they hate us? (لماذا يكرهوننا؟) وواو الجماعة تشير إلى المسلمين والعرب و"نا" إلى الأمريكان) الذي يفترض مسبقًا صحة الاعتقاد بأنّ العرب والمسلمين يكرهون الولايات المتحدة، وقوله The enemy of America is not our many Muslim friends الذي يفترض مسبقًا وجود عدوّ يتربّص بأمريكا وأنّ أمريكا لها كثير من الأصدقاء في العالم الإسلامي.

(د) التجميل :

من ذلك التعبير عن الاحتلال بالتحرير، وعن الحرب "على" العراق بالحرب "في" العراق. وعن الأخطاء الغبيّة بالنيران الصديقة. ومن ذلك أيضا ما تمتعنا به "الصحّاف" وزير الإعلام العراقي في عهد "صدام حسين" من أخباره السارّة عن "الانتصارات" العراقيّة المتعاقبة في "معركة الحواسم" الأخيرة التي ذهب بعدها صدام والصحّاف إلى غير رجعة، ومن ذلك التعبير عن الهزيمة بالنكسة، والانسحاب بالتراجع، والقتلى والضحايا بالخسائر في الأرواح.

(هـ) التقبيح :

من ذلك سيل الشتائم التي سمعنا من "الصحّاف" حين وصف الغزاة الأنجلوأمريكيين بـ "العلوج" ومصّاصي الدّماء و"جحوش الاستعمار" و"عصابة الأوغاد الدوليّة". (بالإضافة إلى التنقل بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول وتحويل الأفعال إلى مجرد أشياء تقع أو تحدث دون قصد أو دافعيّة إنسانيّة).

هكذا، ومن خلال متابعة لغة الحرب على العراق، نستطيع أن نتحقق من توظيف اللغة كسلاح مهمٍ وفعال في تبرير الحرب أو مقاومتها من خلال تجميل الذات وتشويه الآخر. فقد عملت الإدارة الأمريكية على تشويه صورة صدام حسين الذي قدم لها كل المساعدات الضرورية من خلال تصرفاته "الطائشة". من وجهة نظر تلك الإدارة، وعبثه بمقدرات شعبه، وقمعه اياه. في نفس الوقت، سعت الإدارة الامريكية الى تجميل صورتها، وتهميش كلّ أخطائها وخطاياها، وإخفاء دوافعها الحقيقية من وراء الحرب – صدام ليس الطاغية الوحيد، وهو ليس كذلك في نظر الجميع، ولم يكن في العراق أسلحة دمار شامل، كما أنّ صدام – من وجهة نظر كثيرين - كان لادن صناعة أمريكية. على الجانب الآخر، أبقى حزب البعث على خطابه الذي يغازل مشاعر المسلمين والعرب من خلال التعلّق بأستار الكعبة، وبقايا القوميّة العربيّة، وحديث الجهاد في سبيل الله، والعرض والشّرف والكرامة. في نفس الوقت، بذل الصحاف جهدا خارقا في تشويه الغزاة المستعمرين. لكنّ آلة الحرب العراقية المنهكة أخفقت، وأخفقت كذلك آلة حربها اللغويّة. ولعلّ من أكثر نتائج تلك الحرب أهميّة أنّ العالم قد أصبح أكثر وعيا بتوظيف اللغة كسلاح خداع شامل. لم يكن الأمر من قبيل الاكتشاف، لأنّ توظيف اللغة كآلة للدعاية والحرب قديم قدم الإنسان نفسه، لكن المسألة لم تعد تحتمل مزيدا من الانتظار للاهتمام بهذه الوظيفة على مستوى التناول الاعلامي والبحث الأكاديمي.

كذلك نستطيع أن نتحقق من خلال مراجعة لغة الحرب على الإرهاب ثم على العراق من توظيف وسائل الدعاية propaganda اللغويّة لتحقيق غايات سياسيّة ورد ذكرها أعلاه. من ذلك ما حفل به خطاب الحربين من ألفاظ رنّانة، وتعابير برّاقة glittering generalities كالديموقراطيّة، والحريّة، والعدالة، في صراعها مع الإرهاب، والديكتاتوريّة، والطغيان، والخوف. حين ندقّق النظر، نكتشف أنّ هذه الكلمات ليست لها نفس الدلالات عند المتحاربين. فما فعله صدام وابن لادن "جهاد في سبيل الله" تحوّل عند بوش الى "إرهاب". وما يفعله بوش "حرب على الإرهاب" تتحوّل عند معسكر "الأعداء" الى "إمبريالية"، و"غزو"، و"استعمار".

ومن ذلك خلط الأوراق card-stacking في سبيل التعتيم على الدوافع الحقيقية، فبدلا من مناقشة الأسباب الحقيقية "لكراهية العرب" أمريكا، رأينا الإدارة الأمريكية تنسب ذلك إلى ما تتمتع به الولايات المتحدة من حرية، وحضارة، وعدالة، وما يثقل كاهل العرب من قمع، وقهر، ومحاكم تفتيش، وأحكام عرفية، وطغيان. لم تسمع بوش يتناول تحيزات إدارته، ومكاييلها المتباينة، وأقنعتها المتعددة.

ومن أساليب الدعاية السياسية كذلك الحديث بلسان حال العامة plain folks، والايهام بأن موقف القيادة ليس إلا تعبيرا عن مشاعر الشعب ورغبته. ومن ذلك أيضا التعميم وافتراض التعبير عن الأغلبية، ليس في الداخل فقط، بل في شتى أنحاء العالم. ويرتبط بهذه الوسيلة الدعائية التيقن من النصر band-wagon and inevitable victory–"أنا أعبّر عن شعبي، والعالم المتحضّر كله معي، وسوف ننتصر؛ إمّا أن تكون معنا أو علينا، وإذا قرّرت ألا تكون معنا، فسوف تكون حتما من الخاسرين". هكذا تكلم جورج بوش الابن.

ومن وسائل الدعاية التي تابعناها في الحربين كذلك التنابز بالألقاب، والسب، أو الشتم name calling ، وقد وردت فيما سبق أمثلة لذلك في معرض الحديث عن لغة "الصحاف". لم يقصّر جورج بوش من ناحيته، فقد أنعم على صدام وابن لادن بسيل من الألقاب التي تحمل العامة على كراهيتهما. ولقد أصبح لقب "إرهابي" تهمة جاهزة لكل من تسوّل له نفسه معاداة الأقوياء؛ فالفلسطينيون "إرهابيون"، والعراقيون الذين يقاومون الاحتلال "إرهابيون"، و"محور الشر" axis of evil محور إرهاب. وطالما وردت كلمة "الشر"، فقد انتقل الصراع من تنافس على الهيمنة وسعي إلى تحقيق غايات سياسية واقتصادية، إلى صراع بين "الخير" و "الشر". ونحن جميعا نعرف إلى أي معسكر تنحاز السماء. هكذا أصبح الدين وسيلة دعاية، وآلة حرب. لم يكن بوش رائدا في توظيف الدين لتحقيق غايات سياسية فقد سبقه إلى ذلك عدد لا بأس به من القادة العرب، وسوف ترد إشارات أخرى إلى ذلك لاحقا.

لم تنته القصة بعد. لكنّ المؤكد أنّ لغة الخطاب السياسي تحتاج إلى كثير من الاهتمام في عالمنا العربي. بوسع البلاغة العربية أن تستوعب ما يستجدّ من مفاهيم تتعلق بوظائف الخطاب السياسي والدعاية السياسيّة.

ليس المقصود الانحياز لأنّ أيًا من الأطراف المعنيّة في الحروب التي نتحدث عنها لم يقدم للبشريّة ما يستحق أن تحمده له أو أن تدافع به عنه (وهذه في ذاتها مقولة منحازة). لكن المقصود هو الوعي والتوعية.

1

خصائص الخطاب السياسي

في ختام تحليله نصوصا سياسيّة مهمة لجورج بوش وأسامة بن لادن ومناقشته تاريخ العلاقة بين اللغة والسياسة وغير ذلك من جوانب الخطاب السياسي.

يلخص بول تشيلتون Chilton (٢٠٠٤: ٢٠١-٢٠٥) سمات هذا النوع من الخطاب فيما يلي - مع كثير من التصرّف على سبيل التبسيط:

تحسين القبيح وتقبيح الحسن

من طريف ما تحفل به البلاغة العربية ما كتبه أبو منصور الثعالبي - وهو صاحب يتيمة الدهر وفقه اللغة كذلك - في كتابه تحسين القبيح وتقبيح الحسن. وقد جمع فيه ما قيل في تحسين ما تمّ التعارف على تقبيحه، وتقبيح ما اتفق الناس على تحسينه. يذكر الثعالبي في المقابح تقبيح العلم، والشجاعة، والأدب، والتقى، والحلم، والصبر، وغيره. ويذكر فصولاً في تحسين الكذب، والوقاحة، والذنوب، والمرض، والموت، والجبن، والسجن. على أننا لا ينبغي أن نقع في فخه البلاغي. فهو لا يمدح الكذب إطلاقًا، بل يمدح من الكذب ما يوصل به الرحم ويتصالح المتنافرون. وهو لا يذم العلم في ذاته، بل يذم منه ما يورد صاحبه موارد التزلق ويلبسه لباس الغرور. يقول الثعالبي في تحسين الفراق وتقبيح التلاقي: "قال بعض الظرفاء: في الفراق مصافحة التسليم، ورجاء الأوبة، والسلامة من الملل، وعمارة القلب بالشوق، والأنس بالمكاتبة! وكتب أبو عبد الله الزنجي الكاتب: جزى الله الفراق عنا خيرا! فإنما هو زفرة وعبرة، ثم اعتصام وتوكل، ثم تأميل وتوقع.. وقبح الله التلاقي! فإنما هو مسرة لحظة، ومساءة أيام، وابتهاج ساعة، واكتئاب زمان" (من موقع الوراق).

(١) يعتمد الخطاب السياسي علـى الإشـارة deixis - بمعناها الواسع الذي سبق توضيحه - إلـى الزمان والمكان والمكانة والعلاقة والسياق.

(٢) يقوم الخطاب السياسي علـى التفاعـل interaction الذي تتبدى من خلاله الحدود التي تفصل والروابط التي تجمع، تفصل الأنا عن الآخر وتجمعها ومن يحالفها أو يشبهها أو ينتمي إليها. وتتبدى من خلاله كذلك المكانة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأدوار التي يلعبها كل طرف في التفاعل أو حوله.

(٣) يشتمل التفاعل على نوع من التفاوض والتداول، تداول الوقائع، ومراجعة فرضياته المهمة، ومحاولة فرض ما نفترض أو نسلم به نحن على الآخرين.

إضفاء الشرعية وتجريد الآخرين منها

(فان ليوين van Leeuwen، ٢٠٠٧: ٩٢، بتصرف)

في "المربع الأيديولوجي" وفي وظائف الخطاب السياسي تأكيد على ما يقوم به كل خطاب أيديولوجي من إضفاء الشرعية على نفسه وتجريد الآخرين - الخصوم والأعداء والمنافسين والحساد والنقاد - منها. ويستطيع منتج الخطاب أن يحقق هذه الغاية - التي لا يخلو منها أو من بعض درجاتها أو ظلالها خطاب إنساني - من خلال:

§ إسباغ السلطة Authorization - من خلال استلهام الموروث والتقاليد والعادات والقوانين والاستشهاد بأصحاب النفوذ والتأثير الثقافي أو الفكري أو السياسي، كرجال الدين والرموز التاريخية.

§ إصدار الأحكام الأخلاقية Moral evaluation: إصدار أحكام أخلاقية عن الخير والشر والفضيلة والرذيلة والقيم والصواب والخطأ والحلال والحرام والعلم والجهل وغير ذلك من ثنائيات.

§ العقلنة Rationalization: إضفاء العقلانية على مقولة أو قضية أو موقف أو اتجاه، من خلال الأرقام والإحصائيات والتسلسل المنطقي والاستشهاد بالمختصين وذوي الخبرة والعلم والمعرفة.

§ الأسطرة والسرد Mythopoesis: حكايات وقصص - حقيقية أو مؤلفة - مفادها أن كل ما هو شرعي يحظى بالنهايات السعيدة وكل ما هو خارج عن الشرعية ينتهي نهايته الطبيعية -"إلى مسلة مهملات التاريخ" بتعبير جورج بوش في خطابه عقب الحادي عشر من سبتمبر. لا بد أن يتزوج "البطل" من "البطلة" وأن يلقى القبض على المجرم الشرير.

(٤) يشتمل الخطاب السياسي على توقع ما يفكر فيه الآخرون والتنبؤ بما يدبّر المنافسون وما يؤمن به "الأعداء" ومن ثمّ تفنيده أو إضعافه أو تشويهه وتقبيحه.

(٥) يتحقق قدرٌ كبير من التفاعل في الخطاب السياسي بفضل قدرة اللغة على الدلالة على مستويات مختلفة، وقدرتها على التعبير عن الواقع، ثم التعبير عن التعبير عن الواقع.

(٦) يتحقق قدرٌ كبير من التفاعل في الخطاب السياسي بفضل ثراء تعابير اليقين والشك وتعابير الضرورة والالتزام الأخلاقي والديني والاجتماعي – تعابير "افعل" و"لا تفعل" و"يجب" و"ينبغي" و"لا بدّ" و"علينا".

(٧) يرتكز الخطاب السياسي إجمالاً على تصنيفات ثنائية متعارضة، وربما متصارعة، بين الحق والباطل، بين الخير والشر، بين العدل والظلم، بين الشرعية وعدم الشرعية، بين الوطنية والخيانة، بين الحرية والقمع. عادة ما يكون صاحب الخطاب في المعسكر الأول وأعداؤه في "محور الشر".

(٨) لمفهوم الأدوار roles أهمية خاصة في الخطاب السياسي. والمقصود هنا هو ما يؤدي المشاركون في الخطاب من وظائف وأدوار اجتماعية أو سياسية أو عسكرية، سواء كانت هذه الأدوار حقيقة أو مفترضة أو مرجوة أو مسلوبة من الآخرين. والعلاقات التي تربط بين من يؤدون هذه الوظائف ويلعبون هذه الأدوار – "الحاكم" و"المحكوم" و"الراعي" و"الرعية" و"الرئيس" و"الشعب" و"الحكومة" و"المعارضة" و"الجمهوريون" و"الديمقراطيون" و"العمال" و"الفئات" و"أعضاء مجلس الأمة" و"الوزراء" وهكذا.

(٩) للوعي بالمكان والمكانة أهمية خاصة في الخطاب السياسي، ومن ذلك ما يتعلق بمفهوم "الحدود" و"المياه الإقليمية" و"دول الجوار" و"الشرق" و"الغرب" و"الاحتلال" و"الغزو" و"الهجرة" و"الشمال" و"الجنوب" وما يرتبط بذلك من استعارات وتصورات وحقوق وواجبات.

(١٠) يشتمل الخطاب السياسي على قدر وافر من التفكير الاستعاري. على معنى أن للاستعارة وظيفة مهمة في صياغة التصورات وتجسيد المفاهيم والأطروحات السياسية. من ذلك ما نجد في استعارة "اصطياد أسامة بن لادن" في هذا الجزء من التبسيط. لا تكتفي الاستعارة هنا بتقبيح قائد تنظيم القاعدة بل تنتقل من ذلك إلى تجريده من الشرعية ووضعه في معسكر الشر الذي تصبح محاربته التزاماً أخلاقياً مشروعاً.

(١١) من خلال الوعي بالمكان والتصورات الاستعارية التي ترتبط به، تتشكل الجماعات والقوميات والشعوب والأقليات والدول والدويلات. ويتشكل كذلك وعيها بمن ينتمي اليها ومن لا ينتمي، وتتبلور الهوية identity السياسية والجغرافية والاقتصادية لتلك التجمُّعات، وتتبلور مفاهيم "نحن" و"هم"، من "معنا" ومن "علينا". وقد يقع التبسيط المُخل والالتباس بين الهوية الجغرافية وبين الهوية السياسية أو الدينية كما نجد في تصوّر هنتنجتون Huntington صراعا بين غرب "مسيحي" وشرق أوسط "مسلم". ليس كل من في الغرب مسيحيين. وليس كل من الشرق الأوسط مسلمين.

(١٢) يبدو أنّ هناك ارتباطا من نوع ما بين الخطاب السياسي وبعض المشاعر الإنسانية الغريزية كحب الوطن والغيرة على الدين والحفاظ على الحرمات والمحارم والأماكن المقدسة والنفور من الغرباء والرغبة في الانتماء وحب "الأهل" والأسرة والانتماء إلى دين أو عشيرة. وكلُّها مشاعر يجيد الخطاب السياسي إثارتها والعزف على أوتارها بما يحقق غاياته وأهدافه.

(١٣) تكرارا لبعض ما سبق وتأسيسا عليه، تتجاوز الإشارة والتعابير الإشارية مجرد تحديد المكان إلى تحديد المكانة والدور والعلاقة بين المشاركين في الخطاب، من مجرد الإشارة إلى من أنا ومن أنت ومتى، إلى تأسيس علاقة بين "أنا" وكل ما هو حسن وخيِّر – وبين "عدوي" أو "منافسي" وكل ما هو قبيح وشرّ – وتحقيق التلاحم بين منتج الخطاب ومن يسعى إلى إرضائهم من ناخبين أو جماهير أو لجان أو هيئات. هكذا تبقى الإشارة بمعناها الرحب سلاحا مؤثرا في جدل الهويات والانتماءات، درعا يدفع وسيفا يقتل، يدا تضمُّ "ذوي القربى" وأخرى تحجب الغرباء.

في العالم العربي

هناك وعيٌ متزايدٌ في الجامعات العربية بضرورة التحليل النقدي للخطاب. وتحليل الخطاب السياسي. نجد هذا في دراسة سهام القارح El-Kareh (١٩٨٥) التي تتناول عيّنةً من خطابات جمال عبد الناصر. ودراسة ملك هاشم Hashem (١٩٩٠) التي تتناول صراع القوى في قصة قصيرة. ودراسة أبو خليل Abu Khalil (١٩٩٤) التي تتناول الجبريّة في خطابات جمال عبد الناصر وصدّام حسين. ودراسة الراشد Al-Rashid (١٩٩٤) التي تتناول بلاغة الخطاب السياسي في المملكة العربية السعودية في تسعينيات القرن الماضي. ودراستي وجيه Wageih (١٩٩٤، ١٩٩٦) وتتناولان التفاوض الاجتماعي والسياسي. ودراستي علا حافظ Hafez (١٩٩٩، ٢٠٠٠) وتتناول أولاهما العلاقة بين الخطاب والقوة، والثانية الخطاب الجماهيري وما فيه من التفات وتبادل أدوار. ودراسة الحراصي (٢٠٠٢) التي تتناول الاستعارة المفهومية وتعرّج على التحليل النقدي للخطاب، مع تطبيقات على بعض خُطب الإمام عليّ كرّم الله وجهه. ودراسة رشا خيري Khairy (٢٠٠٠) التي تتناول التعمية وجوانب نحوية ودلالية وتداولية أخرى في لغة فضيحة ووترجيت. ودراسات مزيد Mazid (١٩٩٩، ٢٠٠٤، ٢٠٠٧أ، ب، ٢٠٠٨) وتتناول الأولى التحليل النقدي للخطاب وتطبيقه في تحليل خطاب السادات أمام الكنيست الإسرائيلي وإعلان الاستقلال الأمريكي وأجناس خطابية أخرى. وتتناول الثانية الكلام الجميل والقبيح في خطاب الحرب على العراق. والثالثة التحليل النقدي لخطاب الترجمة. والرابعة الافتراضات المسبقة في خطاب للرئيس بوش في أعقاب الحادي عشر سبتمبر. وتتناول الخامسة صورة بوش وابن لادن في عينة من النصوص الكاريكاتيرية. ودراسة محمد Muhammad (٢٠٠٤) التي تتناول بالتحليل النقدي عينة من عناوين الصحف العربية والإنجليزية. ودراسة ميديا أحمد Ahmed (٢٠٠٧) التي تتناول بالتحليل النقدي لغة الصحف العربية والإنجليزية.

في العالم العربي

هناك وعيٌ متزايدٌ في الجامعات العربية بضرورة التحليل النقدي للخطاب. وتحليل الخطاب السياسي. نجد هذا في دراسة سهام القارح El-Kareh (١٩٨٥) التي تتناول عيّنةً من خطابات جمال عبد الناصر، ودراسة ملك هاشم Hashem (١٩٩٠) التي تتناول صراع القوى في قصة قصيرة، ودراسة أبو خليل Abu Khalil (١٩٩٤) التي تتناول الجبريّة في خطابات جمال عبد الناصر وصدام حسين، ودراسة الراشد Al-Rashid (١٩٩٤) التي تتناول بلاغة الخطاب السياسي في المملكة العربية السعودية في تسعينيات القرن الماضي. ودراستي وجيه Wageih (١٩٩٤، ١٩٩٦) وتتناولان التفاوض الاجتماعي والسياسي. ودراستي علا حافظ Hafez (١٩٩٩، ٢٠٠٠) وتتناول أولاهما العلاقة بين الخطاب والقوة، والثانية الخطاب الجماهيري وما فيه من التفات وتبادل أدوار، ودراسة الحراصي (٢٠٠٢) التي تتناول الاستعارة المفهومية وتعرّج على التحليل النقدي للخطاب، مع تطبيقات على بعض خُطب الإمام عليّ كرّم الله وجهه، ودراسة رشا خيري Khairy (٢٠٠٠) التي تتناول التعمية وجوانب نحوية ودلالية وتداولية أخرى في لغة فضيحة ووترجيت، ودراسات مزيد Mazid (١٩٩٩، ٢٠٠٤، ٢٠٠٧أ، ب، ٢٠٠٨) وتتناول الأولى التحليل النقدي للخطاب وتطبيقه في تحليل خطاب السادات أمام الكنيست الإسرائيلي وإعلان الاستقلال الأمريكي وأجناس خطابية أخرى، وتتناول الثانية الكلام الجميل والقبيح في خطاب الحرب على العراق، والثالثة التحليل النقدي لخطاب الترجمة، والرابعة الافتراضات المسبقة في خطاب للرئيس بوش في أعقاب الحادي عشر سبتمبر، وتتناول الخامسة صورة بوش وابن لادن في عينة من النصوص الكاريكاتيرية، ودراسة محمد Muhammad (٢٠٠٤) التي تتناول بالتحليل النقدي عينة من عناوين الصحف العربية والإنجليزية، ودراسة ميديا أحمد Ahmed (٢٠٠٧) التي تتناول بالتحليل النقدي لغة الصحف العربية والإنجليزية.

ودراسة أحلام الخطابي Khattabi (٢٠٠٨) التي تتناول التجميل والتقبيح والكلام المزيف المضلل doublespeak في المؤتمرات الصحفية. ودراسة منى سعد Saad (٢٠٠٨) التي تتناول الاستجوابات البرلمانية المصرية من جوانبها النحوية والدلالية وما يتعلق بتنظيم خطاب الاستجواب interpellation إجمالاً. ودراسة برهومة (٢٠٠٨) التي تتناول دور لغة السياسة في تكريس الصور النمطية بين الغرب والشرق، وصراع القيم الحضارية في زمن الثنائيات السياسية، وخطاب الاستعلاء الأمريكي وموقف الآخرين إزاءه.

هذا اضافة الى دراسات مهمة تُعرّف بالاتجاهات الوظيفية والتداولية كما نجد في كتب فضل (١٩٩٢) عن بلاغة الخطاب وعلم النص. أما المقالات الصحفية والإلكترونية – على ما فيها مما يعوق الفهم، ناهيك عن الاستساغة – ففيها ترجمة بعض أفكار النحو الوظيفي، وأفعال اللغة، والمبدأ التعاوني، والكياسة والتأدب. لكنها لم تقارب بعد التحليل النقدي للخطاب، أو تحليل الخطاب السياسي إلا فيما ندر. وتبقى الدراسات الأكاديمية المشار إليها محدودة بحدود أرفف مكتباتها، وحدود من يقبلون على مطالعتها باللغة الإنجليزية.

ليس ضعف الاتجاه النقدي والسياسي في الدراسات اللغوية العربية بمستغرب. بالنظر الى طبيعة الثقافة العربية التي تؤثر السلامة على الصدام و"الصداع". وبالنظر إلى مساحة الحرية الأكاديمية المتاحة للباحثين العرب. هذا بالاضافة الى سوء فهم "النقد" إجمالا، بحيث يصبح مرادفًا للتفتيش عن العيوب. والى ضعف الاتجاه النقدي التحليلي في المنظومة التعليمية العربية. هذا إلى ما يسيطر على كثير من "الدوائر" الأكاديمية العربية من قصر "الدراسات اللغوية" على النحو، والصرف، والأصوات، والدلالة، وماإليها، على مستوى المفردات، والعبارات، والجمل، لا النصوص. وكأنّ الذين يدرسون تحليل الخطاب، والتداولية، والتحليل النقدي للخطاب يهربون من صرامة النحو والصرف والأصوات وعلم المعنى. حقيقة الأمر أنّ الاتجاهات الوظيفية تنطلق من كلّ ما سبق من مستويات التحليل اللغوي، ولا تتوقف عنده، بل تتجاوزه إلى البنى الكبرى، والغايات، والمقاصد، والنصوص في سياقاتها، واللغة كما "يتداولها" البشر وكما "تتداولهم".

نصوص وتطبيقات

بعض ما يرد فيما يلي تحليل، وبعضه هوامش على نصوص، وبعضه مسوّدات تحليل. ولا بدّ أن نعود فنقول مرة أخرى، قبل النصوص والتطبيقات، إنّ ما يصدق على النصوص اللغوية يصدق كذلك على النصوص البصرية. ففي الصور استعارات، وتشبيهات، وتكرار، وحذف، وجناس، وطباق، وهكذا.

(١)

دعاء الفرج

"اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بركنك الذي لا يرام، وارحمني بقدرتك علي، فلا أهلك وأنت رجائي: كم من نعمة أنعمت بها علي قلّ لك بها شكري، وكم من بلية ابتليتني بها قلّ لها عندك صبري. فيا من قلّ عند نعمته شكري فلم يحرمني، ويا من قلّ عند بلائه صبري فلم يخذلني، ويا من رآني على الخطايا فلم يفضحني، ويا ذا النعم التي لا تحصى أبدا ويا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبدا أعني على ديني بدنياي وعلى آخرتي بتقواي، واحفظني فيما غبت عنه، ولا تكلني إلى نفسي فيما حضرت. يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة، اغفر لي ما لا يضرك واعطني ما لا ينقصك. يا وهاب أسألك فرجا قريبا وصبرا جميلا والعافية من جميع البلايا وشكر العافية".

على سبيل التحليل

الدعاء نوع خطابيّ دينيّ يتوجّه فيه العبد إلى ربه بطلب المغفرة، أو العون، أو الرزق، أو هؤلاء جميعا، أو ما عداهم. ولكلّ دعاء سياقاته المختلفة التي تقترن

بمناسبة دينية، أو حاجة إنسانية، أو لحظة حرجة في حياة من يتوجّه بالدعاء. يتلمس الدعاء على عقيدة وإيمان بالله أولاً وبقدرته على تحقيق ما يرد في الدعاء. وللدعاء آداب وشروط - هي بمثابة مبررات نجاعته في نظرية أفعال اللغة كما تقدّم - ومنها الشعور بالافتقار والحاجة إلى الله، والدعاء بما ينفع لا ما يضرّ. غير أنّ شرائط وآداب الدعاء في الإسلام تتجاوز ما نجد من شروط ومقتضيات أفعال اللغة كما ورد من قبل.

من هذه الشروط والآداب ما هو اعتقادي روحي، كالاخلاص لله تعالى، واليقين بالإجابة، وحضور القلب، ومنها ما هو سلوكي أو شعائري، كاستقبال القبلة، والتضرّع، والخشوع، والرغبة، والرهبة، وعدم الاستعجال، والدعاء في الرخاء والشدة، وتحرّي أوقات الإجابة، والمبادرة باغتنام الأحوال والأماكن التي هي من مظانّ إجابة الدعاء، وكثرة الأعمال الصالحة، وردّ المظالم مع التوبة، ورفع الأيدي في الدعاء، والوضوء قبل الدعاء إن تيسر، والتقرّب إلى الله بكثرة النوافل. والبعد عن المعاصي. وأن يكون المأكل والمشرب والملبس وغيرهم من حلال. ومنها ما هو لفظي، كأن يبدأ من يدعو بحمد الله والثناء عليه، ثم الصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم – ويختم بذلك، والجزم، والإلحاح في الدعاء، وألا يسأل الا الله وحده، وعدم الدعاء على الأهل والمال والولد والنفس، وخفض الصوت بالدعاء بين المخافتة والجهر، والاعتراف بالذنب، والاستغفار منه، والاعتراف بالنعمة، وشكر الله عليها، وعدم تكلّف السجع في الدعاء، والدعاء ثلاثاً، وألا يعتدي في الدعاء، وأن يبدأ الداعي بنفسه إذا دعا لغيره، وأن يتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، أو بعمل صالح قام به الداعي نفسه، أو بدعاء رجل صالح له (بعض ما ورد في تلخيص: الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين: "الدعاء". من موقع http://www.elafco.com، بتصرف).

هذه الشروط والآداب، ومعظمها يرقى إلى مرتبة السنن، لأنها وردت عن الرسول صلى الله عليه وسلم، تفسّر كثيرا من خصائص النصّ الذي بين أيدينا، وتحقق له

لصبك، ومنها تكرار المفردات: "صبري" و"شكري". والبنى النحوية: "احرسني بعينك التي لا تنام"، و"اكنفني بركنك الذي لا يرام"، و"فرجا قريبا"، و"صبرا جميلا"، و"على ديني بدنياي" و"على أخرتي بتقواي"، وتكرار صيغة "افعل" التي لا تفيد الأمر، بل الرجاء والتوسل والاستعطاف، وصيغة لا تفعل التي لا تفيد النهي، بل الدعاء والالتماس، وترد مرة واحدة: "لا تكلني". ويحفل الدعاء كذلك بالطباق، والتقابل، والجناس، والسجع: "نعمة" و"بلية"، و"غبت" و"حضرت"، و"قل شكري" "فلم يحرمني"، و"قل صبري" "فلم يخذلني"، و"تضر" و"يضر"، وتنقص" و"ينقص".

ومن كمال الخضوع لله أن المتكلم لا يرد في الدعاء الا مفعولا به أو لأجله: "احرسني" و"اكنفني" و"ارحمني" و"أنعمت بها عليّ" و"ابتليتني" و"يحرمني" و"يخذلني" و"رأني" و"يفضحني" و"اعطني" و"احفظني" و"لا تكلني". في المواضع التي يرد فيها ضمير المخاطب الذي يعود على لفظ الجلالة في موقع المفعول به ("لا تضره الذنوب" و"لا تنقصه المغفرة" و"لا يضرك" و"لا ينقصك") تنتفي الأفعال جميعا. ولا يرد المتكلم في موقع الفاعل إلا في مقام التوسل ("أسألك")، أو مجرد التواجد الذي لا يقع فعله على مفعول به ("غبت" و"حضرت"). أما الأدب مع الله فيتجلى في ذكر بعض نعمه، ومغفرته، وتجاوزه عن المعصية: "فلم يحرمني" و"فلم يخذلني". والثناء عليه عز وجل والإقرار بقدرته: "بعينك التي لا تنام" و"بركنك الذي لا يرام". ورحمته وكرمه: "يا ذا النعم التي لا تحصى أبدا". هذا بالإضافة إلى ما تقدم من صيغ نحوية بلاغية تنسجم مع طبيعة العلاقة بين العبد وربه.

(٢)

بلاغة إسلامية

خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع

تنبيه: لا بد أن نؤكد هنا أن التعامل مع خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم ليس كالتعامل مع سائر النصوص البشرية – وهذا جزء من عقيدة المسلم. لا ينبغي أن نتعامل مع النص بهدف تقليده أو نقده، بل للوقوف على ما فيه من سبك وحبك واستعارات وإشارات وغير ذلك مما ورد في متن هذا التبسيط. وليس مطلوبا ممن لا يؤمنون بما يؤمن به المسلمون أن يتفقوا مع هذا الموقف.

"إن الحمد لله نحمده ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضلّ له، ومن يُضلل فلا هادي له وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير. أما بعد.

أيها الناس، اسمعوا مني أبيّن لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس، إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلغت، اللهم اشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمّي العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإنّ مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية. والعمدُ قَود، وشبه العمد ما قُتل بالعصا والحجر، ففيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس، إنّ الشيطان قد يئسَ أن يُعبد في أرضكم هذه ولكنه رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تُحقرون من أعمالكم. أيها الناس، إنما النسيء زيادة في الكفر، يُضل به الذين كفروا، يُحلونه عاماً ويُحرمونه عاماً، ليُواطئوا عدّة ما حرّم الله، وإن

الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت، اللهم اشهد.

أيها الناس، إنّ لنسائكم عليكم حقا، وإنّ لكم عليهن حقا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلاّ بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرّح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوار لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً. أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئ مالُ أخيه إلاّ عن طيب نفسه، ألا هل بلغت، اللهم اشهد.

فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتابَ الله، ألا هل بلغت، اللهم اشهد.

أيها الناس: إنّ ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربيٍّ على عجميٍّ فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إنّ الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية، في أكثر من الثلث، والولدُ للفراش وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته'

(العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الوراق، ص ص ٤٨٧ -٤٨٨).

الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت، اللهم اشهد.

أيها الناس، إنّ لنسائكم عليكم حقا، وإنّ لكم عليهن حقا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يُدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلاّ بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مُبرّح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوار لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا. أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئ مالُ أخيه إلاّ عن طيب نفسه، ألا هل بلغت، اللهم اشهد.

فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم أعناق بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتابَ الله، ألا هل بلغت، اللهم اشهد.

أيها الناس: إنّ ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربيّ على عجميّ فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إنّ الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية، في أكثر من الثلث، والولدُ للفراش وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1]

(العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الوراق، ص ص ٤٨٧-٤٨٨).

الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض. وإن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق، السموات والأرض. منها أربعة حرم. ثلاثة متواليات، وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت، اللهم اشهد.

أيها الناس، إنّ لنسائكم عليكم حقاً، وإنّ لكم عليهن حقا، لكم عليهن أن لا يُوطئن فرشكم غيركم، ولا يُدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلاّ بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مُبرّح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وانما النساء عندكم عوار لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً. أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئ مالُ أخيه إلاّ عن طيب نفسه، ألا هل بلغت، اللهم اشهد.

فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتابَ الله، ألا هل بلّغت، اللهم اشهد.

أيها الناس: إنّ ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربيّ على عجميّ فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إنّ الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية، في أكثر من الثلث، والولدُ للفراش وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"

(العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الوراق، ص ص ٤٨٧ -٤٨٨).

على سبيل التحليل

هذا نصٌ من النصوص المحورية في الثقافة الإسلامية - خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم في آخر عام حجّ فيه قبل انتقاله إلى ربه عز وجل. في النصّ ما في جنس الخطبة من فاتحة دينية، واستغفار، وشهادة، ودعاء، وحلال وحرام، وترغيب وترهيب، وشيء من سرد قليل في الحديث عن ربا الجاهلية. وفيها مفردات دينية تتعلق بالمعتقدات، والعبادات، واقتباسات من القرآن الكريم، وفيها أحكام وتعاليم تتناول حرمة الدماء والأشهر الحُرُم، والوصية بالنساء، والمواريث، والنسب، والتقوى كعلامة فارقة، والحقوق والواجبات المتبادلة بين الزوج والزوجة، وبين المؤمنين كافة، وتأكيد على المساواة بين البشر إلا فيما يميز بعضهم من بعض من تقوى.

سياق النصّ هو مكانه في مكة المكرّمة، وزمانه حجة الوداع، والعلاقة بين المتكلم والمتلقي هي علاقة سمع وطاعة واقتداء، ولعلّ هذا يفسّر ما نرى في النص من سلطة التقرير، والتعليم، والأمر والنهي، وهي سلطة إيجابيّة، ليست من قبيل القمع، أو القهر، أو التلاعب بالعقول، لأنّ غايتها هي صلاح أمر المسلمين من خلال طاعة الله عز وجلّ، وتزكية النفس، وتحقيق العدل، وعمارة الأرض.

أمّا أدوات النص لتحقيق غاياته البلاغيّة والتبليغيّة فسترد الإشارة إلى بعضها فيما يلي، وقد تقدّم الكلام عن جنس النص وموضوعاته، غير أنّ من العسير الوقوف على نغمة الخطبة أو إيقاعها إلا من خلال ما نجد من نص مكتوب، وما نعرف عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن سياق الخطبة كما نرى فيما يلي من ملاحظات عابرة على نصّ مهم.

تشتمل الخطبة فاتحة دينية تقليدية توارثها الخطباء والدعاة المسلمون عن الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى أصبحت قالبا خطابيّاً أثيراً، وفيها الحمد والاستغفار، بما يرسّخ الانتماء إلى الله، وفيها القسمة الخالدة بين المهتدين والضالّين، والشهادتان

بما يرسّخ الانتماء إلى الإسلام، ثم النصيحة بتقوى الله وطاعته. يلي ذلك لفت انتباه المتلقي من خلال النداء "أيها الناس"، والأمر "اسمعوا مني". وتحديد غاية غايات الخطاب -"أبيّن لكم" – وتبرير أهميته –"لعلي لا ألقاكم". ثم ترد مجموعة من التعابير الإشارية المهمّة يتكرّر فيها اسم الإشارة "هذا" للقريب، فيحيل إلى وقت حجّ الرسول صلى الله عليه وسلم، وإشارة إلى المستقبل على سبيل الظن "لعلي لا ألقاكم...". تكتسب التعابير الإشاريّة دلالتها هنا من معرفة المتلقي ما تشير إليه والأرضية الاعتقادية التي يقف عليها خلف الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي حرمة ما ورد في الخطبة، حرمة الزمان والمكان المشار إليهما.

وفي النصّ من التوازي التركيبي ما يوحي بتبادل الحقوق والواجبات في "لكم عليهن" و"لهن عليكم"، وكثير من التكرار كما في "الا هل بلغت..." للتحقق من بلوغ الرسالة، و"أيها الناس" للتنبيه، وفيه اقتباسات من القرآن الكريم منها "إنما النسيء زيادة في الكفر" و"إن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض". تحتشد في الخطبة كذلك الجمل التقريرية اليقينية وكيفيّات الالزام من أوامر وفروض وتعاليم وتحليل وتحريم، بما يناسب المقام ويناسب علاقة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمسلمين ويناسب أغراض الخطاب وغاياته.

في الخطبة ما يبرز الإلحاح على تحقيق غاياتها من حيث زمانها قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وموضوعاتها التي لا يصلح بغيرها أمر المسلمين. من هنا كان التكرار وحشد الأحكام والتعاليم والوصايا والاستشهاد بالله واشهاده عز وجلّ على اداء المهمة في العلاقة التواصليّة – علاقة الوحي ثم التبليغ - التي ينطلق منها النص بين المسلمين وخالقهم ورسوله صلى الله عليه وسلم.

عن الإقناع في البلاغة الإسلامية

"لماذا لم تتطوّر في البلاغة الإسلامية نظرية متكاملة في الإقناع؟
ربّما لأنّ الوحي هو مدار الإقناع وهو معيار ما للكلام أو الخطاب من تأثير في تلك البلاغة. إنّ الرسالة السماوية، وهي كلام الله المعجز، تحقّق الإقناع. لا من خلال بنية بلاغية إقناعية، أو من خلال بلاغة خطيب متمرّس، بل من خلال ما فيها من كمال التوحّد والانسجام بين الحقّ والجمال. وإذا لم يتحقّق الإقناع، فليس الخلل في تلك الرسالة، بل في أداة تلقيها، ألا وهي القلب. فالرسالة قد نزلت في أكثر أشكال البلاغة كمالاً واكتمالاً، ونعني بها القرآن. وهو ما يشير بوضوح إلى أنّ التقصير عن إدراك كلام الله مردّه إلى عجز الفرد أو المجتمع عن السمع أو زهدهما فيه.
إنّ العجز عن سماع كلام الله من العلامات التي تميز الشياطين وأهل النار من البشر: "... لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها.." (الأعراف، الآية ١٧٩).
وعندما يستجيب البشر لكلام غيرهم أو لكلام الله، دون سلبيّة أو تقصير. فإنّ فعل الاستجابة يختصّ به السامع، على معنى أنّ السمع أو الاستماع ليس مجرّد استقبال سالب تلقائي، بل هو نوع من الفعل: أنا اسمع أو أستمع، إذن أنا أفعل. لهذا السبب، لا تتطلب الرسالة السماوية في العقيدة الاسلامية خطيباً بليغاً. بل مستمعا واعيا يستطيع أن يسمع ما يصل إليه من كلام الله. فبلاغة الرسالة وكمالها وإعجازها بما يستعصي على الترجمة تكمن في ذاتها لا في بلاغة من ينقلها أو يبلغها.." (هيرشكند Hirschkind، ٢٠٠٦، ص ٥٠).
يؤكد هذا الاقتباس على حقيقة مهمّة، وهي أنّ الاستماع فعلٌ كالكلام، وربّما يتجاوزه في الأهمية في بعض المواضع. وهو هكذا خصوصا في ثقافة صوتيّة في كثير من تجلياتها. ويثير الاقتباس كذلك عددا من القضايا تتعلق بالفروق الجوهرية بين الإقناع الذي يقوم على الاستشهاد والاقتباس، والإقناع الأرسطي الذي يقوم على المحاجّة واستثارة مشاعر من قبيل الخوف أو الشفقة pathos وتقديم الدليل العقلي logos والتأسيس لمصداقية المتكلم ethos.
لا ينبغي أن نقع في أشراك القولبة التي تصنّف الثقافات إلى عقلية مادية وروحية نقلية، وتنحاز إلى بعضها دون بعض. فتُقصي الوحي لحساب العقل - وكأنّه يعجز عن مخاطبته - أو تُسفّه العقل لحساب النقل.
وهذا مقال لا قِبل لمقام التبسيط الراهن بالإحاطة به من جميع جوانبه.

(٣)

خطابة سياسية إسلامية

من خطبة لأبي العباس السفاح بالشام

"خطب أبو العباس عبدُ الله بن محمد عليّ، لما قتل مروان بن محمد، فقال: ألـم تـر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار. جهنم يصلونها وبئس القرار. نكص بكم يا أهل الشام آل حرب، وآل مروان، يتسكعون بكم الظلم، ويتهوّرون بكم مداحض الزلق، يطؤون بكم حَرم الله وحرم رسوله، ماذا يقول زُعماؤكم غدا؟ يقولون: ربّنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار. إذا يقول الله عزّ وجلّ لكلٍّ ضعف ولكن لا تعلمون. أمّا أميرُ المؤمنين، فقد ائتنف بكم التوبة، واغتفر لكم الزّلة، وبسط لكم الإقالة، وعاد بفضله على نقصكم، وبحلمه على جهلكم، فليفرخ رَوعكم، ولتطمئنّ به داركم، ولتعظكم مصارعُ أوائلكم. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا" (العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، نسخة موقع الوراق، ص ٥٠٨).

على سبيل التحليل

لا بدّ أن يتأسّس تحليل خطاب كهذا على وصف مفصّل للسياق بما يشمل المتكلم. أول الخلفاء العباسيين، والقتيل – مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أميّة - وأهل الشام وآل حرب وآل مروان، وما كان يجمع أو يفرّق بين هؤلاء جميعا، وكذا الحضور الذين توجّه إليهم المتكلم بالخطاب، والظروف السياسيّة والاجتماعية التي أحاطت به. أما غايات الخطاب فتشمل التوبيخ –"بدّلوا نعمة الله كفرا" - ثم الإبلاغ بالعفو -"أمّا أمير المؤمنين ... اغتفر لكم الزلة ..." - والدعوة إلى الاعتبار –"و لتعظكم مصارع أوائلكم". وفي الإبلاغ بالعفو جملة أفعال كلاميّة: قبِل توبتكم وغفر زلتكم وأقال عثرتكم وتفضّل عليكم وقابل جهلكم بحلمه. وفي الائتناف والاغتفار مجاهدة ربّما لأنّ الذنب كان عظيما.

في النصّ ثلاثة اقتباسات من القرآن الكريم، لا ترد ناتئة أو مقحمة، بل جزءًا من نسيجه. وكأنّ المتكلم يريد أن يقول إنّ الآيات المقتبسة قد نزلت في أهل الشام ومن "نكص بهم" من آل حرب وآل مروان:"ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا ..."، و"ربّنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار"، و"فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا". إذا كانت القاعدة التفسيرية الإسلامية تقول إنّ العبرة بعموم اللفظ وليست بخصوص السبب، فإنّ ما أراد المتكلم لجمهوره في ذلك السياق هو التسليم بأنّ ما وقع منهم ومن آل حرب وآل مروان يندرج تحت تبديل "نعمة الله كفرا"، وغير ذلك مما يرد في بقية الاقتباسات. (ويبدو أنّ هذه الوسيلة من سمات كثير من الخطب السياسيّة، فقد شبّه بوش صدام بهتلر، وشبّه حسن نصر الله إسرائيل بفرعون وحاشيته، كما نجد في خطابه في تطبيق لاحق في هذا التبسيط)

ليس هذا الخطاب الموجز فريداً في باب توظيف السنّة والحكم القرآن الكريم لتحقيق غايات بلاغيّة سياسية في العالم العربي والإسلامي. حتى الذين لا يطبّقون ما فيه من أحكام يلوذون به ليضمنوا تعاطف عامّة المسلمين. أليست الآيات القرآنية والأحاديث النبويّة الشريفة وسيلة من أكثر وسائل الدعاية الانتخابيّة نجاعة في العالم الاسلامي؟ لقد ظلّ الدين سلاحا مؤثرا فعّالا في يد الساسة والحكّام بطول العالم العربي الإسلامي وعرضه، في ماضيه وحاضره، يستميلون به القلوب، وربّما يتلاعبون بالعقول، ويضمنون تأييد الرعيّة، ويجيّشون به الجيوش، ويستنزلون به نصر الله، حتى وهم يتقاتلون فيما بينهم.

وفي نصّ أبي العبّاس ثنائيات لافتة تميز معسكر أمير المؤمنين – حيث الحكمة، والإيمان، والانحياز إلى جانب الله، والعفو، والكرم، والفضل، والحلم - من معسكر الخارجين من أهل الشام ومن ضلّلهم من آل حرب وآل مروان – حيث نكص العهد، والتدمير، والتمكّع، والتهوّر، والاجتراء على حرمات الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والتضليل، والضلال، والنقص، والجهل. تتحقق القطبيّة أو الثنائية في الخطاب من خلال الترادف والسجع بين مفردات الانحراف عن جادّة الطريق والخروج على

الحكم في "يتسكعون" و"يتهوّرون" و"يطوون" و"أضلونا". ومفردات العفو والفضل والحلم في معسكر أمير المؤمنين، وما بين هاتين المجموعتين من المفردات من تقابل. بين "الزلة" و"غفر"، وبين "فضلة" و"تفصكم"، وبين "حلمة" و"جهلكم". وهكذا. ويبقى على من ضلوا وجهلوا أن تعظهم مصارع أوائلهم – وفي هذا استعارة فعل بشريّ هو الوعظ والتعليم للكلام عن المصارع – فما أشبه الليلة بالبارحة!
سوف تظلّ تلك الثنائيات سمة جوهرية من سمات الخطاب السياسي. وليس من غايات تحليل هذا النوع من الخطاب استخلاص أحكام تنحاز الى طرف على حساب غيره. من حقّ من يدرس الخطاب السياسي أن تكون له تحيّزاته وميوله. فهو في نهاية الامر بشر، لكن ليس من وظائفه أن يقضي بين أطراف الصراع. إنّ غاية التحليل والدراسة في هذا الصدد هي الوقوف على ما في الخطاب من صراع، وجدليات، وطرائق التعبير عنها، ووسائل تبريرها، وما يمارس الخطاب من تجميل وتقبيح، وإسباغ شرعيّة على النفس وتجريد المناوئين منها.

الدّعاية في التراث الإسلامي

يلفت برنارد لويس Lewis (٢٠٠٤) النظر إلى العلاقة الاشتقاقية بين مفردات "الدّعاة" و"الدعوة" و"الدعاية" و"الإدّعاء" و"المدّعي" و"الدّعي" و"الداعية"، حيث ترد جميعها من أصل واحد هو الفعل الثلاثي "د ع و". غير أنه – وهو المستشرق المشهور – يعرف أنّ بعض هذه المفردات سالب مستهجن، وبعضها مقبول وإيجابي، على أساس ما يتحقق للمتلقي من خير أو شرّ، وما يعمد إليه المتكلم أو الكاتب من صدق أو تحايل في الوصول إلي غايته البلاغية. بعد هذا التأسيس، يُعرّج المستشرق على مراحل شتى في تاريخ الدعاية في الثقافة الإسلامية. فيتوقف عند الدعاية لبني العباس في مواجهة بني أمية، وأغراض الفخر والهجاء والمديح في الشعر العربي، وفيها ما فيها من دعاية للشاعر وقبيلته، وتشويه للخصوم والمناوئين والمنافسين، وتمجيد من يحظون بالمديح. وهذه فصول مهمّة في البلاغة العربية تستلزم وقفات تداولية عميقة مستفيضة.

(٤)

من أصداء السيرة الذاتية لنجيب محفوظ

"في صباي مرضت مرضا لازمني بضعة أشهر. تغير الجو من حولي بصورة مذهلة وتغيرت المعاملة. ولت دنيا الإرهاب، وتلقتني أحضان الرعاية والحنان. أمي لا تفارقني وأبي يمر عليّ في الذهاب والإياب. وأخوتي يقبلون بالهدايا لا زجر ولا تعيير بالسقوط في الامتحانات. ولما تماثلت للشفاء خفت أشد الخوف الرجوع إلى الجحيم. عند ذاك خلق بين جوانحي شخص جديد، صممت على الاحتفاظ بجو الحنان والكرامة. إذا كان الاجتهاد مفتاح السعادة فلأجتهد مهما كلفني ذلك من عناء، وجعلت أثب من نجاح إلى نجاح، وأصبح الجميع أصدقائي وأحبائي. هيهات أن يفوز مرض بجميل الذكر مثل مرضي" (نجيب محفوظ: دينٌ قديم من أصداء السيرة الذاتية، ٢٠٠٦).

ظروف وأحوال

هذه شذرة محكمة بليغة من شذرات أصداء سيرة نجيب محفوظ الذاتية. تتكئ الشذرة على الطباق بين حالين والترادف بين عناصر كل من الحالين، بين "الإرهاب" و"الزجر" و"التعيير بالسقوط في الامتحانات" و"الجحيم"، من ناحية، و"الرعاية" و"الحنان" و"لا تفارقني" و"يمر عليّ" و"الهدايا" و"السعادة" و"النجاح"، من الناحية الأخرى. إشارتان زمنيتان تلفتان القارئ إلى لحظتين فارقتين في حياة المتكلم في النص –"في صباي" و"عند ذلك". أمّا الحدث فهو المرض الذي لازمه شهورا – "مرضت". ما تزامن مع المرض من سلوك ودود رحيم ورعاية وعناية –"تغير الجو من حوليّ" - أنتجت وعيا وإدراكا –"خلق بين جوانحي شخص جديد" – وعزما –

"صممت على الاحتفاظ بجو الحنان والكرامة" – وخبرة تصبح منهج حياة –"إذا كان الاجتهاد مفتاح السعادة فلأجتهد مهما كلفني ذلك من عناء" – ثم فعلا إيجابيا يتكرر حتى يصبح عادة –" وجعلت أثب من نجاح إلى نجاح".

لقي الصبي صداقة ومحبة هذه المرة أيضا لكن لأسباب مختلفة. في المرض كان الصبي موضع عطف وشفقة، ولم تكن له يد أو اختيار – بل كان مجرد مريض متابع يقع عليه فعل الرعاية ويحظى بصنوف العطف –"تلقفتني"،"لا يفارقني"،"يمرّ عليّ"، "يقبلون بالهدايا (عليه)". حين يتحقق الوعي، يصبح الصبي قادرا على اتخاذ القرار، بل على تحقيق النجاح مرة إثر أخرى، في نشاط وحيوية وإرادة –"أثب". وفي "الوثب" استعارة السلم الذي يرقى إلى أعلى، أو الطريق الذي يحفل بالصعاب والعقبات، وكناية عن القوة والحيوية. فلماذا لا ينكر المرض بكل الخير إذا كان قد حقق الوعي وامتلك القدرة على الفعل بسببه؟ غير أنّ المرض لم يكن هو العامل الفاعل، بل كانت الرعاية والاهتمام وقد حلا محل"الإرهاب".

لا بد أنّ اختيار نجيب محفوظ"الشذرة" نواة لأصداء سيرته الذاتية كان مقصودا. والحال هكذا في عموم الخطاب الإنساني حيث يصبح الإطار frame الذي ينقل التجربة والخبرة الإنسانية جزءاً مهماً منها وأداة مؤثرة في نقلها. لعل محفوظ أراد لخبراته وخلاصة تجربته أن تنتقل إلى المتلقي في نصوص مركزة مكثفة تحفل بالرمز والمجاز وتتعدد فيها طبقات المعنى. ومن اللافت كذلك تحولّ العلاقات في هذا النص القصير المُحكم من إرهاب وقهر إلى رعاية وعناية. ليس هذا كل ما يمكن أن يقال عن التأطير framing أو تحولّ العلاقات والانحيازات والموقف خلال التفاعل اللغوي footing – وهما مفهومان بالغا الأهمية من ميراث إرفنج جوفمان في التحليل النقدي للخطاب، إذ يشير الأول إلى الزاوية التي ينطلق منها الخطاب والإطار الذي يختاره منتجه من جدّ أو هزل أو سخرية أو غير ذلك. ويشير الثاني إلى تبدّل الأحوال والعلاقات أثناء التفاعل اللغوي وما ينجم عن ذلك من تحوُلات في المفردات والأسلوب وغير ذلك، بل وما تلعب اللغة من دور في تجسيد هذه التبدُلات والتحوُلات.

(٥)

خطاب الكرة

إعلام المسيار ومتعب والزمالك!!

عبدالعزيز أبوحمر، المصريون، ٢ يونيه ٢٠٠٨

لم يكن مسئولوا الإسماعيلي فقط هم الذين اخترقوا حرمة معسكر المنتخب الوطني قبل المباراة الهامة أمام الكونغو، بل فعل ذلك أيضا عبر الهاتف فتاة تكتب في أحد المواقع الجماهيرية الإلكترونية، لتجري عشية اللقاء حوارا قال فيه عماد متعب مهاجم الأهلي كلاما في حق نادي كبير لا يجوز من لاعب بنادي كبير وبالتبعية يفترض أنه لاعب كبير. وإذا صدق ما كتب على لسان متعب من أن الحالة الوحيدة التي يمكن أن ينتقل فيها الزمالك هي أن يصاب بمس من الجنون وفقدان الوعي، فإن ذلك يشكل إساءة مباشرة للزمالك تضاف لإساءات كل من هب ودب للقلعة البيضاء في العهد الميمون للضارب بالدف. ولا أدري ما ذنب الزمالك. وما فائدة هكذا تصريح وماذا سيضيف كلام ينضح بالغباء للاعب ينتمي للنادي الكبير الذي يجب أن يعاقب لاعبه صغير العقل مثلما يجب على المسئولين بالمنتخب اتخاذ إجراء ضد متعب على أساس أن هذا الحوار – إن صدق - تم ليلة مباراة الكونغو. وإجمالا فإن دخول الجنس اللطيف من المشجعات إلى غمار الإعلام الرياضي الالكتروني الجماهيري يطرح علامات استفهام عديدة. وذكرني حوار المتعب باشا بتصريح كان الوحيد والأوحد لشوقي باشا عندما كان يجري الاختبارات في نادي ميدلزبره الإنجليزي الصيف الماضي، وهو التصريح الذي نشر هو الآخر في موقع من المواقع الجماهيرية. وكتبته أيضا فتاة بدرجة مشجعة.. والمعنى أن الباشايين لم يردا الا على فتاتين!!.. وحتى لا يتهم أحد العبدلله بأنه معادي للأنثوية. فما أضع تحته خطا هو

التداعيات السلبية المحتملة لتحول المشجعات إلى إعلاميات مسيار كحل مؤقت لضمان رد لاعب (روش) في زمن النجومية المطلقة مثل متعب على الهاتف.. والعبد له يطالب حسام البدري مدير الكرة بالأهلي بالتحقيق في الواقعة أو حتى الاستفسار من لاعبه عن صحة هذه التصريحات الغبية.. والعبدله يطالب حسن شحاته بتفسير حول إدلاء لاعب في المنتخب بتصريحات ضد نادي منافس (لمشجعة) عشية لقاء دولي هام ظل فيه اللاعب طيلة ٩٠ دقيقة تائه يبحث عن الكرة بعيدا عن المكان الذي تتواجد فيه الكرة!!.. والحقيقة أن الإعلام الإلكتروني الجماهيري المحسوب على الأندية ليس فقط الذي يفتح أبوابه للمشجعات المسيار. فالكثير من أصحاب الأقلام الكبيرة تحولوا كذلك إلى (إعلاميين بدرجة مشجعين) يروجون للتعصب والتغييب، وباتت لا ترى أعينهم إلا لون واحد. فلا كلمة حق ولا منطق ولا بصيرة تحكم ما يقولون. وأصبح الوسط الكروي يغص بمثل هذا النوع الرديء من أصحاب الأقلام الحنجورية التي لم تفلح أساليبهم الرخيصة إلا مع حفنة من المغيبين.. كفانا الله وإياكم شر أصحاب أقلام المشجعين.. المسيار والكبار!!

كلمة أخيرة: الخجل فضيلة.. يجهلها أصحاب الأوجه المكشوفة..

على سبيل التحليل

في هذه المقالة، عدد لا بأس به من الأخطاء النحوية والإملائية، والتراكيب الركيكة التي يجد القارئ تحت بعضها خطوطا، وفيها لبس بين "الخجل" و"الحياء"، لأنّ الخجل ليس فضيلة على الإطلاق، بل هو تأخر في النمو الاجتماعي والنفسي. لكنّ الغاية هنا ليست التصيد، بل التعليق على بعض جوانب "خطاب الكرة" football discourse وما يتصل به من خطاب إعلامي وجماهيري في ضوء بعض ما ورد في التبسيط من مفاهيم ونظريات.

سياق المقالة – التي تأتي في أعقاب مباراة مصر ضد الكونغو في التصفيات المؤهلة إلى كأس العالم في جنوب إفريقيا عام ٢٠١٠ - هو "الوسط الكروي" في مصر. وما يحفل به من صراعات، وتصريحات، وتصريحات مضادة بين نقاد الفرق المتصارعة، ولاعبيها، وجماهيرها.

من المناسب، ونحن نتناول هذا النص الذي ينتمي إلى خطاب الكرة وما يتصل به من خطابات، أن نتناول السبك والحبك وطرائقهما، والاستعارات المهمة، والتجميل والتقبيح والمربع الأيديولوجي، وتعابير الكياسة والتأدب ونقائضهما.

أما السبك فيتحقق باستخدام أدوات الربط وتكرار عدد من المفردات والعبارات – "العيد ده" وتكرار "الكرة" على ثقله في "يبحث عن الكرة بعيدا عن المكان الذي تتواجد فيه الكرة"، و"كبير" (مقاما ومنزلة لا سنا) – والجناس –"المغيبين" و"التغييب"، و"باشا" و"الباشيين" – والطباق –"الخجل" و"المكشوفة" – والحقول الدلالية –"انثوية" و"روش" و"مسبار"، إضافة إلى المفردات الكروية. والمقالة لا يعوزها الحبك، على ما فيها مما يمكن أن نتحفظ عليه، فهي تمهد الطريق بلفت الانتباه إلى "اختراق" – اختراق "حرمة" معسكر المنتخب قبل لقاء دولي مهم. واختراق أعراف رياضية أخلاقية. ثم تروي المقالة ما حدث، وتلجأ إلى التناص باقتباس بعض ما قال اللاعب تحقيقا لقاعدة الصدق وتجنبا لمتاعب الاتهامات غير المبررة. بعد السرد يأتي التقييم، أو توضيح موقف الكاتب مما حدث، وهو موقف معارض كاره. وحتى لا يبدو الموقف "شخصيا"، يسوق الكاتب تبريره خطورة ما حدث بينما كان الفريق القومي في "حرمة" يتأهب للقاء دولي مهمّ في تصفيات كأس العالم، حلم "الأمة" وغايتها الكبرى – وكأنها "فتنة" في زمن "حرب". الاختراق وإثارة الفتنة في مثل هذه الظروف جريمة لا ينبغي السكوت عليها – وهي ليست الحالة الوحيدة الفريدة فقد سبقتها أخرى مماثلة. من هذا المنطلق، تصبح "مطالب" الكاتب الصحفي منطقية، وهكذا تتحقق لفعل المطالبة مشروعيته وربما نجاعته. في النهاية يلاحظ الكاتب أنّ الوسط الكروي "إجمالا" يشكو من التعصب والانحياز وما ينجم عنهما من تغييب وعمالة وظلم. ثمّ الدعاء إلى الله أن يكفي الكاتب ومن آزره من القراء شر الأقلام المنحازة الداعرة

1

عن خطاب الكرة

من تداعيات الحداثة وما بعدها، وربما من مُبرِّراتها. انهيار الحدود بين "النخبـوي" و"الشعبي" أو الجماهيري، بين المتـون والهـوامش، بـين المركـز والأطـراف أو "الضواحي" الثقافية واللغوية – بين اللهجات المحلية واللغات الرسمية، بين الأغنيات والأغنيات، في غناء "شعبان عبد الرحيم" عن القضية الفلسطينية وأزمـة "الرسـوم المسيئة" وغيرها، وفي "استلهام" إحدى أغنيات "أم كلثوم" في فيلم لـ "محمـد سـعد"، وهكذا. وفي تداخل الأنواع الأدبية وتشرّبها بالحياة المعيشة. غير أنّ الأمر لم يقـف عند هذا الحد. فقد حلت الهوامش محل المتون. وأصبح "الجماهيري" يحظى بالاهتمام والحفاوة والتغطية والمتابعة والتحليل والتعليق، وانزوى "النخبوي" في أركان الحياة وهوامشها. قارن مثلا بين التغطية الإعلاميـة، والتحليـل، والتعليـق، واللقـاءات، والمؤتمرات الصحفية، والأغنيات، والشعارات، والمسيرات التي تصاحب مباراة مهمّة في كرة القدم أو "حفلة" لمطرب أو مطربة، وبين ما يصاحب مؤتمرا علميا أو مناقشة رسالة أكاديمية.

لم يعد هناك بدٌ لدراسات الخطاب مـن أن تعتـرف بـالتحول دون أن تتخلـى عـن انشغالاتها التي تراها مهمّة، لأنّ التحليل النقدي للخطاب ليس نخبويا بطبعـه. وفـي الاعتراف لا بد أن تبقى تلك الدراسات بعيدة عن شَرَك التعصّب والتصنيف والاتهام، لأنّ من يهرولون وراء الرياضة والفن بشر كالبشر، ميـولهم ليسـت كميولنـا، ولا أولوياتهم كأولوياتنا، ولا قيمهم كقيمنا. إذا جاز لمن ينشغل بالثقافة والفكر أن يحتقر من ينشغل أو يشتغل بالفن أو الرياضة وما يتصل بهما، فمن حقّ أهل الفن والرياضة وما يتصل بهما أن يتهكموا على أهل الفكر والثقافة. ولكلٍّ أسبابه وقوته وأسلحته. وفي الحرب كل شيء مباح.

الموتورة، ثمّ الحكمة الختامية عن فضيلة "الخجل" التي لا يعرفها أصحاب "الوجوه المكشوفة".

ها هو الكاتب يقف إلى جانب الفضيلة والخجل، وينحاز إلى القيم الدينية، يدافع عن "حرمة" المنتخب قبل اللقاء المهم، ويتحدث بلسان "الحق" و"المنطق" و"البصيرة" وهو يطلب بمحاسبة من آثار الفتنة. من هذا المكان، يكتب ضد "كل من هب ودب" في "العهد الميمون" "للضارب" "بالدف"، ضد كلام "ينضح بالغباء". ولاعب "صغير العقل" - "المتعب باشا" الذي "تاه" طوال المباراة المذكورة - و"شوقي باشا". وهما لا يجيبان إلا الفتيات، وضد "تصريحات غبية"، و"إعلاميات مسيار" و"مشجعات مسيار"، و"إعلاميين بدرجة مشجعين".

لا يعرفون "الحق" ولا "البصيرة" ولا "المنطق"، لا تصلح أساليبهم إلا مع "المغيبين". لا يتوقف الكاتب الصحفي عند ثنائية الخير والشر، الحق والباطل، الزواج الشرعي وزواج المسيار، وتجميل "الأنا" مع تقبيح "الآخر"، بل يتجاوز ذلك إلى تكريس خطاب الكرة بوصفه "كلاما كبيرا" يليق أن تستعير له "الحرمة" و"المسيار" و"التغييب"، وأن تعبّر من خلاله عن معتقداتك ومواقفك الفقهية من زواج المسيار – ومن الواضح أنّ الكاتب لا يعتبره زواجا شرعيا، بل مجرّد زواج مؤقت لتحقيق غايات دنيوية مؤقتة، تشبه استخدام فتيات لجذب نجوم الكرة المعروفين "بالروشنة" - مع الاعتذار لمجامع اللغة العربية - وإقناعهم بإجراء حوار.

ومن نفس المكان، وحتى يتحقق التجميل والتقبيح يعمد الكاتب -"العمد ذة". على سبيل التواضع - إضافة إلى ما سبق، إلى تأكيد براءته من معاداة الأنثوية – ولعله يقصد feminism – وتأكيد أنّ ما يقول هو "الحق" و"الحقيقة" فذا "صدق" ما ورد عن اللاعب. في الاتجاه المعاكس، يعمد الكاتب إلى تشويه اللاعب، وإعلام المسيار، ونقاد التغييب، و"الأقلام الحنجورية"، على سبيل الاستعارة. فلا نجد إلا الحد الأدنى من الكياسة على سبيل السخرية في "العهد الميمون" و"باشا". والتعتيم وتفادي الصدام في "الضارب بالدف". والتكريم في "القلعة البيضاء". التي تشير على سبيل الاستعارة إلى نادي الزمالك، خصم النادي الأهلي الذي ينتمي إليه اللاعب "متعب".

لقد أصبحت الهوامش والفروع، بل فروع الفروع، تشغل الناس عن الأصول والقضايا التي تستمر بها حياتهم. لن نُقارن بين استقبال رسمي لفريق كرة قدم فاز ببطولة وبين استقبال عالم كبير حصل على جائزة علمية عالمية مرموقة. لأنّ المقارنة تُفسّر عادة على أنها نوع من الحسد والغيرة من قبل المشتغلين بالثقافة. فما معنى أن ينشغل الناس بالفن وبالكرة عن مشكلاتهم الأسرية، وعن أعمالهم ودراستهم، وتطوير مهاراتهم وقدراتهم، وتنمية ملكاتهم، وعن مشكلات أبنائهم وبناتهم، و"رغيف الخبز" الذي عزّ ونذر، وانهيار التعليم، وانتشار الفساد، وتراجع الجامعات العربية في وجه غيرها من جامعات، شرقا وغربا وشمالا وجنوبا؟ من اليسير أنْ نقع في شرك الخطابة هنا، لكنّ السؤال مشروع ومطلوب.

ومن اللافت أنّ "الفنّ" و"الكرة" - وقد أصبحت لهما مؤسساتهما، ومنظماتهما، وقوانينهما، وشرّاحهما، ومحللوهما، ومؤرّخوهما، ومنظّروهما – قد جاوزا مرحلة الهزل أو الهواية والتسلية إلى مرحلة الاحتراف والمهنيّة. ولعلّنا نلاحظ التحوّل المنتظم في كل الثقافات على نطاقات محليّة وعالمية في التعامل مع الفن والرياضة بوصفهما "عيبا" لا ترضاه الأسر "العريقة" أو "انحرافا" أو "مضيعة للوقت"، إلى أمر وقّع على الأسرة والمحيطين التكيّف معه، ثمّ إلى مصدر سعادة وأموال وشهرة. وفي النهاية إلى نماذج يحتذيها الصغار ويحلمون بها، إلى "طريق إلى المجد" وسماء من "النجوم" و"الكواكب" وأرض تحفل بما لا حصر له من "أصنام" – والكلمة ليست لي، بل من البرنامج الأمريكي الشهير American Idol - تتفوّق في شهرتها ونفوذها وتأثيرها وبريقها وثرواتها على "اللات" و"العزى" و"هبل" و"مناة"، و"يغوث" و"يعوق" و"نسر"، و"أفروديت"، وغيرها ممن سكن جبال الأوليمب. فكيف لا تتفوّق على مُفكّر أو باحث أو مُدرّس؟

هناك محاولات للتوفيق أو التوافق ولتضييق المسافات والتقريب بين المتون والهوامش، وأخرى لرد الاعتبار إلى الهوامش التي كانت متونا وخسرت البشرية كثيرا جرّاء تهميشها. نجد ذلك في المبادرات المهمة لتقديم الثقافة "الرفيعة" من نقد

شعر ورواية وقصة ومسرحية وغيرها عبر قنوات فضائية ومواقع إلكترونية. وفي الجوائز التي أصبحت تمنح للمفكرين والكتاب والمثقفين. وهناك محاولات توفيق، أو تلفيق، نجدها في استخدام بعض -"بعض" - الدعاة أساليب فنية وتمثيلية. وربما غنائية، في خطابهم الديني، ونجدها في تقرّبهم وارتباطهم بأهل الفن والرياضة والإعلام. وهناك محاولات جادّة – غير أنّها نادرة وليست رائجة - لاستخدام الفن والرياضة لتحقيق غايات "نبيلة" كانت منوطة بغير أهل الفن والرياضة – كجمع التبرعات والدعوة إلى التعاطف مع "المقهورين" و"المظلومين" في الأرض.

لقد أصبحت كرة القدم محور انشغال الملايين، وتشجيعهم، وصخبهم، وولعهم، وجنونهم أحيانًا، وأصبحت لها صحف ومجلات، ومواقع إلكترونية، وطوّرت خطابها الخاص -"خطاب الكرة" أو "خطاب كرة القدم". في هذا الخطاب استعارات تنتقل من مجال الحرب والصراع والقتال إلى مباريات كرة القدم، وغيرها من أنواع الرياضة، كما نجد في "معسكر"، و"خط الدفاع"، و"الهجوم"، و"التغطية"، و"الاختراق"، و"التسلل"، و"خطة هجوم"، و"خطة دفاع"، و"دك حصون الخصم"، و"قذيفة مدوية"، و"الهدف"، و"المرمى"، و"الحارس"، و"ضربات" "الزاوية" و"الجزاء"، وغيرها، والهجوم "الشرس"، و"الدفاع المحكم"، و"الحائط الدفاعي"، و"هجوم خاطف"، و"هجمة مرتدة"، و"النصر"، و"الهزيمة"، وهكذا. كما أصبحت كرة القدم تغذي غيرها من الخطابات باستعاراتها المحورية، كما نجد في "البطاقات الصفراء" و"الحمراء" التي تشهرها الزوجات في وجوه أزواجهن في الرسوم الكاريكاتيرية، وغير ذلك من تعابير تتسلل من الكرة إلى العلاقة الزوجية في "مختلف" جوانبها.

كذلك أصبحت الرياضة - خصوصا كرة القدم - ساحة صراع، وتناطح هويات، وتناقض بين عرقيات وجنسيات. وقد رأينا "الكرة" تحمل أحلام شعوبها من خلال فريق "قومي" "وطني"، في الاستقلال والانفصال عن الكيانات الكبرى كالاتحاد السوفيتي الذي تحلحلت أوصاله إلى دول ودويلات. ورأينا أنّ المباريات بين دول بعينها تظل ملتهبة شرسة تحفل بالتوتر على خلفية الانتماءات والصراعات السياسية. بين

الولايات المتحدة وإيران، وبين عدد لا بأس به من الدول العربية وجاراتها. ورأينـا ونرى كيف يعبّر اللاعبون عن انتماءاتهم السياسية والدينية والقومية بمـا يقولـون وبما يحملون من رسوم وشعارات على ملابسـهم الرياضـية – هـذا إضـافة إلـى الانتماءات "المؤقتة"، "مدفوعة الثمن"، إلى بعض المنتجات والاسماء التجارية.

الرياضة اليوم "حياة موازية" تلقي بظلالها الكثيفة على حياتنا، بل تحركها أو توقفها، كما نجد في شوارع مدينة كالقاهرة أثناء مباراة مهمة بين فريقين كبيـرين أو بـين مصر ودولة أخرى في مسابقة مهمّة، أو في ظروف "كرويـة" حرجـة. بـل أصـبح الرياضيون والمولعون بالرياضة يطلبون منا أن نتعلم منها لصلاح حياتنا. فلمـاذا لا نلعب في حياتنا بروح الفريق؟ ولماذا لا نتعاون؟ ولماذا لا نتحلى بالروح الرياضـية؟ ولماذا يجب أن نخسر بسبب الأنانية أو فقدان الحماس؟ في اتجاه معـاكس، يطلـب الحكماء من الرياضيّين أن يتعلموا من أمجادهم، وبطـولاتهم القوميـة، وإنجـازاتهم الحضارية، وأن "يعدوا" لمنافسيهم ما استطاعوا "من قوّة"، وأن "يجاهدوا" لرفع رايـة بلادهم، وأن يكونوا في جهادهم "أسرة" واحدة، وسوف "ينصرهم الله" حتماً.

(٦)

نافذة على النافذة

"ويأمرها السيد بأن تكنس الغرفة مرة أخرى فتحتج صامتة لأن الغرفة نظيفة ولأن هذا مجرد عذر لكي يتطلع إلى جسمها الجميل. تفتح النافذة، بعد أن يخرج السيد. تصفع الهواء الذي يستقبلها بضحكة عذبة."تطيرين؟""أطير". يأخذها إلى مكان تزهو فيه الألوان وتومض تحت انعكاسات في الجدول حيث الماء نقي وشفاف. النساء تستحم والرجال يقطفون ثمار الأشجار والأطفال يمرحون على العشب. تسأل طفلا:"تلهو منذ وقت طويل ألا تشعر بجوع؟" يضحك الطفل:"عم تتحدثين؟" فتقول له:"سوف تمرض إذا لم تأكل". يهز الطفل رأسه:"كنت جائعا ولم أمرض قط". تقول:"ولكن الموت". يضحك عاليا. تسأله:"لماذا تفتح فكيك هكذا وتطلق هذا الصوت الغريب؟" يجيبها بدهشة:"أنا أضحك". ثم يجري بعيدا عنها. تحاول أن تفعل مثله. تفتح فكيها وتدفع صوتا ممزقا من صدرها."ماذا تفعلين؟" تغلق النافذة بسرعة. كان السيد يتأمل ظهرها. "تنبحين كالكلبة" (أمين صالح: النافذة، ١٩٧٥).

للوقوف على بعض ما يشتمل عليه التحليل الوظيفي من إشكاليات وما يتيح من آفاق دلالية وبلاغية، نطالع جزءا من قصة قصيرة جدا هي النافذة لأمين صالح. وتحديدا ما فيها من أفعال وأحداث وحالات. مجرّد مسودة تحليل، وخطوط عريضة تفتقر إلى الشمول والعمق:

§ "يأمرها السيد": فعل لفظي، يقع (ثبوت) ويشي بسلطة السيد عليها ويؤسس علاقة قهر تمتد إلى النهاية.

§ "تكنس الغرفة": فعل مادي، لم يقع بعد. غير أنه لا بد أن يحدث تأسيسا على العلاقة بين الطرفين.

§ "فتحتج صامتة": فعل مادي، لا يقع. الاحتجاج فعل مؤثر. إذا وقع. لكنه يبقى هنا مجرّد صوت داخلي غير مسموع.

§ "الغرفة نظيفة": كينونة، حالة، تقرير. هكذا ترى الخادمة الغرفة. وعلى هذا الأساس تستنتج ما يلي.

§ "هذا مجرد عذر": كينونة، استنتاج. لما سبق، وربما لسابق عهدها بسيدها. وإلا فلماذا اليقين والقصر؟

§ "يتطلع إلى جسمها": فعل ذهني، إدراك، استنتاج أو ملاحظة. لما سبق، وربما لسابق عهدها بسيدها.

§ "تفتح النافذة": فعل مادي، يقع (ثبوت). هذه لحظة مهمة. وفعل مادي مؤثر إيجابي مثبت.

§ "يخرج السيد": فعل مادي، يقع (ثبوت). فعل آخر مادي إيجابي يتيح الفرصة لشئ من الحرية.

§ "تصافح الهواء": فعل مادي، يقع (ثبوت). لحظة انطلاق إيجابية. هي التي تصافح الهواء، على معنى أنها تملك زمام الفعل.

§ "يستقبلها بضحكة عذبة": سلوكي، يقع (ثبوت). رد فعل إيجابي إزاء انطلاقها وتواصلها.

§ "تطيرين": فعل مادي، لا يقع. هذه دعوة من الطفل تقبلها الخادمة على الفور.

§ "أطير": فعل مادي، لا يقع. قبول الدعوة لا يعني أنها الآن تطير.

§ "يأخذها إلى مكان": فعل مادي، يقع (ثبوت). فعل مادي مؤثر وإيجابي يقع على الخادمة بمحض إرادتها.

§ "تزهو فيه الألوان": كينونة، حقيقة؛ "تومض": مادي، يقع (ثبوت)؛ "تحدث انعكاسات": مادي، يقع (ثبوت)؛ "الماء نقي وشفاف": كينونة، حقيقة. تتألق الطبيعة في حالاتها وحركاتها تعبيراً عن لحظة الانعتاق والتحرر.

§ "النساء تستحم": مادي، يقع (ثبوت)؛ "الرجال يقطفون ثمار الأشجار": مادي، يقع (ثبوت). ويتناغم البشر مع الطبيعة. ربما يوحي الفعلان "تستحم" و"يقطفون" بتلبية

نداء الشهوة ومن ثمّ للتجدد؛ "الأطفال يمرحون على العشب": مـادي وذهنـي. يقـع (ثبوت).

§ "تسأل طفلاً": لفظي، يقع (ثبوت). المرح غريب عليها. من هنا وجـب التسـاؤل. إنها طفلة أكثر من الأطفال في وعيها بالمرح والانطلاق.

§ "تلهو منذ وقت طويل": مادي وسلوكي، يقع (ثبوت)؛ ألا تشعر بجـوع": ذهنـي، استفهام. افتراض. هذه هي حسبتها: إذا طال وقت اللهو. لا بد مـن الجـوع. لكـنْ حسبة الطفل مختلفة، لأنّ اللهو والمرح إشباع من نوع غير الذي ألفته هي.

§ "يضحك الطفل": سلوكي، يقع (ثبوت)؛ "عم تتحـدثين": لفظـي. يقـع (ثبـوت). الاختلاف في الوعي بالجوع والتعب هو الذي يثير الغرابة والسؤال.

§ "فتقول له": لفظي. يقع (ثبوت)؛ "سوف تمرض": صيرورة؛ "إذا لم تأكل": مـادي، سلوكي.

§ "يهز الطفل رأسه": مادي، يقع (ثبوت).

§ "لست جائعا": كينونة، ذهني، حقيقة. "لم أمرض قط": صيرورة. حقيقة.

§ "تقول": لفظي، يقع (ثبوت).

§ "يضحك عاليا": سلوكي، يقع (ثبوت).

§ "تسأله": لفظي، يقع (ثبوت). في لحظة الانعتاق يصبح التساؤل نوعا من التعـرّف إلى العالم الذي لم تألفه الخادمة.

§ "لماذا تفتح فكيك هكذا": مادي، يقع (ثبوت). السؤال عن أشياء ربما تبدو في نظر غيرها بديهيات وأمورا غريزية.

§ "تطلق هذا الصوت الغريب": لفظي، يقع (ثبوت). ليس هذا الصوت مألوفـا لـدى الخادمة.

§ "يجيبها بدهشة": لفظي، يقع (ثبوت). لكنّ الطفل يبقى على تواصله. ويجيب عـن سؤالها.

§ "أنا أضحك": سلوكي، يقع (ثبوت). ربما لم يجب الطفل عن سؤال كهذا من قبل، ومن هنا تأتي الدهشة.

§ "ثم يجري بعيدا عنها": مادي، يقع (ثبوت). يعود الطفل إلى عالمه. لأنّ عالم الخادمة يبدو ضيّقا عليه، أو لأنّ لكلٍّ منهما خططه وحياته.

§ "تحاول أن تفعل مثله": مادي، لا يقع. المحاولة لا تعني الفعل. ولكنّها أفضل من عدمه.

§ "تفتح فاها": مادي، يقع (ثبوت). يبدو أنّها لم تعرف الضحك من قبل. وها هي تحاول أن تتعلمه.

§ "تدفع صوتا ممزّقا من صدرها": مادي، يقع. فعل إيجابي، مع ما في الصوت من ألم ومعاناة.

§ "ماذا تفعلين": مادي، يقع (ثبوت). حذف واستنكار. لا استفهام.

§ "تغلق النافذة بسرعة": مادي، يقع (ثبوت). عودة إلى سجن القهر. ونهاية لحظة التحرّر. فعل الإغلاق يُنهي ما بدأ عندما فُتحت النافذة.

§ "كان السيد يتأمل ظهرها": ذهني، يقع (ثبوت). يتأمل جسدها. لا يتأمّلها هي. أي يتأملها شيئا أو موضوعا، لا بشرا.

§ "تنبحين كالكلبة": لفظي، يقع، (ثبوت) إدراك. هكذا يراها سيدها وهذا هو ردّ فعله تجاه لحظة انطلاقها، وهو يختلف تماما عن ردّ فعل الطفل والطبيعة. وكأنّ الطفولة والطبيعة هما ما تبقى لها من لحظات بهجة وانطلاق.

لم تكن غاية هاليداي مجرّد تصنيف الأفعال وما يرتبط بها من أدوار، بل الانتقال من ذلك إلى فهم ما تفعل اللغة وهي تصوّر الواقع وتؤسّس علاقات مع الآخرين ومع نفسها. حين نتتبّع الأفعال وما يحيط بها من ظروف وأحوال في قصة النافذة، نقف على علاقات القوة والقهر التي تصل، بل تفصل، بين السيّد والخادمة التي حوّلها القهر كائنا بدائيا لم يعرف الضحك بعد.

تتجلى علاقة القهر في هذه القصة القصيرة من بدايتها – و"يأمرها السيّد" ..."يتطلع إلى جسمها" - ولا تكتفي البداية بالإخبار عن محتوى الفعل. بل تشير كذلك إلى الفئة التي ينتمي إليها، وهي فئة الأمر Directives. والأمر في أصل دلالته يقصد بـه طلب فعل الشيء على جهة الاستعلاء، كما أورد رجب (٢٠٠٩) في تناوله لغة طغـاة آخرين. وهو في السياق الراهن استعلاء السيّد على الخادمة. أمّا ردُّ الفعل أو أثـره، فطاعة مرغمة، واحتجاجٌ "صامتٌ".

هكذا تقع الخادمة تحت قهر السيّد من خلال أمره إيّاها، دونما حاجـة حقيقيّـة لمـا يأمرها به، ومن خلال استلاب عينيه جسمها. لا تستطيع الخادمة المقهورة على أمرها أن تفعل شيئاً من تلقاء نفسها -"تفتح النافذة" – أو أن تخرج من حيّز قهرها الا عند خروج السيد. ما يتبع ذلك مساحة مؤقّتة من الحريّة -"تصافح الهـواء". "يسـتقبلها بضحكة عذبة". يدعوها الطفل إلى الطيران، فتقبل. ويأخذها إلى مكـان "تزهـو فيـه الألوان". فتذهب، لتشاهد تألّق الطبيعة في حالاتها وحركاتها تعبيرا عن لحظة الانعتاق والتحرر. في فضاء التحرّر "النساء تستحم". و"الرجـال يقطفـون ثمـار الأشـجار". و"الأطفال يمرحون على العشب". فيما يشي بالتجدّد والبهجة. تنتقـل الخادمـة إلـى فضاء وجوديّ ودلاليّ جديد تستطيع فيه التساؤل، وتعرف معنى الضحك. ذلك السلوك الغريب عليها، وتكتشف أنّ البهجة تُشبع، وتنفي المرض.

حين تحاولُ البهجة، لا تجدُ إلا قيود سيّدها من جديد. يسـتنكر محاولتهـا الضـحك ويختزل لحظة الحريّة، بين فتحها النافذة من تلقاء نفسها وإغلاقها إيّاها تحت سطوة الخوف، ويعود بها إلى الاستلاب: "كان السيّد يتأمّلُ ظهرها" - يتأمّلها شيئا لا بشرا – ولا يجد في الصوت الذي تخرجه إلا نباحا كنباح "كلبة". هكذا يصف السـيّد صـوت الخادمة في صيغة تقريريّة مُستهجنة وتشبيه يجرّدها من آدميتها –"تنبحين كالكلبة". وهكذا تُعيد اللّغة إنتاج الواقع، واقع القهر والسلطة، وهي سـلطة مركّبـة معقّـدة، تجمع بين السلطة الذكوريّة وسلطة السيّد على الخادمة. من خـلال أنـواع الأفعـال وثبوتها ونفيها، وبنية الجملة من حيث من يفعل ومن يقع عليه الفعل.

ولعلنا نلاحظ فيما سبق بعض ما يقترن بالتحليل الوظيفي، وفق نسق هاليــداي، فــي سياق عربيّ من صعوبات وإشكاليات، فليس كلّ ما يُعدُّ فعلا في اللغة الإنجليزية فعــلًا في لغة كالعربية. على سبيل المثال، في جملة "الغرفة نظيفة" في نسختها الإنجليزية، هناك فعل هو "تكون" is، أمّا في اللغة العربية فهي مسند إليــه ومســند. موضــوع ومحمول، أو مبتدأ وخبر. ما يندرج تحت أفعــال القلــوب، والتصــيير، والمقاربــة، والشروع، واليقين، والرجحان، هو من قبيل الأفعال الناسخة. أمّا الأفعــال الأساســية في الجملة العربية، فلا يبدو أنّ لها تصنيفا يشبه تصنيف هاليداي إلى أفعال ماديــة، وذهنية، وسلوكية، وهكذا. من ناحية أخرى لا يتيسر تصنيف كلّ فعل إلى فئةٍ واحــدةٍ من الأفعال حتى في اللغة الإنجليزية.

(٧)

هوامش وتعقيب على مقتطفات من خطاب سياسي

من خطاب الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله [١]

مهرجان النصر والتحرير، بنت جبيل

الجمعة، ٢٦ مايو ٢٠٠٠

باسمه تعالى

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

بسم الله الرحمن الرحيم. والحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا، حبيب قلوبنا وشفيع ذنوبنا، أبي القاسم محمد ابن عبد الله، وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين وعلى جميع أنبياء الله المرسلين وعلى جميع الشهداء والمجاهدين في سبيل الله، منذ آدم إلى قيام يوم الدين.

السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته. [٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

Nlu\&x px' NJB Bx:s # L Q o $M $pdk@gy o ' F8 β x I c q o b)

βq L G 8ce %8 8 ΣJfb& Rb ˉ 6ˉ | I J8zBc %.nq 4Nbq R ˉ Q e

z y go c q b y Rb ˉ F8 βNmzβyRb ; ce O'q8 Ng Rb8 8Ng8b ˉ F8

o_ 8Ng8yty 8R2 r xb c ˉ Æ [٣]

---

(١) إشارة إلى المتكلم بوصفه رمزاً دينياً لا مجرد زعيم سياسي. من الواضح أن الموقع الذي نشر الخطاب يقف في صف "حزب الله". ولو أن الخطاب تُرجم على موقع غربي أو نُشر على موقع عربي لا يدعم "حزب الله" لاختلفت الإشارة.

(٢) فاتحة دينية تليق بخطبة جمعة. وتؤسس انتماء واعتقاداً. وتشير إلى هوية إسلامية. وتضفي على ما يلي من خطاب سمات القداسة التي تليق بخطاب ديني. من هنا يكتسب الخطاب قدراً كبيراً من شرعيته في بيئة إسلامية.

(٣) اقتباس من القرآن الكريم يرسخ مشروعية الخطاب وثنائية دار الإسلام ودار الحرب. ويستعير صورة فرعون في مواجهته مع ضحاياه ومع المستضعفين في الأرض للتعبير عن علاقة إسرائيل بضحاياها من العرب والمسلمين. وفي الاقتباس تأسيس مربع أيديولوجي يبدو فيه الآخر بوصفه "مفسداً". والأنا بوصفه من "الأئمة" "الوارثين"

أيها الإخوة والأخوات. [4]

في يوم المقاومة والتحرير، في يوم الانتصار التاريخي العظيم والكبير. نلتقي هنا في عمق المنطقة التي استعادت الوطن واستعادها الوطن. في أجواء أربعين أبي عبد الله سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليهما السلام. لنؤكد من جديد مقولته وخطه، لنثبت من جديد أنّ الدم هنا ينتصر على السيف. وأنّ الدم هنا قهر السيف وهزمه، وأنّ الدم هنا حطم كل قيد، وأنّ الدم هنا أذلّ كل طاغية ومستكبر. [5]

نلتقي هنا لنحتفل بالنصر الذي صنعته الشهادة، وصنعته الدماء. عندما نتحدث عن هذا النصر. عن تحرير الأرض، عن حرية الإنسان، عن كرامة الوطن. عن عزّة الأمة.. يجب أن نتذكر كل أولئك الذين ساهموا في صنع هذا النصر. قبل كل شيء وبعد كل شيء، نحن عباد الله نعلن أمام العالم كله أن هذا النصر من الله سبحانه وتعالى، هو الذي هدانا إلى طريق المقاومة، هو الذي دلّنا سواء السبيل، هو الذي ثبّت قلوبنا منذ سنوات طويلة، هو الذي ملأ قلوبنا طمأنينة وأنفسنا عشقاً للشهادة وهو الذي ألقى في قلوب أعدائنا الرعب. هو الذي رمى وهو الذي أصاب، هو الذي دمّر المواقع. هو الذي هدم الحصون، هو الذي قتل الجبابرة. وهو الذي صنع هذا النصر. الله. سبحانه وتعالى، الذي نشكره ونحمده ونسبّحه ونستغفره ونتوب إليه ونخضع له وندعوه أن يتم لنا نصرنا بأن يحرر كل الأرض وكل الأخوة وكل هذه الأمة المعذبة والمظلومة. [6]

أنتم فرضتم على العدو شكل الانسحاب ووقته، وأسقطتم لغم العدو في ميليشيا أنطوان لحد. هو كان يراهن على أن تتمترس هذه الميليشيا في مواقعها وتطلق النار. ثم يدخل موفد الأمم المتحدة للتفاوض مع الدولة. وفي مقابل إخلاء المواقع يحصل

---

(4) الجماعة في مواجهة عدوّ مشترك، وتأكيد انتماء المتكلم إلى جمهور السامعين.

(5) صراع الدم والسيف، صراع من يشعر ومن لا يشعر. الإنسان والجماد. الأنا قرين الفداء والتضحية والآخر قرين البطش والاعتداء.

(6) النصر من عند الله. اقتباس النصّ القرآني من خلال الأسلبة والمفردات. لا تقتصر وظيفة استدعاء النصّ القرآني على التبرك، بل تتجاوزه إلى استدعاء زمانه وأحداثه. بحيث تصبح الحرب بين حزب الله وعدوّه غزوة بدر جديدة.

العملاء المجرمون والخونة على العدو. هذا الأمر انتهى أيضاً. انتهى بأذل صورة ممكنة لهؤلاء العملاء الذين شاهدتم صورهم، صور إذلالهم عند بوابات فلسطين المحتلة. وشاهدتم كيف تخلى عنهم هذا العدو. [٧]

أما التهديد والوعيد الإسرائيلي فلا نخاف منه اليوم... هم الخائفون على امتداد هذه الحدود وهذا الشريط. لقد خافوا من بعض النساء والأطفال الذين يقفون على الحاجز الحديدي... يخافون من حجر يرمى عليهم [8] ... أنتم الآن هنا بنت جبيل آمنون سعداء، وهم على امتداد مستعمرات شمال فلسطين المحتلة خائفون ومرتعبون أمام المستقبل المجهول... لقد انتهى الزمن الذي كنا نخاف فيه من التهويل والتهديد الإسرائيلي، وهو يعرف أن الزمن الذي كانت فيه تستبيح طائراته سماءنا قد ولى، وأن الزمن الذي كانت تستبيح دباباته أرضنا قد ولى، وأن الزمن الذي كانت تستبيح فيه زوارقه مياهنا الإقليمية قد ولى، وإنّ أي اعتداء على لبنان لن يقابل بشكوى إلى مجلس الأمن (من مجلس الأمن هذا؟!) ولا بالدموع... لن يقابل إلا بالمقاومة.. "إسرائيل" إذا اعتدت على لبنان ستدفع أثماناً غالية. [9]

أقول لكم يا شعبنا في فلسطين: إنّ إسرائيل هذه التي تملك أسلحة نووية وأقوى سلاح جو في المنطقة، والله هي أوهن من بيت العنكبوت! لكن إذا كنتم تريدون الاعتماد على الاتحاد السوفياتي كما كان في السابق فلن تصلوا إلى نتيجة. إذا كنتم تنتظرون المجتمع الدولي فلن تصلوا إلى نتيجة. إذا كنتم تراهنون على المعادلات فلن تصلوا إلى نتيجة. [10]

---

(٧) "أنتم"، لا "نحن" ولا "أنا". المخاطب هو الفاعل الذي يستحق الثناء. تواضع حسن نصر الله وربما ذكاؤه في إظهار هذا التواضع من خلال الاحتفاء بالمجتمع، لا بالذات. والتهوين من قدر العدو الآخر. أنتم المنتصرون الآمنون، وهم الخائفون.

(8) الآخر الخائف.

(9) أنتم وهم. الأمن والخوف: من الماضي إلى الحاضر – من التهديد إلى الخوف (إسرائيل). ومن الخوف إلى الثقة (حزب الله) - إلى المستقبل – حزب الله يتوعد ويهدد.

(10) الآخر الضعيف، والآخر الذي لا يُرجى منه خير أو عون.

يا شعب فلسطين: إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. يا شعب فلسطين: إن ينصركم الله فلا غالب لكم. [11]

ونقول لشعوبنا العربية والإسلامية: أيتها الأمة العربية، يا عالمنا العربي والإسلامي، الخزي والهزيمة والذل والعار من الماضي. هذا الانتصار يؤسس لحقبة تاريخية جديدة ويقفل الباب على حقبة تاريخية ماضية [12].. ضعوا اليأس جانبا وتسلحوا بالأمل. ضعوا الوهن جانباً واشحذوا الهمم والعزائم [13]. اتني اليوم، باسم كل الشهداء في لبنان، باسم كل المظلومين في لبنان، أطالب الحكومات العربية، بالحد الأدنى، أن توقف التطبيع مع إسرائيل، أن تقطع علاقاتها بـ"إسرائيل". أن تفرض موقفها وقرارها على إسرائيل. وأطالب الشعوب العربية بأن تقف إلى جانب فلسطين وشعب فلسطين. وأن ترفض أي شكل من أشكال التطبيع مع هذا العدو [14].. إسرائيل الكبرى هزمتها المقاومة، إسرائيل العظمى تهزمها المقاومة. ونحد أشكالها المهمة مقاومة التطبيع. [15]

وكل نصر وكل عيد وأنتم بخير

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(11) اقتباس من القرآن الكريم. وإسقاط الموقف الذي نزلت فيه الآية على اللحظة الراهنة. بما في ذلك من تصنيف ضمني إلى فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة.

(12) لحظة فارقة بين حقبتين.

(13) استعارات دالة تجعل من المجردات أردية تخلع وأسلحة تحمل أو تشحذ.

(14) الوقوع في شرك التعريف المستورد من الغرب.

(15) اعادة تعريف المقاومة.

تعقيب

هذا خطاب يتكئ على النصّ القرآني والتراث الإسلامي، لتحقيق قدر كبير من بلاغته وتوصيل رسالته، من خلال الاقتباس الصريح، والأسلبة، أي استلهام أسلوب القرآن الكريم، وتراكيبه، ومفرداته، واستلهام المشاهد القرآنية التي تصف مواجهات المؤمنين مع غير المؤمنين، وكذا استلهام الشخوص التي تنتمي إلى هذين المعسكرين، من وجهة نظر المتكلّم – الإمام الحسين في مواجهة فرعون وهامان.

ليس من الضرورة اقتفاء كلّ طرائق السبك والحبك في الخطاب، فهما من مقوّماته التي لا تستعصي على متكلم بارع مثل نصر الله، أصبح حضوره "البلاغي" بارزا، وحقق شعبيّة جارفة من مبرّراتها قدراته الخطابية ووعيه اللغوي. على سبيل التمثيل لا الحصر ما نجد من توازٍ تركيبي وتكرار في: "أنّ الزمن الذي كانت فيه تستبيح طائراته سماءنا قد ولّى"، و"أنّ الزمن الذي كانت تستبيح دباباته أرضنا قد ولّى"، و"أنّ الزمن الذي كانت تستبيح فيه زوارقه مياهنا الإقليمية قد ولّى". في هذه التراكيب اغتصاب واحتلال وانتهاك يقع على "سماءنا" (سماء المتكلم ومن ينتمي إليه) و"أرضنا" و"مياهنا" على يد "طائراته" (طائرات العدو) و"دباباته" و"زوارقه".

وفي الخطاب ما في جملة الخطابة السياسية من توظيف الاستعارة. على سبيل التمثيل ترد استعارات "الدم ... ينتصر على السيف"، و"الدم ... حطم كل قيد"، و"صنعته الشهادة"، و"صنعته الدماء"، و"تحرير الأرض"، و"كرامة الوطن"، و"عزة الأمة"، و"ضعوا اليأس جانبا وتسلّحوا بالأمل"، و"ضعوا الوهن جانبا واشحذوا الهمم والعزائم". يبدو أنّ الاستعارة المحوريّة هنا هي استعارة الدم والسيف، ويرد التفريق بينهما في هامش على الخطاب، ولا بدّ أن يقع التعاطف، على الأقل تعاطف الأخيار الطيبين، مع الدماء التي تسيل، لا مع السيوف التي تقتل.

وفي الخطاب مواجهة بين معسكرين – هما بلغة جورج بوش معسكر "الخير" ومعسكر "الشر". غير أنّ أشرار بوش ليسوا هم أشرار نصر الله، ولا أخياره أخياره

- بين المتكلم، وإخوته وأخواته المستمعين، والمناصرين، والشهداء، والمستضعفين، وأبناء فلسطين، والإمام الحسين، وما يرتبط به مـــن قيمـــة الاستشـــهاد والتضـــحية والدماء ("نحن" في المربع الأيديولوجي للخطاب)، من ناحية، وبين فرعون، وهامان، وإسرائيل، ومن يساندها، وعلامة المفسدين، والطغاة، والمتكبرين، وما يحملون فـــي وجه المؤمنين من سيوف، ومعهم العملاء المجرمون والخونة ("هم/ الآخر العدو" في المربع الأيديولوجي للخطاب)، من الناحية الأخرى.

تتحدد بؤرة الخطاب من حيث زمانه ومكانه في "نلتقي هنا" (مكان) "في يوم المقاومة والتحرير، في يوم الانتصار التاريخي العظيم والكبير" (زمان)، و"نلتقي هنا في عمـــق المنطقة التي استعادت الوطن واستعادها الوطن" (مكان)، و"في أجواء أربعـــين أبـــي عبد الله سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليهما السلام" (زمان). من هذه البؤرة يشير الخطاب إلى ماض قريب، ماض من التهديد والعدوان والاحتلال الإســـرائيلي - "الزمن الذي كانت تستبيح دباباته أرضنا قد ولى، و... الزمن الذي كانت تستبيح فيه زوارقه مياهنا الإقليمية قد ولى"، و"الخزي والهزيمة والذل والعار من الماضي. هـــذا الانتصار يؤسس لحقبة تاريخية جديدة ويقفل الباب على حقبة تاريخيـــة ماضـــية" - وماض بعيد، ماضي الغزوات الإسلامية الكبرى والإمام الحسين. كما يشير الخطـــاب إلى أماكن أخرى -"وأسقطتم لغم العدو في ميليشيا لحطوان لحد". و"صور إذلالهم عند بوابات فلسطين المحتلة"، و"هم الخائفون على امتداد هذه الحدود". و"هم على امتـــداد مستعمرات شمال فلسطين المحتلة خائفون". وإلى المجتمع الدولي والاتحاد السوفيتي الذي لا يثق المتكلم في قدرة أيٍّ منهما على مساعدة فلسطين. وإلى الأمتين العربيـــة والإسلامية، وما ينبغي عليهما، من وجهة نظر المتكلم، من ضرورة مقاومة التطبيـــع مع إسرائيل.

تتجاوز الإشارة معناها القريب هنا لتؤسس، من خلال الاستلهام والاقتبـــاس، وربمـــا الاقتداء كما في "لنؤكد من جديد مقولته وخطه"، انتماءات وتكتلات تمتد عبر الزمـــان - من فرعون وهامان إلى إسرائيل، ومن غزوة بدر والإمام الحسين إلى حزب الله -

والمكان – لبنان وفلسطين والأمتين العربيـــة والإســـلامية فـــي مواجهـــة إســـرائيل وأعوانها.

وفي الخطاب إيمانٌ بقضاء الله وقدره – قد يقول من لا يحب حسن نصر الله إنه إيهام بالإيمان، أو وسيلة بلاغيّة لتحقيق غايات تواصلية سياسيّة - ينســـجم مـــع انتمـــاء المتكلم وعقيدته. وينسجم مع جملة الاقتباسات القرآنيـــة والإحـــالات إلـــى التـــراث الإسلامي. ويتبدّى، إضافة إلى ما سبق، في نسبة فعل النصر وما يرتبط به إلـــى الله تعالى، من خلال أفعال ذهنية، وتعابير مجازية يرد فيها ضمير يشير إلى لفظ الجلالـــة -"هو" – متبوعا بجملة موصولة، الفاعل فيها هو هذا الضمير. وقد صار مســـتترا، ومن يقع عليهم الفعل بالسلب هم الأعداء، وعلى معسكر الإيمـــان بالإيجـــاب: "هـــذا النصر من الله سبحانه وتعالى، هو الذي هدانا إلى طريق المقاومة. هو الـــذي بلّغنـــا سواء السبيل. هو الذي ثبّت قلوبنا منذ سنوات طويلة. هو الذي ملأ قلوبنا طمأنينـــة وأنفسنا عشقاً للشهادة وهو الذي ألقى في قلوب أعدائنا الرعب. هو الذي رمى وهو الذي أصاب. هو الذي دمّر المواقع، هو الذي هدم الحصون. هو الذي قتل الجبـــابرة، وهو الذي صنع هذا النصر".

حين ينسب المتكلم أفعالاً إيجابية إلى البشر، فإنه ينسبها إلى الحضور: "أنتم فرضـــتم على العدو شكل الانسحاب ووقته، وأسقطتم لغم العدو". أنا هـــو فيطالـــب، ويشـــعر، ويعتقد. وفي هذا تكريم لمن شاركوا، من "فرضوا" ومن "أسقطوا". واستجلاب لمزيـــد من ولائهم وانتمائهم، وفيه كذلك إنكار للذات من جانب المتكلم. أما الآخرون فمـــنهم العملاء والخونة (من يتواطؤون مع إسرائيل)، ومنهم من يحتاج نصـــيحة نصـــر الله (الأمتان العربية والإسلامية وأبناء فلسطين)، ومنهم من يحتمي بترسانته العسكرية، وبيته أوهن من بيت العنكبوت (إسرائيل)، ومنهم من لا يجب الاعتماد على دعمـــه أو عونه (الاتحاد السوفيتي والمجتمع الدولي)، ومنهم من يستحق السّـــخرية (مجلـــس الامن -"من مجلس الأمن هذا؟!"). هذه الفئة الأخيرة تشير على استحياء إلى ســـمة من سمات المتكلم الخطابية، وهي توظيف الفكاهة والسخرية.

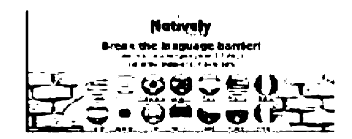
وهكذا، يبقى المتكلّم على حضوره وتأثيره من خلال أفعاله اللغوية البلاغية، أي من خلال ما يفعل بالكلمات والاقتباسات والإحالات، فيؤسس قسمة بين معسكرين عبر الزمان والمكان، معسكرنا (الخير والدم والشهادة والإيمان والانتماء إلى الله)، ومعسكرهم (الشرّ والسيف والعدوان والطغيان ومعاداة الله عزّ وجلّ). ويوظّف الانتصار الذي تحقق للتمييز بين حقبتين – من حقبة الخوف إلى حقبة الأمن والثقة عند حزب الله، ومن حقبة التهديد والاعتداء إلى حقبة الخوف في إسرائيل.

(٨)

نصوص بصرية



تجريد (المعلومات في رسم بياني) ثم تجسيد (الرسم البياني في جسم قابل للحصد)
(من الوطن السعودية، ٣ يوليو ٢٠٠٨).



إعلان على شبكة الإنترنت تتضافر فيه الاستعارة اللغوية ("الحواجز" اللغوية)
مع الاستعارة البصرية ("الجدار" الذي يتهدم).



في كل استعارة اندماج fusion بين عالمين أو فضائين دلاليين. الاندماج في هذا النص بين عالم البشر -"موجابي" - وعالم الكائنات البحرية - الإخطبوط. ما ينتج عن الاندماج هو "رجل إخطبوط" أو "إخطبوط بشري" (الخليج، ٥ يوليو ٢٠٠٨)